@ketab_n
Follow Me
24.7.2015

المؤلفة الحائزة على جائزة بوليتزر للأدب 2000

ترجمان الأوجاع

مجموعة قصصية

جومبا لاهيري

ترجمة: مروة هاشم

ترجمان الأوجاع

جومبا لاهيري

ترجمة: مروة هاشم

Twitter: @ketab_n

ترجمان الأوجاع

Twitter: @ketab_n

© هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، المجمع الثقافي
فهرسة دار الكتب الوطنية أثناء النشر

ترجمان الأوجاع
جومبا لاهيري

© حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1430 هـ 2009 م

PS3562.A316 I5812 2009
Lahiri, Jhumpa
[Interpreter of Maladies]
ترجمان الأوجاع / جومبا لاهيري؛ ترجمة مروة هاشم.- ط.1. - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2009.
224ص ؛ 24x17 سم
ترجمة كتاب: Interpreter of Maladies
تدمك: 978-9948-01-426-3
1 - القصص الامريكية. أ - هاشم، مروة. ب- العنوان.
يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:
Jhumpa Lahiri
Interpreter of Maladies
©1999 Copyright by Jhumpa Lahiri
All rights reserved including the rights of reproduction in whole or in part in any form.

info@kalima.ae كلمة
www.kalima.ae KALIMA
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 468 6314 2 971+ ، فاكس: 462 6314 2 971+

www.cultural.org.ae أبوظبي للثقافة والتراث ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 2 971+ ، فاكس: 059 6336 2 971+

إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة) غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره وإنما تعبّر آراء الكتاب عن مؤلفها.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لكلمة
يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.

Twitter: @ketab_n

المحتويات

مقدمة المترجمة..... 7

شأن مؤقت..... 11

عندما أتى السيد «بيرزادة» لتناول الطعام..... 35

ترجمان الأوجاع..... 57

حارسة الحيّ..... 85

امرأة مثيرة..... 99

منزل السيدة «سين»..... 129

ذلك المنزل المبارك 155

شفاء «بيبي هالدر»..... 179

القارة الثالثة والأخيرة..... 195

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مقدمة المترجمة

ترجمان الأوجاع... المجموعة القصصية الأولى للمؤلفة «جومبا لاهيري» التي أصدرتها في العام 1999، ونالت عنها العديد من الجوائز؛ أهمها جائزة «بوليتزر» للأدب في العام 2000. «جومبا لاهيري» كاتبة أمريكية هندية الأصل، وُلدت في لندن في الحادي عشر من شهر يوليو في العام 1967، ونشأت في ولاية «رود آيلند» الأمريكية، حيث انتقلت عائلتها إلى الولايات المتحدة الأمريكية عندما كانت في الثالثة من عمرها. وقد حصلت «جومبا» على عدد من درجات الماجستير في جامعة «بوسطن»: هي ماجستير في اللغة الإنجليزية، وماجستير في الكتابة الإبداعية، وماجستير في الأدب المقارن، ثم حصلت على درجة الدكتوراه في دراسات عصر النهضة الأوربية، وحالياً تعيش «جومبا» في «نيويورك» مع زوجها وطفليها.

تتألف هذه المجموعة القصصية من تسع قصص قصيرة، كتبتها المؤلفة في أثناء دراستها في جامعة «بوسطن»، لتصف تفاصيل حياة مجموعة من الهنود المغتربين في الولايات المتحدة الأمريكية وبعضاً من ملامح الحياة في الهند. تتجاوز كلماتها حدود الروايات المقروءة؛ لتصبح مشاهد مرئية تصف أدق التفاصيل بعبارات هادئة ومتناغمة تفوح منها رائحة التوابل الهندية الحارة، تستخدمها المؤلفة ببراعة لتناول قضايا شديدة الخصوصية في حياة مجموعة من الهنود المغتربين في الولايات المتحدة الأمريكية؛ أشياء تبدو عادية وبسيطة، يستحضرها الأبطال في مزج رائع بين الماضي والحاضر، في الوقت الذي تعكس فيه تلك الأشياء عمق اختلافات الثقافات ومفاهيم الاغتراب والبحث عن الهوية.

يتميز أسلوب «لاهيري» في الكتابة بالصدق والوضوح، ويُبحر أبطالها ـ الذين ينتمون عادة إلى فئة البنغاليين المهاجرين إلى الولايات المتحدة الأمريكية ـ في صراع بين القيم الثقافية لموطنهم الأصلي، وما يجب أن يتكيفوا معه في وطنهم الجديد. ولكونها ولدت

Twitter: @ketab_n

في لندن، ونشأت في الولايات المتحدة الأمريكية؛ سمحت لها تجربتها الشخصية بالنظر إلى الهند والهنود بصورة مختلفة تماماً عن الاتجاهات الحالية في كتابات الجنوب آسيويين؛ في هذه المجموعة القصصية تكتب «لاهيري» بطريقة مختلفة عما كتبه الآخرون من قبل؛ فالقصص لا تتضمن العناصر المعتادة التي تعمد إلى الإبهار والمبالغة واللجوء إلى التشبيهات الغريبة التي تبدو دخيلة على النص، ولا التعمق في وصف النساء ذوات البشرة السمراء والعيون السوداء وشعورهن الحريرية الطويلة، وما يرتدين من أزياء متعددة الألوان مصنوعة من أقمشة الشيفون والأورجانزا. وبدلاً من التورط في عناصر الانفعال والمأساة والعواطف الجياشة التي تنخرط في الكثير من كتابات الجنوب آسيويين، قدمت لنا «لاهيري» صورة لتفاصيل الحياة اليومية الواقعية التي يمر بها أي مغترب عن وطنه، وكتبت قصصها كأنها شخص خارجي يلاحظ الأشياء ولا يشترك فيها، شخص موضوعي هادئ ينقل ما يراه في عبارات ناقدة وساخرة أحياناً.

أما شخصيات المجموعة القصصية؛ فهي هادئة، وتتحكم في ردود أفعالها ومشاعرها بدرجة كبيرة حتى في أقصى حالات غضبها، ولن يجد القارئ في تصرفاتها مفاجآت ولا أحداثاً صاخبة في القصص ذاتها، إنها أشبه بالتأملات لما يدور في داخل تلك الشخصيات، والواقع من حولها بما يحتويه من ضغوط. إن كل شخصية في المجموعة في صراع لأن هناك أشياء تجذبها في عدة اتجاهات في الوقت نفسه؛ الآباء يجذبون الشخصيات إلى الماضي، وأبناؤهم يجذبونهم إلى المستقبل، ويجذبهم عالم أمريكا إلى الغرب، ويجذبهم عالم الهند إلى الشرق. وقد أشارت «لاهيري» في إحدى مقابلاتها الصحافية إلى ذلك الصراع والاختلاف بين هذين العالمين: «عندما بدأت الكتابة، لم أدرك أن قضيتي الرئيسة ستكون خبرات الأمريكيين ذوي الأصول الهندية. فما شجّعني على الاشتغال بالكتابة هو رغبتي في اقتحام العالمين اللذين عشتهما، فأمزج فوق الأوراق ما لم أتحلَّ به من شجاعة أو نضج كي أسمح به في الحياة الواقعية».

احتلت «لاهيري» مكانة متميزة بين الأدباء الأمريكيين بهذه المجموعة القصصية؛ التي تعد أول إصدارتها الأدبية، وعلى الرغم من ذلك حققت نسبة مبيعات هائلة تجاوزت

Twitter: @ketab_n

ستمائة ألف نسخة، وكانت أفضل أول عمل أدبي للعام لمجلة «نيويوركر» الأمريكية في العام 2000، وحصلت على جائزة «بن/هيمنجوي» في العام 1999، كما تم إدراج اسم «لاهيري» ضمن قائمة مجلة «نيويوركر» لأفضل عشرين مؤلف خلال القرن الحادي والعشرين. ونالت هذه المجموعة القصصية جائزة «بوليتزر» في الأدب في العام 2000، وتعد هذه الجائزة الرفيعة واحدة من مجموعة الجوائز والمنح التي تقدمها سنوياً جامعة «كولومبيا» في الولايات المتحدة الأمريكية في مجالات الخدمة العامة والصحافة والآداب والموسيقى، وهناك الكثيرون ممن حصلوا على جائزة «بوليتزر» نالوا أيضاً جائزة «نوبل» ومنهم: «إرنست هيمنجواي» و«توني موريسون» و«سنكلير لويس» و«ويليام فوكنر»، ومن المسرحيين «بوليتزر» و«أوجين أونيل» و«آرثر ميلر» و«إدوارد آلبي» و«نيل سايمون».

وأخيراً، أتمنى أن يستمتع القارئ العربي بهذه المجموعة القصصية التي تمثل مزيجاً بين الأدبين الأمريكي والهندي، وبزيارة أماكن رائعة تصفها «لاهيري» بدقة تعمد إلى إثارة روح التخيُّل لدى القارئ، كأنه يرى مشهداً كاملاً لما يحدث بين أبطاله، ويستمع إلى أصواتهم من خلال قراءة الحوارات التي احتلت جزءاً كبيراً من طريقة سرد الأحداث. وسوف ينشأ لدى القارئ أيضا نوع من الألفة بينه وبين تلك الشخصيات العادية التي تحاول البحث عن هويتها في أرض جديدة، مع التمسك بتقاليدها وعاداتها التي تشبه كثيراً ثقافتنا العربية.

مروة هاشم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شأن مؤقت

أخطرهما إشعار بأنه سيتم قطع التيار الكهربائي لمدة ساعة واحدة يومياً عن منزلهما طوال خمسة أيام بدءاً من الساعة الثامنة مساءً؛ ولكنه «شأن مؤقت» جراء حدوث عُطل في أحد الخطوط الكهربائية في أثناء العاصفة الثلجية الأخيرة، وقرر القائمون على إصلاحه الاستفادة من الأمسيات الأكثر هدوءاً واعتدالاً في إصلاح الخط المعطوب. أوضح الإشعار أنه لن يتأثر بهذا العمل سوى منازل الشارع الهادئ الذي تصطف الأشجار على جانبيه، ويقع على مسافة قريبة من المتاجر ذات الواجهات الطوبية وموقف عربات الترولي؛ حيث عاش «شوبا» و«شوكومار» ثلاث سنوات.

«من الجيد أنهم اهتموا بإخطارنا».. قالت «شوبا» مستسلمةً، بعد أن انتهت من قراءة الإشعار بصوت مرتفع، ويبدو أنها كانت تقرأ لنفسها بذلك الصوت، وليس لإخبار «شوكومار». ثم أسقطت عن كتفيها حزام حقيبتها الجلدية الممتلئة بالملفات، وتركتها في المَدْخَل، وتوجهت إلى داخل المطبخ. كانت «شوبا» ترتدي معطفاً واقياً من الأمطار، لونه أزرق داكن، ومصنوع من قماش «البوبْلين»، فوق بنطلون رياضي رمادي اللون وحذاء خفيف أبيض، وقد بدت ـ وهي في الثالثة والثلاثين من عمرها ـ في صورة تلك المرأة التي ادعت ذات مرة أنها لن تشبهها أبداً.

كانت قد عادت لتوها من صالة الألعاب الرياضية، وأحمر شفتيها بلون التوت البري بالكاد يُرى على الحد الخارجي من شفتيها، بينما ترك كُحل عينيها بقعاً فحمية اللون تحت أهدابها السفلية. نظر إليها «شوكومار» وجال بخاطره أن «شوبا» اعتادت أن تبدو بهذا الشكل أحياناً في الصباح بعد قضاء حفلة ليلية أو سهرة في الحانة؛ عندما تكون كسولة إلى درجة ألا تغسل وجهها، ومتلهفة جداً إلى أن تسقط بين ذراعيه. رمت «شوبا» حزمةً من رسائل البريد فوق المنضدة من دون أن تنظر إليها؛ فعيناها مازالتا مثبتتين على الإخطار

Twitter: @ketab_n

الذي تحمله بيدها الأخرى، ثم قالت: «ولكن يُجدر بهم القيام بمثل هذه الأشياء في أثناء النهار».

«تقصدين عندما أكون أنا هنا».. أجابها «شوكومار»، ثم وضع غطاءً زجاجياً فوق صحن فيه لحم ضأن، وشرع يضبطه بحيث ينفذ منه أقل القليل من البخار. كان «شوكومار» قد التزم العمل في المنزل منذ شهر يناير؛ في محاولة لإتمام الفصول الأخيرة من دراسته حول الثورات الزراعية في الهند. وسألها قائلاً: «ومتى تبدأ هذه الإصلاحات؟».

«في التاسع عشر من شهر مارس وفقاً لما جاء في الإشعار.. أليس هذا تاريخ اليوم بالفعل؟».. قالت «شوبا» متسائلةً، وهي تسير صوب لوحة الفلّين المعلّقة على الجدار إلى جوار الثلاجة، والتي لم يكن عليها سوى تقويم من نماذج «ويليام موريس» لخلفيات الجدران. نظرت «شوبا» إلى التقويم وكأنها تراه للمرة الأولى، وفحصت بدقة نموذج الخلفية الموجود في النصف العلوي؛ قبل أن تسمح لعينيها بالنظر إلى الأسفل حيث توجد شبكة الأرقام. كان هذا التقويم هدية أرسلها إليهما بالبريد أحد الأصدقاء بمناسبة عيد الميلاد، على الرغم من أن «شوبا» و«شوكومار» لم يحتفلا بعيد الميلاد في ذلك العام.

أعلنت «شوبا» قائلةً: «إنه اليوم إذاً.. وبالمناسبة، لا تنسَ موعدك مع طبيب الأسنان يوم الجمعة المقبل».

مرّر «شوكومار» طرف لسانه فوق رؤوس أسنانه؛ فقد نسي أن يُنظف أسنانه ذلك الصباح، ولكنها لم تكن المرة الأولى التي يفعل فيها الشيء نفسه. وعلى أية حال، لم يغادر «شوكومار» المنزل على الإطلاق في ذلك اليوم أو في اليوم السابق له. وكلما مكثت «شوبا» بالخارج، وعمدت إلى العمل ساعاتٍ أطول، وقبول مشروعات إضافية، ازدادت رغبته في البقاء داخل المنزل، حتى دون أن يغادره لجلب البريد، أو لشراء الفاكهة أو الشراب من المتاجر القريبة من موقف عربات الترولي.

قبل ستة شهور مضت ـ تحديداً في سبتمبر ـ سافر «شوكومار» لحضور مؤتمر أكاديمي في مدينة «بالتيمور»، بينما دخلت «شوبا» المستشفى في حالة وضع قبل الموعد المحدد بثلاثة أسابيع. لم يرغب «شوكومار» في الذهاب إلى ذلك المؤتمر، ولكنها أصرّت؛ فمن الأهمية

Twitter: @ketab_n

بمكان أن يقيم صِلات وعلاقات، خصوصاً أنه سوف يدخل سوق العمل في العام المقبل. أخبرته «شوبا» - وقتها - أن لديها رقمه في الفندق، ونسخة من موعد ورقم رحلة الطيران الخاصة به، وأنها قد رتّبت مع صديقها «جيليان» كي يُقلّها إلى المستشفى في حال حدث أمر طارئ. وعندما ابتعدت سيارة الأجرة مغادرةً إلى المطار ذلك الصباح، وقفت «شوبا» في ردائها المنزلي تلوّح له مودّعة، وإحدى ذراعيها تستند فوق تكوّر بطنها؛ الذي بدا كأنه جزء طبيعي تماماً من جسدها.

في كل مرة يسترجع فيها تلك اللحظة - اللحظة الأخيرة التي رأي فيها «شوبا» وهي حامل - يكون أكثر ما يتذكره هو سيارة الأجرة؛ «ستيشن واجون» حمراء اللون، مطبوعة عليها حروف باللون الأزرق، وتفوق في اتساعها من الداخل سيارتهما الخاصة. وعلى الرغم من أن قامة «شوكومار» كانت ستة أقدام - وله يدان كبيرتان جداً، بحيث يصعب عليه وضعهما في جيبي بنطاله الجينز - فإنه شعر بالضآلة وهو يجلس في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة. وبينما أسرعت السيارة في طريقها في شارع «بيكون»، تخيل «شوكومار» اليوم الذي ربما يحتاج فيه هو و«شوبا» إلى شراء سيارة في مثل هذا الحجم، كي تقل أطفالهما من وإلى دروس الموسيقى ومواعيد طبيب الأسنان. وبعيني خياله رأى نفسه يقبض على عجلة القيادة، بينما استدارت «شوبا» كي تعطي الأطفال علب العصير في المقعد الخلفي. في ما مضى، أصابت تلك الصور الأبوية «شوكومار» بالانزعاج، إضافةً إلى شعوره بالقلق؛ لأنه مازال طالباً وهو في الخامسة والثلاثين من عمره. ولكن في ذلك الصباح الخريفي المبكر، والأشجار لم تزل مثقلة بفروعها البرونزية، وجد «شوكومار» نفسه يرحب بفكرة الأبوّة للمرة الأولى.

في أثناء ذلك المؤتمر، عثر أحد الموظفين على «شوكومار» وهو يتجول بين قاعات المؤتمر، وسلمه قطعة ورقية مربّعة الشكل؛ لم يكن فيها سوى رقم هاتف؛ أدرك «شوكومار» أنه رقم هاتف المستشفى. عندما عاد إلى «بوسطن» كان الأمر برمّته قد انتهى؛ إذ وُلد الطفل ميتاً، و«شوبا» ترقد نائمة فوق الفراش في غرفة خاصة صغيرة جداً، حيث كانت بالكاد مساحة تكفي كي يقف إلى جوارها، وذلك في أحد أجنحة المستشفى التي لم يتفقداها

Twitter: @ketab_n

من قبل في أثناء الجولة التي يقوم بها الآباء الذين ينتظرون مولوداً. وعرف «شوكومار» أن مشيمة «شوبا» قد ضعفت في أثناء الحمل، ومن ثم اضطرت إلى الولادة القيصرية، إلا أن ذلك لم يتم بالسرعة اللازمة. وأوضح له الطبيب أن هذه الأشياء كثيراً ما تحدث، وابتسم له بأطيب وأرق طريقة يمكن أن تتوقعها من أشخاص لا يُعرف عنهم سوى المهنية العلمية. كما أفاده أن «شوبا» سوف تسترد عافيتها في غضون أسابيع قليلة، ولم يكن بها ما يشير إلى أنها قد فقدت قدرتها على الحمل والإنجاب.

في هذه الأيام، اعتادت «شوبا» مغادرة المنزل قبل أن يستيقظ «شوكومار» من نومه. فكان يفتح عينيه ليرى الشعرات السود الطويلة التي أسقطتها فوق الوسادة، فتأخذه أفكاره إليها، ويتخيلها وقد ارتدت ملابسها، وتحتسي قدح القهوة الثالث في مكتبها الذي يقع في وسط المدينة. كانت مهمتها البحث عن الأخطاء المطبعية في نصوص الكتب، فتضع فوقها علامات مستخدمة تشكيلة من الأقلام الخشبية الملوّنة؛ وفقاً لنظام خاص من الاختصارات شرحته له من قبل. ولقد وعدته بأن تفعل الشيء ذاته في دراسته بعد الانتهاء من إعدادها. كان «شوكومار» يحسدها على طبيعة عملها المحددة، على العكس من طبيعة عمله المحيرة، فهو طالب عادي في عامه السادس من دراسته العليا، يتمتع بقدرة على استيعاب التفاصيل بسهولة من دون فضول، دؤوب في دراسته ـ كان هكذا حتى شهر سبتمبر الماضي ـ إن لم يكن متفانياً فيها؛ إذ اعتاد تلخيص الفصول، وتدوين مختصرات المناقشات فوق قصاصات صفراء مسطّرة. ولكنه الآن يستلقي في فراشهما حتى يصيبه الملل، وهو يحدّق إلى جانبه في الخزانة التي دائماً ما تترك «شوبا» جزءاً منها مفتوحاً، فينظر إلى صف سترات «التويد»[1] الصوفية والسراويل القطنية[2]، والتي لن يضطر إلى اختيار ما يرتديه من بينها للتدريس في ذلك الفصل الدراسي. فبعد وفاة الوليد كان الأوان قد فات للانسحاب من واجباته كمعلّم، ولكن رتّب له المشرف على دراسته الأمور بحيث يبقى حُراً طوال أيام الفصل الدراسي في الربيع، ونصحه قائلاً: «سوف يدفعك تفرغك في هذا

1– نسيج صوفي خشن (المترجمة)

2– سراويل مصنوعة من قماش قطني متين مضلّع مخمليّ الزغب. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

الفصل الدراسي وفصل الصيف إلى الانتهاء من دراستك بحلول شهر سبتمبر المقبل».

لم يكن هناك دافع أو محفز لـ «شوكومار» لإنهاء دراسته، وراح بدلاً من ذلك يفكر كيف أصبح هو و«شوبا» خبيرين في تجنب بعضهما، وهما يعيشان في منزلهما المؤلف من ثلاث غرف للنوم، ويستغرقان من الوقت ما أمكن وكل منهما في طابق مختلف. وفكّر كيف أنه لم يعد يتطلع إلى عطلات نهاية الأسبوع التي تجلس فيها «شوبا» ساعات فوق الأريكة، ومعها أقلام التلوين الخشبية وملفاتها، إلى درجة تجعله يخشى تشغيل أسطوانة موسيقية في البيت، فتعدّه شوبا تصرفاً غير مهذب. وخطر له كم مضى من الوقت منذ المرة الأخيرة التي نظرت «شوبا» في عينيه وابتسمت، أو همست باسمه في تلك المناسبات النادرة التي كان التواصل بين جسديهما ـ قبل أن يستغرقا في النوم ـ لايزال ممكناً.

ظنّ «شوكومار» في البداية أن هذا الوضع بينهما لن يستمر طويلاً، وأنهما سوف يتغلبان عليه معاً بشكل أو بآخر؛ إذ إن «شوبا» لم تتجاوز الثالثة والثلاثين من عمرها، وتمكنت من استعادة عافيتها وقوتها مرة أخرى، ولكن ذلك لم يُنسها ما حدث. اعتاد «شوكومار» أن يتوقف عن أفكاره وينهض بجسده عن الفراش أخيراً بحلول وقت الغداء تقريباً، ليتجه إلى رَكوة القهوة بالدور السفلي، فيصب لنفسه القدر الضئيل الإضافي الذي تركته له «شوبا» إلى جانب قدح فارغ فوق المنضدة.

جمع «شوكومار» رقائق البصل في يديه، وألقى بها في سلة المهملات، فوق أشرطة الدهون التي انتزعها من لحم الضأن، ثم أدار الماء في الحوض، وغسل السكين واللوح اللذين استخدمهما في تقطيع البصل واللحم، وفرك أطراف أنامله بنصف ليمونة حتى يتخلّص من رائحة الثوم العالقة بها؛ وهي حيلة تعلّمها من «شوبا». كانت الساعة السابعة والنصف، وعبر النافذة رأى «شوكومار» السماء كمنحدر أسود ناعم، وعلى الرغم من أن الطقس كان دافئاً ـ بحيث يمكن للناس السير في الطرقات من دون قبعات أو قفازات ـ فإن الضفاف الجليدية غير المستوية لم تزل مصطفة لتحد الممرات قرابة ثلاثة أقدام من الجليد قد هطلت في العاصفة الأخيرة، فظل الناس طيلة أسبوع كامل يمشون في صف واحد، في

Twitter: @ketab_n

خنادق ضيقة، وطوال أسبوع كان ذلك هو العذر الذي تحجج به «شوكومار» ليمكث بالمنزل، غير أن الخنادق باتت تتسع الآن، والمياه بدأت تجف بشكل مضطرد، لتقتصر على خطوط بجانب الأرصفة.

قال «شوكومار»: «لن ينضج هذا الضأن قبل الثامنة، ربما نضطر إلى تناول الطعام في الظلام".

«يمكننا إشعال بعض الشموع».. اقترحت «شوبا»، وحلّت شعرها المعقوف بدقة عند مؤخرة عنقها طوال ساعات النهار، ثم خلعت نعليها الرياضيين عن قدميها من دون حتى أن تحل رباطهما، وأردفت قائلة، وهي تتجه صوب الدرج: «سأذهب للاستحمام، وقبل انقطاع التيار سأكون بالطابق السفلي».

حمل «شوكومار» حقيبتها ونعليها ووضعها إلى جانب الثلاجة. لم يكن هذا سلوك «شوبا» من قبل؛ كانت تعتني بتعليق معطفها، ووضع حذائها في الخزانة، وتهرع إلى سداد الفواتير بمجرد أن تَرِد. ولكنها الآن تتعامل مع المنزل كما لو كان فندقاً، ولم تعد تلقي بالاً للتناقض بين اللون الأصفر القطني لغطاء المقعد في غرفة المعيشة، والسجادة التركية بلونيها الأزرق والأحمر الداكن. وفي الرُّواق الذي يطوق الجهة الخلفية للمنزل، ظلت الحقيبة البيضاء المتموجة ملقاة فوق المقعد المصنوع من «أماليد»[1] مجدولة، وبداخلها قماش الدانتيل الذي اعتزمت «شوبا» ذات مرة أن تحوّله إلى ستائر.

وبينما كانت «شوبا» تغتسل، دخل «شوكومار» حمام الطابق السفلي، وعثر على فرشاة أسنان جديدة لم تزل في علبتها أسفل الحوض. أصابته الشعيرات القصيرة الخشنة لهذه الفرشاة الرخيصة بجرح في لثته، وبصق بعض الدماء في الحوض. وكانت تلك الفرشاة الاحتياطية واحدة من كثيرات يُحتفظ بها في سلة معدنية، ولقد ابتاعتها «شوبا» ذات مرة عندما كانت معروضة بسعر مخفّض؛ لعلّ أي من زائريهما يقرر في اللحظة الأخيرة البقاء وقضاء الليلة في منزلهما.

ولكم كان هذا التصرف مطابقاً لطبيعة «شوبا»؛ فهي غالباً ما تستعد للمفاجآت،

1- الأملود: عبارة عن غصن صغير لَدْن (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

الجيدة منها والسيئة. فإذا ما صادفت تنورة أو محفظة أعجبتها، تبتاع منها اثنتين، وتحتفظ بالعلاوات والأرباح التي تجنيها من عملها في حساب مصرفي منفصل باسمها، ولكن ذلك لم يزعج «شوكومار» الذي انهارت والدته بعد موت أبيه، وتخلت عن المنزل الذي شهد سنوات عمره الأولى، وعادت إلى «كلكتا»، وألقت مسؤولية تسوية كل الأمور على كاهل «شوكومار»، ولذا أحب فيها أنها مختلفة، وكثيراً ما اندهش من قدرتها على التفكير في المستقبل. ففي تلك الأوقات حينما كانت تقوم بالتسوق، كان المخزن يعج دائماً بكميات إضافية من قناني زيت الزيتون وزيت الذرة، حسبما كانا يطهوان طعاماً إيطالياً أو هندياً، ناهيك عن عدد لا حصر له من علب المكرونة، بكل أشكالها وألوانها، وأكياس الأرز البسمتي، وأضلاع كاملة من لحم الضأن ولحم الماعز التي تجلبها من الجزارين المسلمين في «هايماركت»؛ كلها مفرومة ومجمّدة في أكياس من البلاستيك يتعذّر عدّها.

في كل أيام السبت الأخرى كانا يجوبان متاهة الأكشاك التي صار «شوكومار» يعرفها عن ظهر قلب، ويقف ناظراً إلى «شوبا» في دهشة، غير مصدق أنها ابتاعت المزيد من الأطعمة، وتجر من خلفها الحقائب المصنوعة من قماش الكانافاه وهي تندفع من خلال الحشود، وتتجادل تحت حرارة شمس الصباح مع صبية ـ أصغر سناً من أن يعمدوا إلى الحلاقة على الرغم من أن أفواههم فقدت بعض أسنانها بالفعل – يلفون الحقائب الورقية البنية وبداخلها الخرشوف، والخوخ، وجذور الزنجبيل، والبطاطا؛ ويلقون بها فوق الموازين التي لديهم، ثم يقذفونها إلى «شوبا» واحدة تلو الأخرى. ولم تنزعج «شوبا» أبداً من التصادم في الزحام، حتى في أثناء حملها؛ فهي طويلة القامة، عريضة المنكبين، وفخذاها ـ كما قال طبيبها ـ خُلقا لحمل الأطفال. وفي طريق العودة إلى المنزل في سيارتهما، وبينما السيارة تمضي بمحاذاة منحنى «تشارلز»، كانا بالقطع يشعران بالدهشة لكم الطعام الذي اشترياه.

لم يذهب أيٌ من ذلك هباءً أبداً؛ فعندما يزورهما الأصدقاء، كانت «شوبا» تقدم لهم الوجبات ببذخ، وكأنها استغرقت نصف اليوم في إعداد هذا الطعام، وهو في الواقع من الأشياء التي عمدت إلى تجميدها، وتعبئتها في قناني، دون الاستعانة بالأشياء الرخيصة المعبأة

Twitter: @ketab_n

في العلب، وتستعين بالفلفل الذي تنقعه بنفسها في نبات العطر «روزماري»، ناهيك عن الصلصات التي كانت تطهوها أيام الأحد، فتغلي الطماطم، والخوخ، والبرقوق، ومن ثمّ اصطفت جرارها ببطاقاتها المميزة لمحتوى كل منها فوق أرفف المطبخ، على هيئة أهرامات لا نهائية، بدت كافية ـ في رأيهما ـ كي يتذوقها أحفادهما. ولكنهما في ذلك الوقت، كانا قد استهلكا كل ما لديهما بالفعل؛ فلقد عمد «شوكومار» إلى استهلاك المخزون لديهما على نحو مضطرد، وراح يعد الوجبات له ولـ «شوبا»؛ فيقيس معيار الأرز بقدح القهوة، ويطهو أكياس اللحوم المُجمّدة يوماً بعد يوم. بل صار يهتم بالبحث في كتب الطهي الخاصة بها كل ظهيرة، متبّعاً ملاحظاتها التي خطّتها بالقلم الرصاص، فيستخدم ملعقتين صغيرتين من بذور الكزبرة بدلاً من ملعقة واحدة، ونبات العدس الأحمر بدلاً من الأصفر، وإلى جوار كل وصفة كتبت «شوبا» تاريخ أول مرة أكلا فيها هذا الطبق معاً: (في الثاني من أبريل، أكلا القرنبيط مع الشمر، وفي الرابع عشر من يناير تناولا الدجاج مع اللوز والزبيب...). وعلى الرغم من أن «شوكومار» لم يعد يذكر الآن أنهما قد أكلا هذه الأطعمة معاً، فإنهما قد فعلا ذلك بلا شك؛ مادامت قد دوّنت ذلك بخطها المنمّق، المكتوب بيد مدقق لغوي بحق. أصبح «شوكومار» يستمتع بالطهي الآن؛ بصفته شيئاً يُشعره بقدرته على الإنتاج والإنجاز، كما يدرك تماماً أنه لولاه لاكتفت «شوبا» بوعاء من الحبوب لوجبة العشاء.

والليلة ـ من دون أضواء ـ سيضطران إلى تناول الطعام معاً. مضت شهور وكل منهما يأخذ طعامه من الموقد، فيذهب «شوكومار» بصحنه إلى مكتبه، ويترك الطعام حتى يبرد قبل أن يضعه في فمه دون توقف، بينما تأخذ «شوبا» صحنها إلى غرفة المعيشة لتشاهد برامج المباريات، أو تعمل على التصحيح اللغوي في بعض الملفات، ومعها ترسانة الأقلام الخشبية الملونة الخاصة بها.

طوال تلك الشهور الماضية، اعتادت «شوبا» أن تزوره في مكتبه في وقت معين من المساء، وعندما يسمع وقع خطواتها وهي تقترب، كان «شوكومار» يضع الرواية التي يقرأها جانباً ويبدأ طباعة بعض الجمل على الكمبيوتر. كانت «شوبا» تضع راحتيها فوق

Twitter: @ketab_n

كتفيه، وتحدّق معه في الوهج الأزرق المنبعث من شاشة الحاسوب، ثم تقول بعد دقيقة أو اثنتين: «لا تُتعب نفسك كثيراً في العمل»، ثم تتجه إلى الفراش. إنها المرة الوحيدة في اليوم بأكمله التي تبحث عنه فيها «شوبا»، وعلى الرغم من ذلك فإنه صار يشعر بالرهبة من تلك اللحظة؛ فهو يدرك تماماً أنها تجبر نفسها على القيام بذلك، وهي تنظر إلى جدران الغرفة التي زيّناها معاً في الصيف الماضي بصف من صور البط والأرانب التي تمشي وهي تدق على الطبول وتنفخ في الأبواق. وبانتهاء شهر أغسطس، كان حوض ثمر الكرز يزهر أسفل النافذة. أما المنضدة البيضاء المتغيرة الشكل ذات المقابض الخضراء، والكرسي الهزاز بوسائده الملوّنة، فقد عمد «شوكومار» إلى فكهما قبل عودة «شوبا» من المستشفى إلى المنزل، وأزال كذلك الأرانب والبط من فوق الجدران مستخدماً أداة خاصة. ولسبب ما؛ لم تكن تلك الغرفة شبحاً يطارده مثلما كان شأنها مع «شوبا». وفي شهر يناير، عندما توقف عن العمل في مقصورته داخل المكتبة، أقام «شوكومار» مكتبه في تلك الحجرة متعمداً؛ لأن تلك الغرفة كانت ـ من ناحية ـ تُشعره ببعض الارتياح، وكانت ـ من ناحية أخرى ـ مكاناً تتجنبه «شوبا».

عاد «شوكومار» إلى المطبخ، وبدأ يفتح الأدراج في محاولة للعثور على شمعة بين المقصات، ومضارب البيض، والخافقات، والهاونات، ودُمى الخيول الصغيرة التي اشترتها «شوبا» من بازار في «كلكتا»، وقد اعتادت أن تسحق فصوص الثوم وحبوب الهيل؛ عندما كانت تطهو الطعام. وأخيراً عثر على مصباح يدوي ولكن من دون بطاريات، وصندوق نصف فارغ من شموع حفلة لعيد ميلاده فاجأته بها «شوبا» في شهر مايو الماضي؛ احتشد فيها أكثر من مئة وعشرين شخصاً داخل منزله (أصبحا الآن يتبنيان منهجاً يتجنبان فيه كل الأصدقاء، وأصدقاء الأصدقاء). في الحفل، استقرت زجاجات النبيذ الأخضر في مهد من الثلج في حوض الاستحمام، كانت «شوبا» في شهرها الخامس من الحمل، وتشرب مِزْر[1] الزنجبيل من كأس المارتيني، وصنعت كعك الفانيليا بالحليب والسكر المجدول، وقضت الليلة كلها وأصابع «شوكومار» الطويلة مشبكة بأناملها، وهما يسيران في الحفلة للترحيب بالضيوف.

1ـ المِزْر: شراب من نوع الجعة. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

منذ سبتمبر الماضي لم يزرهما سوى والدة «شوبا» التي حضرت إليهما من «أريزونا»، ومكثت معهما طوال شهرين بعد عودة «شوبا» إلى المنزل من المستشفى، لتقوم بطهي طعام العشاء كل ليلة، والذهاب بمفردها إلى المتجر لشراء مستلزمات المنزل، وغسل ملابسهما. كانت امرأة متدينة؛ شيّدت مقاماً صغيراً، ولوحة بإطار لإلهة ذات وجه شاحب، أرجواني اللون، وصحن من بتلات نبات القطيف، وضعتها فوق المنضدة إلى جوار الفراش، في غرفة نوم الضيوف، وكانت تصلي مرتين كل يوم من أجل أحفاد أصحاء في المستقبل، أما تعاملها مع «شوكومار» فكان مهذباً ولكنه يفتقر إلى الود. برعت في طي ستراته بحرفية وخبرة اكتسبتها من عملها بمتجر للملابس؛ واستعاضت عن زر مفقود في معطفه الشتوي، وحاكت له وشاحاً من اللونين البني والبيج، وقدمته له من دون أي طقوس خاصة، وكأنه أسقطه من دون أن يلاحظ. ولم تتحدث إليه «شوبا» أبداً؛ ذات مرة، حينما ذكر شيئاً عن موت الطفل، رفعت رأسها عن الحياكة بيدها، وقالت: «ولكنك حتى لم تكن هناك".

صدمته حقيقة أن المنزل يخلو من أية شموع حقيقية، وأن «شوبا» لم تستعد لهذه الحالة الطارئة البسيطة. شرع يبحث عن شيء يضع فيه شموع عيد الميلاد، فثبّتها في تربة نبات اللبلاب الذي عادة ما يستقر على حافة النافذة، فوق الحوض. وعلى الرغم من أن النبات كان يبعد بضع بوصات عن الصنبور، فإن تربته كانت جافة؛ حتى إنه اضطر إلى سقيها بالماء حتى تستوي فيها الشموع منتصبة. أزاح «شوكومار» الأشياء من فوق منضدة المطبخ؛ أكوام البريد، والكتب التي لم تُقرأ، وتذكر وجباتهما الأولى التي تناولاها معاً في ذلك المكان، عندما كانت فكرة زواجهما لم تزل تثيرهما بحق؛ أن يعيشا معاً في المنزل ذاته أخيراً، وأن يندفعا تجاه بعضهما بحماقة، وأن يشغلهما غرامهما حتى عن تناول الطعام. طرح «شوكومار» جانباً اثنين من المفارش المطرزة؛ كانا هدية زواجهما من عم لهما يعيش في «لكناو"، ثم أخرج الصحون والأكواب الزجاجية التي عادةً ما يدخرانها للضيوف، ثم وضع اللبلاب في المنتصف، حيث باتت أوراقه ذات الحواف البيضاء، والتي تتخذ شكل النجوم، مثبّتة بعشر شمعات صغيرات، ثم أدار المذياع ذا الساعة الرقمية، وضبطه على محطة موسيقى الجاز.

Twitter: @ketab_n

«ما كل هذا؟".. قالت «شوبا» وهي تهبط الدرج، وشعرها ملفوف في منشفة بيضاء سميكة، فحلّتها، وألقت بها مجعدة فوق أحد المقعد، تاركةً شعرها المبلل داكن اللون يسقط فوق ظهرها. وبينما كانت تسير شاردة صوب الموقد، مررت أصابعها في خصلات شعرها لتفك بعض تشابكاته. ارتدت «شوبا» سروالاً نظيفاً، وقميصاً قطنياً، وثوباً قديماً ناعماً. لم يعد بطنها مستديراً، ومرة أخرى بدا خصرها دقيقاً فوق فخذيها العريضين، ولقد عقدت حزام الثوب عقدة منسابة.

كانت الساعة قد شارفت على الثامنة عندما وضع «شوكومار» الأرز فوق المنضدة، وحساء العدس المتبقي من الليلة الماضية داخل الفرن الكهربائي، ثم ضبط أرقام العدّاد.

«أرى أنك أعددت الكاري الساخن».. قالت «شوبا» وهي تنظر إلى حساء الفلفل الأحمر المتوهج، عبر الغطاء الزجاجي.

التقط «شوكومار» قطعة من لحم الضأن، وراح ينقلها سريعاً بين أصابعه حتى لا تلسعه حرارتها، ثم وخز قطعة أكبر بملعقة التقديم؛ كي يتأكد من أن اللحم ينسل بسهولة عن العظم، ثم أعلن قائلاً: «الطعام جاهز».

وهنا انطلق أزيز الفرن الكهربي لحظة انقطاع التيار واختفاء موسيقى المذياع.

«توقيت مثالي».. قالت «شوبا».

«لم أجد إلا شموع عيد الميلاد".. قال «شوكومار» وهو يضيء اللبلاب، مستبقياً بقية الشموع، وعلبة الثقاب إلى جوار صحنه.

«لا بأس».. قالت وهي تمرر أصبعاً فوق الكأس الزجاجي الخاص بها، ثم أردفت: «لكم يبدو جميلاً».

حتى والظلام يسود المكان، يعرف «شوكومار» كيف تبدو «شوبا» في جلستها؛ إلى الأمام قليلاً فوق مقعدها، وكاحلاها متقاطعان مع رافدي المقعد، ومرفقها الأيسر فوق المنضدة. وفي أثناء بحثه عن الشموع، عثر «شوكومار» على زجاجة نبيذ في قفص كان يظنها فارغة. ثم ثبّت الزجاجة بين ركبتيه، وراح يدير المفتاح في فوهتها. وخشية انسكاب النبيذ عند فتح الزجاجة؛ التقط «شوكومار»

Twitter: @ketab_n

الكأسين وأبقاهما بالقرب من ساقيه، وصب فيهما النبيذ. أخذ كل منهما طعامه بنفسه؛ فراحا يقلّبان الأرز مستخدمين شوكتين، ويغمضان بنصف جفن وهما ينتزعان الأوراق ذات اللون الكستنائي وفصوص الثوم من الحساء. ودأب «شوكومار» على إشعال المزيد من شمعات عيد الميلاد كل بضع دقائق، مثبتاً إياها في تربة وعاء اللبلاب.

«يذكرني هذا بالهند.. أحياناً تختفي الأنوار ساعاتٍ متصلة في امتداد ما، وأتذكر أنني ذات مرة اضطررت إلى حضور طقوس احتفال الأرز كاملة في الظلام. وظل الطفل يبكي ويبكي.. لابد من أن الحرارة كانت شديدة جداً».. قالت «شوبا» وهي تراقب اعتناء «شوكومار» بالشمعدان البديل.

وهنا خطر لـ «شوكومار» أن طفلهما لم يبكِ أبداً، ولن تُقام لطفلهما أبداً مراسم الاحتفال بالأرز، على الرغم من أن «شوبا» أعدت مسبقاً قائمة بأسماء الضيوف، وقررت مَنْ من أشقائها الثلاثة الذي ستطلب منه أن يُطعم المولود مذاقه الأول من الطعام الصلب؛ عند بلوغه ستة أشهر إذا كان ولداً، وسبعة أشهر إذاً كانت بنتاً.

«هل تزعجكِ الحرارة؟».. سألها «شوكومار»، وأبعد وعاء اللبلاب المتوهج إلى الطرف الآخر من المنضدة، فصار أقرب إلى كومات الكتب والخطابات؛ ما جعل رؤيتهما لبعضهما أمراً أكثر صعوبة. وفجأة شعر «شوكومار» بشيء من الغضب لأنه ليس بوسعه الآن الصعود إلى أعلى والجلوس أمام جهاز الحاسوب.

«كلا .. هذا الطعام لذيذ».. أجابته «شوبا» وهي تنقر صحنها بالشوكة.

– «معكِ حق .. إنه لذيذ بالفعل».

أعاد «شوكومار» ملء كأس «شوبا» بالنبيذ، فشكرته على ذلك.

لم تعد الأمور بينهما كسابق عهدها؛ أصبح الآن يعاني ويناضل كي يجد شيئاً ليقوله بحيث يثير اهتمامها؛ شيء يجعلها ترفع رأسها عن صحنها، أو عن الملفات التي تعمل على تصحيحها، ومن ثمّ أقلع أخيراً عن محاولة تسليتها، وتعلّم قبول فترات الصمت.

أردفت «شوبا» قائلة: «أتذكر أنه في أثناء فترات انقطاع التيار الكهربائي في منزل

Twitter: @ketab_n

جدتي، كان يتعين على كل منا أن يقول شيئاً ما». كان «شوكومار» بالكاد يرى وجهها، إلا أنه يعرف من نبرة صوتها أن عينيها تضيقان في هذه اللحظة؛ كأنها تحاول التركيز على شيء ما على مسافة بعيدة؛ فهذه إحدى عاداتها.

– «شيء مثل ماذا؟»

– «لا أعرف.. ربما قصيدة صغيرة، أو مزحة، أو أي حقيقة عن العالم. ولسبب لا أعرفه كان أقاربي يصرون دائماً على أن أخبرهم بأسماء أصدقائي في أمريكا، وأتعجب من السر الذي يثير انتباههم بهذه المعلومة. في المرة الأخيرة التي رأيت فيها عمّتي، سألتني عن الفتيات الأربع اللاتي كنّ صديقاتي في المدرسة الابتدائية في «توكسون»، واللاتي لا أكاد أتذكرهن الآن».

لم يقضِ «شوكومار» في الهند وقتاً طويلاً كالذي قضته «شوبا»؛ إذ اعتاد والداه ـ اللذان استقرا في «نيو هامبشاير» – أن يذهبا في زيارات إلى الهند من دون اصطحابه. وفي المرة الأولى التي ذهب معهما وهو طفل صغير، كاد يموت من مرض الزحار الأميبي. ولذلك خشي والده ـ وكان من النوع العصبي ـ أن يأخذه إلى هناك مرة أخرى؛ خوفاً من أن يتعرض لأي خطر، وفضّل أن يتركه مع عمّه وعمّته في «كونكورد». أما في فترة مراهقته، فقد فضّل «شوكومار» مخيمات الإبحار، أو تناول المثلجات في أثناء الصيف على أن يذهب إلى «كلكتا». ولم يحدُه أبداً شعور بالاهتمام تجاه وطنه إلا بعد وفاة والده، وكان «شوكومار» لايزال في عامه الدراسي الأخير بالكلية، حيث درس تاريخ بلاده ضمن مقرراته الدراسية، تماماً كأي موضوع آخر. ولكنه يتمنى الآن أن تكون لديه ذكريات طفولة خاصة به في الهند.

«فلنفعل هذا الآن».. قالت «شوبا» على نحو مفاجئ.

– «نفعل ماذا؟»

– «يقول كل منا شيئاً ما للآخر في الظلام».

– «مثل ماذا؟.. أنا لا أجيد إلقاء النكات».

«كلا.. لا أعني نكات».. ثم فكرت «شوبا» لبرهة قبل أن تردف قائلةً: «ما رأيك في أن يقول كل منا شيئاً لم يخبر الأخر به من قبل؟».

Twitter: @ketab_n

«كنت ألعب هذه اللعبة في المدرسة الثانوية.. عندما أثمل».. قال «شوكومار» متذكراً.

«لأنك تفكر في لعبة (هل تجرؤ على الحقيقة). هذا أمر مختلف، حسناً.. سأبدأ أنا».. قالت «شوبا»، ثم ارتشفت من كأس النبيذ، واستطردت قائلة: «في المرة الأولى التي كنت فيها بمفردي في شقتك، بحثت في دفتر عناوينك لأعرف ما إذا كنت قد دوّنت عنواني. كان قد مضى على تعارفنا نحو أسبوعين على ما أعتقد».

– «وأين كنت أنا حينما فعلتِ ذلك؟»

– «ذهبت لترد على الهاتف في الغرفة الأخرى، كانت أمك هي المتصلة، وتصورت أن المكالمة ستستغرق وقتاً طويلاً. أردت أن أعرف ما إذا كنت قد اهتممت بنسخ عنواني من على هامش تلك الجريدة».

– «وهل فعلت؟»

– «كلا.. لكنني لم أيأس منك. والآن.. دورك كي تخبرني بشيء».

لم يستطع التفكير في أي شيء، ولكن «شوبا» كانت في انتظار أن يتكلم، ولم تبدُ بهذا الإصرار منذ شهور مضت. تُرى.. ماذا تبقى لديه ليخبرها به؟ حاول أن يتذكر المرة الأولى التي تقابلا فيها قبل أربع سنوات في قاعة محاضرات بجامعة كامبريدج؛ حيث تجمعت مجموعة من الشعراء البنغاليين لإلقاء أشعارهم، وانتهى بهما الأمر أن جلسا جنباً إلى جنب فوق المقاعد الخشبية، وسرعان ما أصاب «شوكومار» الملل؛ لم يستطع تفسير الأسلوب الأدبي، ومن ثمّ عجز عن مشاركة الجمهور تنهداتهم وإطراءهم الحزين بعد بعض العبارات، فشرع يقرأ، في الصحيفة المطوية فوق ساقيه، درجات الحرارة في المدن حول العالم؛ إحدى وتسعون درجة في «سنغافورة»، إحدى وخمسون درجة في «ستوكهولم». وعندما أدار رأسه جهة اليسار، رأى امرأة إلى جواره تدون قائمة مشترياتها من البقالة على ظهر حافظة أوراقها، وقد أصابته الدهشة فجأة عندما اكتشف أنها جميلة.

قال «شوكومار» متذكراً: «حسناً.. في المرة الأولى التي خرجنا فيها معاً لتناول العشاء في ذلك المطعم البرتغالي؛ نسيت أن أمنح النادل بقشيشاً، فرجعت ثانية في صباح اليوم التالي، وسألت عن اسمه، وتركت له نقوداً مع مدير المطعم».

Twitter: @ketab_n

– «هل عدت كل هذا الطريق إلى «سوميرفيل» مرة أخرى كي تدفع فقط للنادل بقشيشاً؟»

– «أخذت سيارة أجرة».

– «وما الذي أنساك أن تدفع له بالأساس؟»

احترقت شموع الميلاد عن آخرها، ولكنه تخيل وجهها في الظلام بمنتهى الوضوح؛ العينان الحادتان الواسعتان، والشفتان المملتتان بلون حبتين من العنب، وفوق ذقنها توجد علامة مرئية، كأنها فاصل، حدثت نتيجة سقوطها وهي في الثانية من عمرها من فوق مقعدها العالي. لاحظ «شوكومار» أن جمال «شوبا» ـ الذي سحره من قبل ـ بدأ يذبل، وبعد أن كانت مستحضرات التجميل من الأشياء الثانوية لديها في ما مضى، أصبحت الآن ضرورة؛ ليس لتحسين هيئتها، وإنما لتحديد ملامحها على نحو ما.

ثم قال «شوكومار» وكأنه يعترف لذاته أيضاً كما يعترف لها للمرة الأولى: «عندما أوشكنا على الانتهاء من طعامنا في ذلك اليوم، ساورني إحساس غريب بأنني ربما أتزوجك. لابد من أن الفكرة قد استحوذت على تركيزي فأنستني النقود».

في الليلة التالية عادت «شوبا» إلى المنزل مبكرة عن موعدها المعتاد. كان لايزال هناك بعض لحم الضأن من طعام الأمسية الماضية، فعمد «شوكومار» إلى تسخينه، حتى يتمكنا من تناول طعامهما بحلول السابعة. وفي ذلك اليوم، خرج «شوكومار» من المنزل، فشق طريقه عبر الثلج الذائب، ليشتري علبة من الشموع من المتجر لدى الزاوية، وبطاريات تناسب المصباح اليدوي. ومن ثمّ كانت الشموع جاهزة للاستخدام فوق سطح المنضدة، ومثبّتة في مشاعل نحاسية تشبه زهرة اللوتس، لكنهما تناولا وجبتهما في ضوء مصباح السقف المظلل بالنحاس، المعلّق فوق المنضدة.

وعندما انتهيا من تناول الطعام، اندهش «شوكومار» لرؤية «شوبا» وهي تضع صحنها فوق صحنه، ثم تحملهما معاً إلى الحوض، بدلاً من أن تنسحب إلى غرفة المعيشة، لتختفي كعادتها خلف حاجز الملفات.

فقال لها وهو يأخذ الصحنين من يدها: «لا عليكِ من أمر الصحون».

Twitter: @ketab_n

«بل من السخف ألا أفعل.. أظن الساعة تقترب من الثامنة».. قالت وهي تسكب قطرة من سائل التنظيف فوق الإسفنجة.

شعر «شوكومار» بدقات قلبه تتسارع. لقد أمضى اليوم بأكمله وهو يتطلع إلى لحظة انقطاع التيار. وفكر في ما ذكرته «شوبا» الليلة الماضية بشأن اطلاعها على دفتر العناوين الخاص به، شعر بالسعادة وهو يتذكر ما كانت عليه آنذاك؛ جرأتها الشديدة رغم توترها في المرة الأولى التي تقابلا فيها، وكيف كانت مفعمة بالأمل. وقف «شوكومار» و«شوبا» متجاورين إزاء الحوض، وقد اتسق انعكاس صورة كل منهما مع الآخر كما بدا في زجاج النافذة. أخجله هذا، تماماً كما حدث في المرة الأولى التي وقفا فيها متجاورين أمام المرآة، غير أنه لم يتذكر المرة الأخيرة التي جمعتهما فيها صورة فوتوغرافية. فقد توقفا عن حضور الحفلات أو الذهاب إلى أي مكان معاً، حتى إن الفيلم داخل الكاميرا الخاصة به مازال يضم صوراً التقطها لـ «شوبا» في ساحة المنزل في أثناء فترة حملها.

وبعد أن انتهيا من تنظيف الصحون، استندا إلى المنضدة، وشرعا يجففان أيديهما بطرفي المنشفة ذاتها. وبحلول الساعة الثامنة، خيم الظلام على المنزل. أشعل «شوكومار» فتائل الشموع، وأعجبه طول وثبات اللهب المنبعث.

قالت شوبا: «فلنجلس بالخارج؛ أظن أن الطقس مازال دافئاً».

ومن ثمّ، حمل كل منهما شمعة، وجلسا فوق الدرج. بدت جلستهما تلك غريبة بالخارج، وبقع الثلج لم تزل فوق الأرض. خرج كل جيرانهما من منازلهم في تلك الليلة، حيث نقاء الهواء بالخارج يجعل من البقاء داخل المنازل أمراً مزعجاً. راحت الأبواب الشبكية الخفيفة تنفتح وتنغلق، ومرّ بهما موكب صغير من الجيران يحملون مصابيحهم اليدوية.

«نحن ذاهبون إلى متجر الكتب لنتصفح بعضها، سمعت أن التيار لا ينقطع لديهم».. قال رجل ذو شعر فضي يسير مع زوجته؛ امرأة نحيفة ترتدي سترة واقية، وتحمل كلباً مقيّداً. إنها أسرة «برادفورد»، ولقد وضعا بطاقة مواساة في صندوق بريد «شوبا» و«شوكومار» لدى الحادث المؤسف في سبتمبر الماضي.

فأجابه «شوكومار»: «أتمنى هذا.. وإلا ستضطران إلى التصفح في الظلام».

Twitter: @ketab_n

ضحكت المرأة وقالت وهي تفلت ذراعها من ثنية مرفق زوجها: «ألا ترغبان في مرافقتنا إلى هناك؟».

«كلا.. شكراً».. أجابها كل من «شوبا» و«شوكومار» بصوت مرتفع، واندهش «شوكومار» لتطابق تعبيرهما.

تساءل «شوكومار» عمّا ستقوله له «شوبا» في الظلام في تلك الليلة، وفكّر بالفعل في أسوأ الاحتمالات. ربما ستخبره بأنها قد أقامت علاقة مع رجل غيره، أو أنها لا تحترمه لكونه في الخامسة والثلاثين من عمره ولم يزل طالباً، أو ربما تلقي عليه باللوم ـ كما فعلت أمها ـ لأنه كان في «بالتيمور» عندما فقدت الجنين. لكنه يعرف أنها لن تقول أياً من هذا؛ فهي مخلصة له تماماً كما أنه مخلص لها، وأنها كانت مؤمنة به، وهو الذي أصرّ على الذهاب إلى «بالتيمور». فما الذي لا يعرفانه عن بعضهما؟ كان يعرف أنها تعقف أصابعها بشدة عندما تنام، وأن جسدها يوخزها وينتفض عندما تنتابها الأحلام السيئة، وأنها تحب قطرات العسل فوق الشمّام. وعندما عادا من المستشفى في ذلك اليوم؛ كان يعرف أن أول ما ستفعله حين تخطو داخل المنزل هو أن تختار من بين أشيائهما ما تجمعه في كومة في الردهة: كتباً من فوق الأرفف، نباتات من عتبات النوافذ، ولوحات من فوق الجدران، وصوراً من فوق المناضد، وأوعية وقلايات معلقة بخطاطيف فوق الموقد. ابتعد «شوكومار» عن طريقها، وراح يرقبها وهي تتحرك على نحو منهجي من غرفة إلى أخرى. وما إن شعرت باكتفاء حتى وقفت أما الكومة التي صنعتها، وراحت تحدّق فيها، ثم شدّت شفتيها في اشمئزاز حتى ظن «شوكومار» أنها سوف تبصق في آخر الأمر، وأخيراً أجهشت بالبكاء.

بدأ «شوكومار» يشعر بالبرد وهو يجلس فوق الدرج، وكان يشعر أنه يحتاج إلى أن تبدأ هي الحديث لكي يستجيب.

وأخيراً قالت: «أتذكر حين أتت أمك لزيارتنا؟.. حين قلت ذات ليلة إنني سأتأخر في عملي؛ الحق أنني خرجت مع «جيليان» واحتسينا المارتيني».

التفت «شوكومار» لينظر إلى جانب وجهها؛ أنفها الدقيق، وفكّها الذكوري على

Twitter: @ketab_n

نحو ما. وتذكّر تلك الليلة جيداً؛ حين كان يتناول الطعام مع أمه، منهكاً بعد تدريسه لفصلين متتالين، ويأمل لو كانت «شوبا» معهما لتقول بعضاً من الأشياء الملائمة، لأنه لم ينطق إلا بالأشياء غير المناسبة بالمرة. كان قد مضى على وفاة أبيه نحو اثني عشر عاماً، وأتت أمه لتقضي معه و«شوبا» فترة أسبوعين، ليكرموا ذكرى أبيه معاً؛ في كل ليلة، كانت أمه تطهو واحداً من الأطعمة المفضلة لدى أبيه، ولكنها من فرط حزنها عليه تجد صعوبة في تناول هذه الأطعمة، لدرجة أن عينيها تفيضان بالدموع عندما تربّت «شوبا» على يدها لمواساتها. وذات مرة قالت له «شوبا»: «لكم أجد هذا مؤثراً». وها هو الآن يرى بعين خياله «شوبا» وهي تجلس مع «جيليان» في حانة ذات أرائك مغطاة بالمخمل المخطط ـ والتي اعتادا الذهاب إليها بعد حفلات السينما ـ وتخيلها تلح في طلب الزيتون الإضافي كعادتها، وتطلب من «جيليان» أن يُشعل لها سيجارة. بل رآها تشتكي إلى «جيليان» الذي يتعاطف مع زيارات الحموات. وتذكّر شوكومار أن «جيليان» هو الذي أخذ «شوبا» إلى المستشفى.

«دورك الآن».. ارتفع صوت «شوبا» ليقطع حبل أفكاره.

من نهاية الشارع الذي يقطنانه؛ سمع «شوكومار» أصوات مثقاب وصياح رجال الكهرباء يعلو عليها، فنظر إلى واجهات المنازل المظلمة المصطفة على جانب الشارع، والشموع تبرق في نافذات أحدها. وعلى الرغم من دفء الطقس، فإن الدخان تصاعد من مدخنة ذلك المنزل.

قال «شوكومار»: «عمدت إلى الغش في اختبار الحضارة الشرقية في الكُليّة؛ كان آخر فصل دراسي لي، المجموعة الأخيرة من الامتحانات، وقد توفي أبي قبل موعد الاختبار ببضعة شهور. تمكنت من رؤية دفتر إجابات الطالب الجالس إلى جواري؛ كان أمريكياً مهووساً بالعلم، ويتحدث الأوردية والسنسكريتية. لم أستطع تذكر ما إذا كانت أبيات الشعر محل السؤال مثالاً لشعر الغزل أم لا. فنظرت في ورقته ونسخت الإجابة».

على الرغم من أن هذه الواقعة حدثت قبل ما يزيد على خمسة عشر عاماً، فإنه شعر بارتياح شديد الآن بعد أن أخبرها بها.

Twitter: @ketab_n

التفتت «شوبا» إليه، ولكنها لم تنظر إلى وجهه، بل إلى حذائه ـ زوجين قديمين من الأحذية الجلدية من دون كعب، وكان «شوكومار» ينتعلهما وكأنهما زوجان من النعال؛ فالقطعة الجلدية في المؤخرة دائماً مثنية إلى الداخل ومُسطّحة أسفل كعبيه. وتساءل عمّا إذا كان ما أفصح به لتوّه قد أزعجها. إلا أن «شوبا» أمسكت بيده وضغطت عليها، وقالت وهي تقترب منه أكثر: «لم تكن مضطراً إلى أن تخبرني لماذا فعلت هذا».

مكث «شوكومار» و«شوبا» في جلستهما تلك حتى التاسعة ليلاً، عندما أضاءت الأنوار، وسمعا أناساً عبر الشارع يصفقون في شرفات منازلهم فرحاً بعودة التيار، وعلت أصوات أجهزة التلفاز من جديد. ثم شاهدا السيد «برادفورد» وزوجته عائدين وهما يتناولان أقماع الآيس كريم، ويلوّحان لهما، فردّ «شوكومار» و«شوبا» عليهما التحية، ثم نهضا عن الدرج، ودخلا المنزل، ولم تزل يداهما متشابكتين.

وهكذا، بطريقة ما، ودون الحاجة إلى أن يقولا أي شيء، تحوّل الأمر بينهما إلى هذا المسار؛ إلى تبادل الاعترافات ـ تلك الأشياء الصغيرة التي جرحا بها بعضهما، أو التي تسببت في شعور أي منهما بالإحباط. وفي اليوم التالي، استغرق «شوكومار» ساعات في التفكير في ما سيقوله لها عندما يحل الظلام، واحتار بين أن يعترف لها بشأن صورة المرأة التي انتزعها ذات مرة من إحدى مجلات الموضة ـ التي اعتادت أن تشترك فيها «شوبا» ـ والتي احتفظ بها بين صفحات كتبه لمدة أسبوع، وبين أن يخبرها بأنه لم يفقد حقاً «الصديري الصوفي» الذي أهدته إياه في عيد زواجهما الثالث، بل باعه في متجر «فيلين»، وأنه احتسى الشراب بمفرده حتى الثمالة ذلك اليوم في وضح نهار في حانة أحد الفنادق. وتذكّر كيف أعدت له «شوبا» في عيد زواجهما الأول عشرة أصناف من الطعام له وحده، أما ذلك الصديري فأصابه بالاكتئاب حتى إنه اشتكى للنادل في تلك الحانة، ورأسه ثقيل من أثر الشراب: «تخيل.. أهدتني زوجتي صديرياً في عيد زواجنا!»، فأجابه النادل ببساطة: «ماذا تتوقع؟ .. هذا هو الزواج».

لم يعرف «شوكومار» السبب وراء انتزاعه صورة تلك المرأة من المجلة؛ فهي لم تكن

Twitter: @ketab_n

أبداً في جمال «شوبا». كانت ترتدي ثوباً أبيض براقاً، ولها وجه نحيل متجهّم، وساقان تشبهان سيقان الرجال، ترفع ذراعيها العاريتين، وتضع قبضتيها حول رأسها، وكأنها تلكم ذاتها في أذنيها؛ وكان ذلك إعلاناً عن جوارب. في تلك الفترة كانت «شوبا» لم تزل حاملاً، واستدارت بطنها فجأة على نحو هائل، إلى الحد الذي جعل «شوكومار» عازفاً عن لمسها. وعندما رأى صورة تلك المرأة لأول مرة، كان مستلقياً في الفراش إلى جوار «شوبا»، يرقبها وهي تقرأ. وعندما لمح المجلة في كومة المهملات، تصفحها حتى عثر على صورة تلك المرأة، وانتزعها بدقة قدر المستطاع. وطوال أسبوع كامل استرق النظر إليها كل يوم، واجتاحته رغبة شديدة تجاه تلك المرأة، ولكن تلك الرغبة سرعان ما كانت تتحول إلى إحساس بالاشمئزاز بعد دقيقة أو دقيقتين. كان هذا أقصى ما يمكن أن يصل إليه في الخيانة.

وفي الليلة الثالثة أخبر «شوبا» بما فعله بشأن «الصديري»، وأرجأ اعترافه بالصورة حتى الليلة الرابعة. التزمت «شوبا» الصمت فيما كان «شوكومار» يقص اعترافه، ولم تُبدِ أي اعتراض ولا لوم، بل اكتفت بالاستماع، ثم أمسكت بيده، وضغطت عليها على غرار ما فعلت من قبل. أما هي، فأخبرته في الليلة الثالثة كيف أنها ذات يوم، بعد إحدى المحاضرات التي حضراها معاً، تركته يتحدث إلى رئيس القسم الخاص به دون أن تخبره بقطعة فطيرة اللحم الضئيلة التي كانت لم تزل عالقة بذقنه. كانت غاضبة منه لسبب ما، ومن ثمّ تركته يستمر في حديثه عن منحته الدراسية للفصل الدراسي التالي، متجاهلة أن تضع أصبعها على ذقنها في إشارة إليه لينتبه. وفي الليلة الرابعة أخبرته بأنها لم تعجبها أبداً القصيدة الوحيدة التي نشرها في حياته، بمجلة أدبية في ولاية «يوتا»، والتي كتبها «شوكومار» بعد لقائه بـ «شوبا»؛ وأضافت أنها تجدها عاطفية على نحو مبالغ فيه.

حدث شيء ما عندما حل الظلام بالمنزل.. شيء ما مكّنهما من الحديث إلى بعضهما مجدداً؛ ففي الليلة الثالثة، بعد العشاء، جلسا معاً فوق الأريكة، وما إن حل الظلام حتى طفق يقبّل جبهتها ووجهها في ارتباك، وعلى الرغم من الظلام فإنه أغلق عينيه، وهو يعلم أن هذا ما فعلته هي أيضاً. أما في الليلة الرابعة، فقد صعد الزوجان الدرج إلى غرفة النوم

Twitter: @ketab_n

في حذر، وراحا يتحسسان معاً خطوتهما الأخيرة قبل الوصول إلى الفراش، والذوبان في حميمية كانا قد نسياها. وبعدها، بكت «شوبا» في صمت وهمست باسمه، وتحسست حاجبيه في الظلام بأطراف أناملها. وبينما كان يضاجعها، فكر في ما سيقوله لها في الليلة التالية، وماذا ستقول هي، وأثارته الفكرة، وهمس قائلاً: «ضميني.. ضميني بين ذراعيكِ». وعندما أضاءت الأنوار في الطابق السفلي، كان الزوجان مستغرقين في النوم.

في صباح اليوم الخامس، وجد» شوكومار» في صندوق البريد إشعاراً آخر من شركة الكهرباء، يفيد بأنه قد تم إصلاح خط الكهرباء قبل الموعد المحدد، فشعر بالإحباط؛ فلقد خطط بالفعل لإعداد طبق الجمبري بالكريمة لـ «شوبا»، ولكنه فقد رغبته في الطهي بمجرد أن وصل إلى المتجر. وفكر في أن الأمر سيختلف مع عدم انقطاع التيار الكهربائي واختفاء الظلام. وفي المتجر، بدا الجمبري رمادي اللون وهزيلاً، كما بدت علبة لبن جوز الهند مُتربة وباهظة الثمن. ولكنه اشتراهما على الرغم من ذلك، وابتاع معهما شمع العسل وزجاجتي نبيذ.

وفي السابعة والنصف مساءً عادت «شوبا» من عملها، وعندما رآها «شوكومار» تقرأ الإشعار، قال: «أعتقد أننا بهذا قد وصلنا إلى نهاية اللعبة».

فنظرت إليه وقالت: «لم يزل بوسعك أن تضيء الشموع إذا رغبت في ذلك». لم تذهب «شوبا» إلى صالة الألعاب الرياضية في ذلك اليوم؛ وكانت ترتدي طقماً أسفل معطف المطر، وبدا أنها قد أصلحت من مساحيق وجهها قليلاً قبل عودتها.

صعدت «شوبا» إلى غرفة النوم لتبدّل ملابسها، ومكث «شوكومار» بالطابق الأرضي، وصبّ لنفسه كأساً من النبيذ، وأدار تسجيلاً لمختارات موسيقية لـ «ثيلونيوس مونك» يعرف كم تحبها «شوبا».

وعندما انضمّت إليه في الطابق الأرضي، تناولا طعامهما معاً. ولم يحدث أن شكرته «شوبا» أو جاملته، بل اكتفيا بالطعام في غرفة مظلمة، وعلى وهج شمع العسل. لا شك في

Twitter: @ketab_n

أنهما اجتازا معاً وقتاً عصيباً. انتهى «شوبا» و«شوكومار» أولاً من الجمبري، ثم زجاجة النبيذ الأولى، وشرعا بعدها يحتسيان الزجاجة الثانية، ومكثا معاً حتى كادت الشمعة تذوب تماماً. وأخيراً، اعتدلت «شوبا» في مقعدها، وظن «شوكومار» أنها على وشك أن تقول شيئاً ما. ولكنها لم تفعل، بل نفخت لهب الشمعة فأطفأته، ثم وقفت وأضاءت الأنوار، وعادت إلى جلستها مرة أخرى.

سألها «شوكومار»: «ألا ينبغي أن نترك الأنوار مطفأة؟»

وضعت «شوبا» صحنها جانباً، وشبّكت يديها فوق المنضدة، وقالت في نعومة: «أريدك أن ترى وجهي وأنا أخبرك بما سأقول».

شعر «شوكومار» بدقات قلبه ترتفع في جنباته؛ ففي ذلك اليوم الذي أخبرته فيه بحملها، تحدثت بالنبرة الرقيقة ذاتها، مستخدمة الكلمات ذاتها، وأغلقت التلفزيون الذي كان يتابع فيه مباراة كرة السلة. وقتها لم يكن مستعداً لتلقي الخبر، ولكنه الآن مستعد.

لم يرغب فقط في أن تكون حاملاً مرة ثانية، ولم يرد أن يدّعي سعادة لا يشعر بها بالفعل.

«كنت أبحث عن شقة طوال الفترة الماضية.. وأخيراً عثرت على مكان مناسب».. قالت «شوبا» وعيناها تضيقان على شيء بدا أنه خلف كتف «شوكومار» اليسرى. وتابعت «شوبا» حديثها، وأخبرته بأن ما حدث لم يكن خطأ ولا مسؤولية أي منهما، وأنهما قد مرّا بما يكفي، ومن ثمّ تحتاج إلى أن تقضي بعض الوقت بمفردها. وأضافت أن لديها بعض المال قد ادخرته وديعة، وأن الشقة تقع في منطقة «بيكون هيل» بالقرب من عملها؛ حيث يمكنها أن تذهب إليه سيراً على الأقدام، وقامت بتوقيع عقد الإيجار في ذلك المساء قبل عودتها إلى المنزل.

تحدثت «شوبا» من دون أن تنظر إلى «شوكومار» الذي كان ينظر إليها محدّقاً، وبدا جلياً أنها تلوك عبارات قد تدربت كثيراً على قولها. قضت كل الفترة الماضية في البحث عن شقة تنتقل إليها؛ فتتأكد من ضغط المياه، وتسأل السمسار عمّا إذا كان الإيجار يتضمن التدفئة والماء الساخن. شعر «شوكومار» بالغثيان لمعرفة أنها قضت تلك الأمسيات الماضية

Twitter: @ketab_n

في الاستعداد لحياة أخرى من دونه. ربما شعر ببعض الارتياح للفكرة، إلا أن الأمر لم يخلُ من الألم. وأدرك أن ذلك هو ما حاولت أنه تخبره به طوال الأمسيات الأربع الماضية؛ هدفها من اللعبة.

والآن حان دوره ليتكلم. كان هناك شيء ما أقسم ألا يخبرها به أبداً، وطوال ستة شهور مضت بذل قصارى جهده كي يصرف تفكيره عنه؛ فقبل إجراء أشعة الموجات فوق الصوتية، طلبت «شوبا» من الطبيب ألا يخبرها بنوع طفلهما، ووافقها «شوكومار» على ذلك؛ أرادت أن يكون الأمر مفاجأة لهما.

وفيما بعد، في المرات القليلة التي تحدّثا فيها عمّا حدث، ذكرت «شوبا» أنه ربما من حسن الحظ أنهما اختارا ألا يعرفا نوع الجنين، وكأنها تفخر بحكمة القرار الذي اتخذته؛ إذ أتاح لها الغموض ملجأً تحتمي به من مرارة ما حدث. وكان «شوكومار» يعرف أنها تفترض أن الأمر كذلك بالنسبة إليه؛ ربما لوصوله متأخراً من «بالتيمور»، عندما انتهى الأمر برمته وهي راقدة في فراش المستشفى. ولكن الأمر لم يكن كذلك؛ فقد وصل «شوكومار» مبكراً بما يكفي لرؤية طفلهما، ولأن يضمه قبل أن يحرقوا جثته. وعلى الرغم من أنه رفض الاقتراح في البداية، فإن الطبيب أخبره بأن ضمّه للطفل ربما يساعده على تجاوز المحنة. وكانت «شوبا» نائمة عندما غسلوا الطفل وأغلقوا جفنيه المنتفخين عن هذا العالم إلى الأبد.

قال «شوكومار»: «كان طفلنا ولداً.. بشرته تميل إلى اللون الأحمر أكثر منها إلى البني، وشعر أسود اللون فوق رأسه. وكان يزن نحو خمسة أرطال، وأصابع يديه معقوفة؛ مثلكِ تماماً حين تنامين ليلاً».

نظرت إليه «شوبا» وملامح وجهها يعتصرها الألم. ربما قد غشّ في اختبار الكلية، أو انتزع صورة تلك المرأة من المجلة، وصحيح أنه أعاد الصديري وثمل بثمنه في وضح النهار؛ فتلك هيَ الأشياء التي اعترف لها بها. ولكنه احتضن ابنهما الذي لم يعرف الحياة إلا بداخلها هي؛ ضمّه إلى صدره في غرفة مظلمة في جناح مجهول بالمستشفى. ضمّه حتى طرقت الممرضة الباب وأخذته بعيداً عنه، وقطع على نفسه عهداً في ذلك اليوم ألا

Twitter: @ketab_n

يخبر «شوبا» أبداً؛ لأنه كان لايزال يحبها وقتها، وكان ذلك الشيء الوحيد في حياتها الذي رغبت في أن يكون مفاجأة.

وأخيراً، وقف «شوكومار»، ووضع صحنه فوق صحنها، ثم حمل الصحنين إلى الحوض. ولكن بدلاً من أن يدير الصنبور، نظر إلى خارج النافذة. وفي الخارج، كان المساء لم يزل دافئاً، والسيد «برادفورد» وزوجته يسيران، وكل منهما يتأبط ذراع الآخر. وفيما كان يرقبهما، عمّ الظلام بالغرفة، فاستدار بجسده ليجد أن «شوبا» أطفأت الأنوار، ثم عادت وجلست لدى المنضدة، وتبعها «شوكومار» بعد دقيقة، وأخذا يبكيان معاً، بسبب تلك الأشياء التي باتا يعرفانها الآن.

Twitter: @ketab_n

عندما أتى السيد «بيرزادة» لتناول الطعام

في خريف العام 1971، اعتاد رجل أن يأتي إلى منزلنا حاملاً الحلوى في جيبه، ويأمل في التأكد من حياة أسرته أو موتها. كان يُدعى السيد «بيرزادة»، وموطنه مدينة «دكا»، عاصمة بنجلاديش الآن، التي كانت جزءاً من باكستان في ذلك الحين. وحدث أن خاضت باكستان غمار حرب أهلية في ذلك العام، بسبب سعي الحدود الشرقية ـ حيث تقع «دكا» ـ إلى الحصول على استقلالها عن النظام الحاكم في الغرب. وفي شهر مارس، تعرضت «دكا» للغزو، والحرق، والقصف من قِبل الجيش الباكستاني. كان المعلّمون يُجّرون في الشوارع ويُحصدون بالرصاص، وتُسبى النساء في الثكنات ويُغتصبن. وبانتهاء الصيف، كان ثلاثمائة ألف شخص قد لقوا حتفهم. وفي «دكا»، يمتلك السيد «بيرزادة» منزلاً مؤلفاً من ثلاثة طوابق، ويعمل في وظيفة محاضر جامعي في علم النبات، وله زوجة في العشرين من عمرها، وسبع بنات تتراوح أعمارهن بين السادسة والسادسة عشرة، وجميعهن تبدأ أسماؤهن بحرف الألف. «كانت تلك رغبة أمهن، كيف يمكنني التمييز بينهن؟ .. أروى، وأميرة، وأمينة، وأسماء .. أترى كم يكون هذا شاقّاً؟».. هكذا أوضح «بيرزادة» ذات يوم، وهو يُخرج من حافظته صورة بالأبيض والأسود تضم البُنيات السبع في أثناء إحدى النزهات، بضفائرهن المعقودة بالشرائط الملونة، وهن جالسات متربعات في صف واحد، ويأكلن كاري الدجاج الموضوع في أوراق الموز.

دأب السيد «بيرزادة» على كتابة الخطابات لزوجته كل أسبوع، وإرسال الكتب المصورة إلى بناته السبع، إلا أن نظام البريد ـ شأنه شأن كل الأشياء الأخرى في «دكا» ـ قد انهار، ولم تأته منهن أي أخبار طوال ستة أشهر كاملة. في ذلك الوقت، سافر السيد «بيرزادة» إلى الولايات المتحدة لمدة عام؛ بناء على منحة حصل عليها من حكومة باكستان لدراسة أوراق النباتات في ولاية «نيو إنجلاند». وبحلول فصلي الربيع والصيف، جمع

Twitter: @ketab_n

البيانات في ولايتي «فيرمونت» و«ماين»، ثم انتقل في الخريف للعمل في إحدى الجامعات في شمال «بوسطن» ـ حيث كنا نعيش ـ ليضع كتاباً عن اكتشافاته. وعلى الرغم من أن هذه المنحة كانت بمثابة شرف عظيم، فما إن تحولت إلى دولارات، حتى اكتشف هزالها وضعفها. ومن ثمّ، عاش «بيرزادة» في غرفة في المدينة الجامعية، ولم يكن لديه موقد جيد ولا تلفاز خاص به. ولهذا السبب كان يأتي إلى منزلنا لتناول طعام العشاء ومشاهدة الأخبار المسائية.

في البداية، لم أكن أعلم شيئاً عن سبب زياراته. كنت في العاشرة من عمري، ولم تُدهشني دعوة والديَّ ـ وهما من الهند، وعلى معرفة ببعض الهنود في الجامعة ـ للسيد «بيرزادة» لمشاركتنا الطعام. وكانت الجامعة صغيرة، ذات ممرات ضيقة وبنايات بأعمدة بيضاء، تقع على حافة ضاحية كبيرة. ولم يكن المتجر يوفّر زيت الخردل، ولا كان الأطباء يستجيبون لنداءات المنازل، ولم يكن الجيران يزورون بعضهم أبداً إلا بدعوة، وأشياء أخرى من هذا القبيل؛ الأمر الذي كان والداي يشكوان منه كثيراً. وفي بحثهما عن مواطنين من بلدهما، كانا كمن يقتفي الأثر؛ فدأبا في أول كل فصل دراسي على استطلاع القوائم بدليل الجامعة، والبحث بين الألقاب عن أسماء تنتمي إلى عالمهما. وهكذا وقعا على السيد «بيرزادة»، فاتصلا به، ودعواه إلى منزلنا.

لا أتذكر زيارته الأولى، ولا الثانية ولا الثالثة، ولكن بانتهاء شهر سبتمبر اعتدت وجود السيد «بيرزادة» في غرفة المعيشة لدينا. وأتذكر تلك الأمسية؛ حين كنت أضع مكعبات الثلج في جرّة الماء، وطلبتُ من أمي أن تناولني كأسا رابعة من الخزانة البعيدة عن متناول يديّ. كانت أمي مشغولة بجوار الموقد، تعكف على مقلاة تحوي الفجل المقلي مع نبات السبانخ، ولم تسمعني بسبب صوت المروحة الطارد، والصرير الحاد الناجم عن حكّها للملعقة. استدرت، من ثمّ، إلى أبي الذي كان منكفئاً على الثلاجة، يأكل بيده مباشرة الكاجو المتبّل.

– «ماذا تريدين يا ليليا؟»

– «أريد كوباً للرجل الهندي»

Twitter: @ketab_n

«ولكن السيد «بيرزادة» لن يأتي اليوم. والأهم من هذا أنه لم يُعد هنديّاً بعد الآن».. قال أبي وهو يزيح ملح الكاجو عن لحيته السوداء: «ليس بعد التقسيم .. لقد انقسمت بلادنا في العام 1947».

وعندما قلت إنني أظن أن هذا هو تاريخ استقلال الهند عن بريطانيا، قال أبي: «إنه كذلك بالفعل؛ ففي اللحظة التي تحررنا فيها، انقسمنا»، وأردف أبي قائلاً وهو يرسم بأصبعه علامة (X) على السطح المقابل له: «مثل الكعكة .. الهندوس هنا، والمسلمون هناك، ولم تعد «دكا» تابعة لنا». وأخبرني أبي أنه في أثناء الانقسام، عمد الهندوس والمسلمون إلى إضرام النيران في منازل بعضهم. وبالنسبة إلى العديد منهم، كانت فكرة أن يأكل أي من هؤلاء في صحبة أي من الفريق الآخر مسألة بعيدة تماماً عن أن تخطر بخلد أحدهم.

لم أجد منطقاً في هذا، والسيد «بيرزادة» ووالداي يتحدثون اللغة ذاتها، وتضحكهم النكات ذاتها، ناهيك عن التشابه في ملامحهم. وجميعهم يأكلون المانجو المُملّح مع وجباتهم، ويتناولون الأرز بأيديهم كل ليلة في طعام العشاء. وتماماً مثلما يفعل والداي، فإن السيد «بيرزادة» يخلع نعليْه قبل دخول أية غرفة، ويمضغ بذور الشمّار بعد الطعام ليساعده على الهضم، ولا يحتسي الخمر، والحلوى بالنسبة إليه هي غمس الكعك الجاف في قدح الشاي مرات متعاقبة. وعلى الرغم من ذلك، فإن أبي أصرّ على أن أتفهم الفارق، واصطحبني، من ثمّ، إلى خريطة العالم المُعلقة على الجدار فوق مكتبه. وبدا أبي قلقاً من أن السيد «بيرزادة» قد ينزعج في حال قلت عنه ـ من دون قصد ـ «الهندي»، على الرغم من أنني لم أستطع في الحقيقة تصديق أن هناك ما قد يُغضب السيد «بيرزادة» بحق. وقال أبي: «إن السيد «بيرزادة» بنغالي، لكنه مسلم. وهو لهذا يعيش في شرق باكستان، وليس في الهند». كانت إصبع أبي تجوب الأطلسي، مارّة بأوروبا، والبحر المتوسط، والشرق الأوسط، وأخيراً أشارت إلى الماسة البرتقالية التي أخبرتني أمي ذات مرة أنها تشبه امرأة ترتدي الساري، باسطة ذراعها اليسرى. وكانت الدوائر تحد العديد من المدن، والخطوط تصل بينها كي تشير إلى المدن التي سافر إليها والداي، ونجمة فضية بجوار مدينة «كلكتا»؛ التي وُلدا فيها، والتي سافرت إليها مرة واحدة، ولا أتذكر شيئاً عن هذه الرحلة مطلقاً. قال

Twitter: @ketab_n

أبي: «كما ترين يا «ليليا»، إنها بلد آخر؛ لون آخر». رأيت باكستان باللون الأصفر وليس البرتقالي، ولاحظت وجود منطقتين مميزتين؛ إحداهما أكبر كثيراً من الأخرى، وتفصل بينهما مساحة من الأراضي الهندية. بدا الأمر وكأن ولايتي «كاليفورنيا» و«كونكتيكت» تؤلفان دولة منفصلة عن الولايات المتحدة.

ربَت أبي فوق رأسي بمفاصل أصابعه وهو يقول: «وبالطبع تدركين الوضع الحالي، أليس كذلك؟ هل تعرفين شيئاً عن كفاح باكستان الشرقية من أجل الحصول على السيادة؟»

فأطرقت، ولم أكن على علم بهذا الأمر.

ثم عدنا إلى المطبخ، حيث أفرغت أمي وعاء الأرز المغلي في مصفاة. أما أبي فشرع يفتح العلبة فوق المنضدة، ورمقني بنظرة حادة من فوق إطار نظارته وهو يأكل المزيد من الكاجو. «ما الذي يدرسونكِ إياه في المدرسة على وجه التحديد؟ هل تدرسين التاريخ أو الجغرافيا؟»

«لدى ليليا الكثير من الأشياء لتتعلّمها في المدرسة. نحن نعيش هنا الآن، ولقد وُلدت هنا».. قالت أمي وقد بدت فخورة بحق بهذا الأمر؛ وكأن في هذا دلالة على شخصيتي. وكنت أعرف أنها ترى أنني بهذا أنعم بحياة آمنة، وسهلة، وتعليم جيد، وكل الفرص؛ فلن أضطر أبداً إلى تناول الطعام الاقتصادي المُرشّد، أو الانصياع لحظر التجول، أو مشاهدة أعمال الشغب من فوق أسطح البنايات، أو إخفاء الجيران في صهاريج المياه لحمايتهم من القتل بالرصاص، كما فعلت هي وأبي. «تخيلْ لو أننا مضطران إلى إلحاقها بمدرسة متواضعة، أو أنها مضطرة إلى القراءة في ضوء مصباح الكيروسين في فترات انقطاع التيار. تخيلْ الضغوط، والمعلمين، والاختبارات المستمرة».. قالت أمي وهي تمرر يدها بين خصلات شعرها، وقد قصّته إلى طول يتناسب وعملها كمصرفية بعض الوقت، ثم أردفت قائلةً: «كيف تتوقع أن تكون على علم بأمر الانقسام؟ هلا أبعدت هذا الهراء عن رأسك!»

«ولكن ماذا عساها تدرس عن العالم إذاً؟».. قال أبي وهو يهز حبات الكاجو في يده: «ما الذي تتعلمه؟»

Twitter: @ketab_n

بالطبع كنا ندرس التاريخ الأمريكي والجغرافيا الأمريكية، وكأننا هذا العام ـ وكل عام ـ نبدأ مجدداً بدراسة الحرب الثورية. وتأخذنا حافلة المدرسة في رحلات ميدانية لزيارة «بلايموث روك[1]»، والسير في «طريق الحرية[2]»، ثم التسلق إلى قمة نُصب «بانكر هيل». ولقد صنعنا هيكلاً من الورق الملوّن يمثل جورج واشنطن وهو يعبر مياه نهر «ديلاوير» المتلاطمة. كما صنعنا دُمى تمثل الملك جورج وهو يرتدي ثياباً بيضاً ضيقة، ومقدّمة شعره السوداء الكبيرة. وفي أثناء الاختبارات، يعطوننا خرائط فارغة للمستعمرات الثلاث عشرة، فنذكر أسماءها، وتواريخها، وعواصمها. وكنت أستطيع فعل ذلك حتى لو كانت عيناي مغمضتيْن.

زارنا السيد «بيرزادة» في مساء اليوم التالي في تمام السادسة مساءً كعادته. وعلى الرغم من أنهما لم يعودا غرباء عن بعضهما، فإن السيد «بيرزادة» وأبي مازالا يتصافحان باليد عند التحية.

بادر أبي قائلاً: «تفضل سيدي رجاءً» ثم أردف مخاطباً إياي: «خذي معطف السيد بيرزادة يا ليليا من فضلكِ».

خطا السيد «بيرزادة» إلى داخل ردهة المنزل، وكان متأنقاً على نحو دقيق، بربطة عنق حريرية حول ياقته، فلقد اعتاد أن يأتينا كل مساء مرتدياً أطقماً بألوان الخوخ، والزيتون، والشوكولاتة البنية. لا شك في أنه حريص على اتساق ملابسه. وعلى الرغم من أن قدميْه كانتا مفلطحتيْن، وله كرش كبير بعض الشيء، فإنه كان يحافظ على وضع جسده، وكأنه يحمل حقيبتيْن متساويتي الوزن؛ واحدة في كل يد، وتغطي خصلات شعره الرمادية أذنيْه، وكأنه ينعزل بذلك عن صخب الحياة المزعج. أما عيناه فكانتا مظللتيْن بأهداب ثقيلة تتعلق بها بقايا الكافور، وشارب كثيف ينثني إلى أسفل لدى طرفي فمه على نحو مضحك،

1- Plymouth Rock: أحد الرموز التاريخية المهمة للحرية في التاريخ الأمريكي. (المترجمة)

2- Freedom Trail : يعد «طريق الحرية» من أقدم المعالم السياحية والتاريخية في «بوسطن»، ويمتد مسافة ميلين ونصف الميل من الطوب الأحمر. كما يمكن أن تراه أيضاً خطاً مصبوغاً باللون الأحمر على أرصفة الشوارع، ويصل بين 16 موقعاً تاريخيا مرتبطاً بالصراع القديم من أجل نيل الحرية، ومن أمثلة هذه المواقع النصب التذكاري لقمة «بانكر هيل» Bunker Hill. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

فضلاً عن شامة مسطحة زبيبية الشكل في وسط وجنته اليسرى تماماً، وفوق رأسه طربوش أسود مصنوع من صوف الماشية الفارسية، مُحكمٌ بالدبابيس؛ ولم أره أبداً إلا وهو معتمر هذا الطربوش. وعلى الرغم من أن أبي قد عرض عليه مراراً أن يصطحبه في سيارته، فإن السيد «بيرزادة» فضّل السير من السكن الجامعي إلى الحي الذي نسكن فيه؛ ليقطع بذلك مسافة تستغرق 20 دقيقة على الأقدام؛ يقضيها في دراسة النباتات والأشجار على الطريق. فمتى دلف إلى داخل المنزل بدا متورداً من أثر السير في ذلك الهواء الخريفي.

«أخشى أن هناك لاجئاً آخر على الأراضي الهندية».. قال السيد «بيرزادة».

أجابه أبي: «لقد وصل عددهم إلى تسعة ملايين وفقاً للتقديرات الأخيرة».

ناولني السيد «بيرزادة» معطفه؛ فلقد كانت مهمتي أن أتولى أمر تعليقه على الرف أسفل الدرج. وكان معطفاً من الصوف جيد الخامة، ذا مربعات رمادية وزُرق، وأزرار داخلية، ويحمل في طياته رائحة الليمون الخفيفة. لم يكن هناك أي علامات مميزة في بطانة المعطف سوى بطاقة مثبتة باليد تحمل عبارة «ز. سيد، سوترز»، مطرزة بخيط أسود ثقيل. وفي بعض الأيام أجد عوداً من خشب «البتولا» أو «القيقب» في أحد الجيوب. فكّ السيد «بيرزادة» رباط حذائه وخلعه، ثم وضعه مصطفّاً بمحاذاة الطوق الخشبي المحيط بالجدران الداخلية للغرفة؛ وقد التصق بمقدمة حذائه وكعبه قليل من آثار الطين الخزفي اللامع؛ نتيجة سيره في تربة حديقتنا الرطبة غير المُقلّبة. وما إن تخلّص من أمتعته المزركشة، حتى راح يتحسس عنقي بأصابعه القصيرة المضطربة؛ على النحو الذي يفعله الرجل حين يتحسس صلابة جدارٍ ما قبل أن يدق فيه مسماراً. وبعدها، تبع السيد «بيرزادة» أبي صوب غرفة المعيشة؛ حيث التلفاز يذيع نشرة الأخبار المحلية. وما إن جلسا حتى ظهرت أمي من المطبخ، حاملةً صحناً من قطع كباب اللحم المشوي مع صلصة الكزبرة. التقط السيد «بيرزادة» إحداها ووضعها في فمه.

وبينما كان يمدّ يده إلى الأخرى قال: «لا يسع المرء إلا أن يأمل في أن يلقى لاجؤو «دكا» مثل هذه الحفاوة والترحيب؛ الأمر الذي يذكرني ...»، ثم توقف ووضع يده في جيب سترته، وأخرج بيضة بلاستيكية صغيرة تحتوي على قطع من القرفة على شكل قلوب،

Twitter: @ketab_n

وناولني إياها وهو ينحني انحناءة طفيفة للغاية، تكاد تكون غير ملحوظة، واستطرد قائلاً: «هذه لسيدة المنزل».

فقالت أمي محتجّة: «سيد بيرزادة، إنك بالفعل تكثر من تدليلها ليلة بعد أخرى، ولسوف يفسدها فرط التدليل».

ولكنه رد عليها قائلاً: «إنني أدلل فقط الأطفال الذين أعرف يقيناً أن التدليل لن يفسدهم أبداً».

كانت لحظة حرجة بالنسبة إليَّ؛ لحظة انتظرتها ويحدوني تجاهها شيء من رهبة، وبعض من بهجة. كنت مسحورة بوجود السيد «بيرزادة» بأناقة جسده الممتلئ، فضلًا عما شعرت به من إطراء لاهتمامه المصحوب بهذه الحركات المسرحية الخفيفة، ولكن أصابني الهدوء الرهيب في ملامحه بالتوتر؛ بل جعلني أشعر ـ لحظةً ـ كأنني غريبة في بيتي. أصبحت هذه الحلوى من طقوس هذه الزيارة، وكانت هذه هي المرة الوحيدة التي تحدث فيها السيد «بيرزادة» إليَّ مباشرة خلال زياراته لنا على مدار عدة أسابيع، وذلك قبل أن نصبح أكثر تآلفاً مع بعضنا. في هذه المرة لم أجبه، ولم أعلّق، ولم يظهر على وجهي أي رد فعل ملحوظ لهذا السيل المنهمر من قطع حلوى العسل والتوت واللفات الرشيقة لأقراص الحلوى الصغيرة المستديرة بنكهتها الحمضية. لم أستطع حتى أن أشكره، وعندما فعلتها مرة واحدة ـ حينما أعطاني مصاصة نعناع مذهلة ملفوفة في ورق السوليفان الأرجواني ـ قال محتجّاً: «علامَ الشكر؟.. تلك السيدة في المصرف تشكرني، والكاشير في المتجر يشكرني، وأمين المكتبة يشكرني عندما أعيد كتاباً أخّرته عندي، وعامل الهاتف الدولي يشكرني عندما يحاول توصيلي بدكا ولا يفلح. لا شك في أنني سأتلقى الشكر في جنازتي إذا ما مِت ودُفنت في هذا البلد».

لم يكن من الملائم ـ في اعتقادي ـ أن أستهلك الحلوى التي كان السيد «بيرزادة» يعطيني إياها بطريقة عشوائية، وأصبحت أشتهي هذا الكنز كل مساء، وكأنه جوهرة أو قطعة نقود معدنية من مملكة غابرة مدفونة، ورحت أحتفظ به في علبة تذكارات صغيرة مصنوعة من خشب الصندل، كنت أضعها إلى جوار فراشي. منذ زمن بعيد في الهند، كانت جدتي

Twitter: @ketab_n

لأبي تستخدم هذه العلبة لحفظ الفول السوداني لشجرة الأريقة[1] الذي اعتادت أن تأكله بعد حمّام الصباح اليومي. إنها التذكار الوحيد من جدتي التي لم أعرفها أبداً، وحتى ظهر السيد «بيرزادة» في حياتنا، لم يكن لديّ ما أضعه فيها. وهكذا، أصبحت في كثير من الأحيان، قبل أن أنظف أسناني وأُعد ملابس المدرسة لليوم التالي، أفتح غطاء العلبة، وألتهم واحدة من هذه القطع اللذيذة.

في تلك الليلة ـ مثل كل ليلة ـ لم نجلس على مائدة الطعام لتناول العشاء؛ إذ كان يتعذّر رؤية شاشة التلفاز من دون عوائق من فوقها. وبدلاً من ذلك، التففنا حول منضدة القهوة، دون أن نتحدث، وقد وضع كل منا صحنه على حافة ركبته، وأحضرت أمي الأطباق المتتابعة من المطبخ: العدس مع البصل المقلي، والفاصوليا الخضراء مع جوز الهند، والسمك المطهوّ مع الزبيب وصلصة الزبادي. وتبعتها أنا بأكواب الماء وطبق شرائح الليمون والفلفل الحار، اللذيْن يتم شراؤهما في أثناء الرحلات الشهرية إلى الحي الصيني، ويتم حفظهما بالرطل في المُجمّد؛ وحين يروق لهم كسرها، فتنفتح ويضيفونها إلى طعامهم.

اعتاد السيد «بيرزادة»، قبل أن يبدأ تناول الطعام، أن يفعل شيئاً مثيراً للاهتمام؛ فكان يُخرج ساعة فضية منبسطة من دون طوق، احتفظ بها في جيب صديريته، ويرفعها برهةً بالقرب من أذنه المُتعنْقِدة، ثم ينقرها ثلاث نقرات سريعة بأصبعيْه الإبهام والسبابة. فبخلاف الساعة الملتفة حول معصمه، كانت ساعة جيبه هذه ـ كما أوضح لي ـ تشير إلى التوقيت المحلي في «دكا»؛ الذي يسبق توقيتنا بإحدى عشرة ساعة. وطوال فترة تناول وجبة الطعام، استقرت الساعة على منديله الورقي المطوي فوق منضدة القهوة، بيد أنه بدا وكأنه لا ينظر إليها أبداً.

أما وقد علمت الآن أن السيد «بيرزادة» لم يكن هنديًا، فإني بدأت أدرسه بمزيد من الاهتمام؛ في محاولة لاكتشاف ما يجعله مختلفاً على هذا النحو، وقررت أن ساعة جيبه كانت أحد أسباب الاختلاف. فعندما رأيتها تلك الليلة، وهو ينقرها ثم يضعها بعناية فوق منضدة القهوة، غمرني شعور بعدم الارتياح، وأدركت حينئذ أن الحياة تبدأ في دكا أولاً.

1- الأريقة: شجرة من الفصيلة النخلية (المترجمة).

Twitter: @ketab_n

ورأيت بعين خيالي بنات السيد «بيرزادة» في صحوهن من نومهن، وهن يربطن خصلات شعرهن بالشرائط، ثم يتناولن طعام الإفطار، ويتأهبن للذهاب إلى المدرسة، وبدت لي وجبات طعامنا وحركاتنا مجرد ظلال لما يحدث هناك بالفعل؛ شبح باهت لذلك المكان الذي ينتمي إليه السيد «بيرزادة» بحق.

مع بداية نشرة الأنباء المحلية في السادسة والنصف؛ رفع أبي صوت التلفاز وضبط الهوائي. وعادةً ما كنت أشغل نفسي في مثل هذا الوقت بقراءة كتاب، ولكن في هذه الليلة أصرّ أبي على أن أعير الأنباء اهتمامي. على شاشة التلفاز، رأيت الدبابات تزحف عبر شوارع مترية، وبنايات متهدّمة، وغابات من أشجار غير مألوفة فرّ إليها اللاجئون من باكستان الشرقية، ساعين إلى الأمان على الحدود الهندية، ثم رأيت قواربَ بأشرعة مروحية الشكل تطفو فوق مياه أنهار عريضة؛ وقد تحول لونها إلى لون القهوة، ثم جامعة دُقّت حولها المتاريس فسُدّ الطريق إليها، ومكاتب الصحف قد احترقت حتى استوت بالأرض. استدرت لأنظر صوب السيد «بيرزادة»؛ فرأيت الصور تنعكس مُصغّرة في عينيْه. وبينما يشاهد الأنباء، اكتست ملامح وجهه بتعبير ثابت؛ تعبير هادئ لكنه متأهب، وكأن هناك من يوجّهه صوب جهة لا يعرفها.

وفي أثناء الفقرة الإعلانية، ذهبت أمي إلى المطبخ لتحضر المزيد من الأرز، وأعرب أبي والسيد «بيرزادة» عن استنكارهما للسياسات التي يتبعها جنرال يُدعى "يحيى خان". وراحا يناقشان ويتحدثان عن مؤامرات لم أكن أعرف عنها شيئاً، وكارثةٍ ما لم أستطع فهمها. قال لي أبي - وهو يناولني قطعة من لحم السمك: "أترين ماذا يفعل أطفال في مثل سنكِ للبقاء على قيد الحياة؟"، غير أنني فقدت شهيتي، ولم أستطع تناول المزيد من الطعام. مكثت فقط أسترق النظرات نحو السيد «بيرزادة» وهو يجلس إلى جواري في حُلّته زيتونية اللون، وفي هدوء؛ يفسح مكاناً في صحن الأرز الخاص به لاستيعاب مزيد من نبات العدس. ولم يكن السيد «بيرزادة» يشبه فكرتي عن رجل تُثقل كاهله مثل هذه المخاوف القائمة. وتساءلت عمّا إذا كان السبب وراء تأنقه الدائم في ثيابه هو استعداده لسماع أي أخبار قد تجتاحه في شجاعة وصبر، أو ربما لحضور جنازة مفاجئة؛ أتته أخبارها

Twitter: @ketab_n

في التو واللحظة. تُرى ماذا سيحدث لو ظهرت بناته السبع فجأة فوق شاشة التلفاز وهن يبتسمن ويلوّحن ويرسلن بقبلاتهن إلى أبيهن من شرفةٍ ما؟ تخيلت كم سيشعر السيد «بيرزادة» بارتياح جمٍّ حال حدث هذا. إلا أن هذا لم يحدث أبداً.

في تلك الليلة، عندما وضعت البيضة البلاستيكية الممتلئة بقلوب القرفة في الصندوق إلى جوار فراشي، لم أشعر باحتفالية السعادة ذاتها التي عادةً ما كنت أشعر بها. حاولت ألاَّ أفكر في السيد «بيرزادة»؛ في معطفه الذي تفوح منه رائحة الليمون، الذي يرتبط بذلك العالم العاصف، شديد القيظ والاهتياج، الذي رأيناه قبل بضع ساعات في حجرة معيشتنا المشرقة المفروشة بالسجاجيد. ولكن مضت لحظات عدة، وكان هذا كل ما استطعت التفكير فيه. شعرت بمعدتي تنقبض، وساورني قلق من فكرة أن تكون زوجته وبناته السبع الآن في زمرة الحشود المنجرفة المتذمرة، التي كانت تظهر على شاشة التلفاز بين حين وآخر. وفي محاولة لإبعاد هذه الصورة عن رأسي؛ رحت أنظر في الغرفة من حولي؛ الفراش بأغطيته الصفراء، والستائر المكشكشة المتناغمة مع غطاء الفراش، والصور الأنيقة المثبتة بإطاراتها فوق الجدران المغطاة بالورق الأبيض والبنفسجي اللون، ونقوش القلم الرصاص فوق باب الخزانة؛ حيث كان أبي يسجّل علامات طولي الجديد في كل عيد ميلاد لي. ولكن كلما حاولت تشتيت انتباهي، نجحت في إقناع نفسي بأن الاحتمال الأكبر هو أن الموت قد داهم أسرة السيد «بيرزادة». وفي النهاية، التقطت قطعة مربعة من الشوكولاتة البيضاء من داخل الصندوق، وعمدت إلى فض لفافتها، ثم فعلت شيئاً لم أفعله من قبل؛ وضعت الشوكولاتة في فمي، وتركتها تذوب حتى آخر لحظة ممكنة، ثم مضغتها ببطء، ثم شرعت أدعو أن تكون أسرة السيد «بيرزادة» في أمان وسلام. وبالرغم من أنني لم أدعُ من قبل أبداً من أجل أي شيء، ولم يسبق أن علّمني أي شخص كيف أدعو، أو طلب مني ذلك، فإنني قررت أنه في ظل هذه الظروف، ينبغي أن أفعل شيئاً. وعندما ذهبت إلى الحمام في هذه الليلة، تظاهرت بأنني أنظّف أسناني بالفرشاة؛ فلقد خشيت أن تُزيل المضمضة دعوتي هذه. اكتفيت بأن بللت الفرشاة، وحركت أنبوب المعجون من مكانه؛ تجنباً لإثارة أي تساؤلات لدى والديّ وأخيراً غلبني النوم وطعم السكر لم يزل فوق لساني.

Twitter: @ketab_n

لم يتحدث أي شخص في المدرسة عن تلك الحرب التي تابعناها بحرص شديد في غرفة معيشتنا. فتابعنا دراسة الثورة الأمريكية، وتعلمنا أشياء عن الظلم المتعلّق بفرض الضرائب من دون إعلان مسبق، وحفظنا أجزاء من إعلان الاستقلال. وفي أثناء فترة الراحة، انقسم الأولاد إلى فريقيْن، وراحوا يطاردون بعضهم في وحشية حول الأراجيح، وهم يلعبون لعبة غزو الجنود البريطانيين للمستعمرات. وفي الفصل الدراسي، أخذت السيدة «كينيون» تشير بين الحين والآخر إلى خارطة أطلت مثل شاشة سينما من أعلى السبورة، وهي توضح لنا الطريق الذي سلكته سفينة «مايفلاور»، أو موقع «ليبرتي بيل». وكان يتعيّن علينا أن يقدّم اثنان منّا بحثاً كل أسبوع حول محور معين من الثورة، ومن ثمّ طُلب مني ذات يوم أن أذهب إلى مكتبة المدرسة، بصحبة صديقتي «دورا»؛ لإجراء بحث حول الاستسلام في «يورك تاون». أعطتنا السيدة «كينيون» بعضاً من الورق الذي كتبت عليه عناوين ثلاثة كتب؛ كي نبحث عنها في فهرس البطاقات بالمكتبة. وبالفعل سرعان ما عثرنا على الكتب الثلاثة، ثم جلسنا إلى منضدة مستديرة منخفضة لنقرأ وندوّن الملاحظات. لكنني وجدت مشقة في تركيز انتباهي، فعدت إلى رفوف الخشب الأشقر؛ حيث يوجد قسم كُتب عليه «آسيا»، وأخذت أنظر إلى الكتب التي تدور حول الصين، والهند، وإندونيسيا، وكوريا. وأخيراً وجدت كتاباً يحمل عنوان «باكستان: أرضاً وشعباً». فالتقطته، واتخذت مقعداً لا ظهر له، وفتحت الكتاب.. طقطق الغلاف الرقيق في قبضة يدي، وشرعت أقلّب الصفحات المملوءة بصور الأنهار وحقول الأرز ورجال بزيهم العسكري؛ ثم ألفيت فصّلا كامًلا عن «دكا»، فقرأت عن معدل سقوط أمطارها وإنتاجها نبتة الجوتة[1]. وعندما طالعتني «دورا» في الممر بين أرفف الكتب، كنت أدرس الرسم البياني للسكّان هناك.

– «ماذا تفعلين هنا مجدداً؟ لقد أتت السيدة «كينيون» لتتفقّد ما نفعله هنا في المكتبة».

أغلقت الكتاب بعنف حتى إنه أصدر صوتاً عالياً، وسرعان ما ظهرت السيدة «كينيون»، وغمرت رائحة عطرها الممر الضيق. أخذت مني الكتاب بأطراف أصابعها

1– الجوتة: قِنّب كلكتا: الياف مُستخرجة من نباتيْن هنديْن، تُستعمل في صنع الخيش. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

كأنه شعرة ترفعها عن سترتي. وراحت تنقل عينيْها بيني وبين غلاف الكتاب.

– «هل لهذا الكتاب علاقة بالبحث الذي تعدّينه يا ليليا؟»

– «كلا .. سيدة كينيون».

قالت وهي تعيده إلى الفراغ الضئيل فوق الرف: "لا داعي إذاً للبحث فيه.. أليس كذلك؟"

* * *

بمضيّ الأسابيع؛ أصبحت مشاهدة أي مادة فيلمية في نشرة الأخبار تعرض الأحداث في «دكا» من الأشياء النادرة جدّاً، وكان التقرير الإخباري يُذاع عقب مجموعة الإعلانات التجارية الأولى، وأحياناً الثانية. أما الصحف فكانت تخضع للرقابة، والمصادرة والقيود، وتعديل المسار، حتى إنه في بعض الأيام ـ أو في الكثير منها ـ لم يكن يُذكر سوى عدد القتلى، مسبوقاً بتكرار للوضع العام؛ إعدام المزيد من الشعراء، وإضرام النيران في المزيد من القرى. وعلى الرغم من كل هذا، وليلة بعد ليلة، تابع والداي والسيد «بيرزادة» استمتاعهم بالأوقات الطويلة التي يقضونها في تناول وجبات الطعام الشهية بتروٍّ. وعقب إغلاق التلفاز وغسل الصحون وتجفيفها؛ يقضون الوقت في المزاح وسرد الحكايات، وهم يغمسون الكعك في أقداح الشاي. وعندما يسأمون الحديث والنقاش في الأمور السياسية؛ يتحدثون عن تطورات عمل السيد «بيرزادة» في كتابه حول الأشجار المتساقطة في «نيو إنجلاند»، وترشيح أبي لمنصبه الجديد، والعادات الغذائية الخاصة التي يتبعها الأمريكيون من زملاء أمي في عملها بالبنك. وأخيراً يرسلونني إلى غرفتي بالطابق الأعلى لأداء واجباتي المدرسية. ولكن عبر بساط الغرفة، كنت أسمعهم وهم يحتسون المزيد من الشاي، ويستمعون إلى شرائط مسجّلة للمطرب «كيشور كومار»[1]، ويلعبون لعبة «سكرابل»[2] فوق منضدة القهوة، ويضحكون، ويتجادلون طوال الليل كثيراً حول تهجئة مفردات الكلمات الإنجليزية. ولكم رغبت لو انضممت إليهم؛ بخاصة للتسرية

1– كيشور كومار: واحد من أشهر المطربين والممثلين في الهند. (المترجمة)

2– سكرابل: لعبة على ألواح خشبية تهدف إلى تكوين كلمات نتيجة سحب عشوائي لسبعة أحرف. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

عن السيد «بيرزادة». ولكن لم يكن بوسعي فعل شيء سوى تناول قطعة من الحلوى لأجل أسرته، والدعاء من أجل سلامتهم. اعتادوا الانشغال بلعبة «سكرابل» حتى بداية نشرة أنباء الحادية عشرة، وعقب انتهائها يغادر السيد «بيرزادة» منزلنا بحلول منتصف الليل أحياناً؛ عائداً إلى غرفته في المدينة الجامعية سيراً على قدميْه. ولهذا السبب لم يحدث أن رأيت السيد «بيرزادة» أبداً وهو يرحل بعد زيارته، ولكني كنت أستمع إليهم في كل ليلة ـ بينما أخلد للنوم ـ وهم يتوقعون ولادة دولة جديدة في الجانب الآخر من العالم.

وذات يوم من أيام شهر أكتوبر، سأل السيد «بيرزادة» لدى وصوله إلى منزلنا: «ما هذه الخضراوات البرتقالية الضخمة التي يضعها الناس على عتبات بيوتهم؟ هل هي نوع من نبات اليقطين؟»

«إنه قرع العسل».. أجابته أمي، ثم أردفت: «ليليا.. هلا ذكرتني بشراء ثمرة منها من المتجر؟»

وتساءل السيد «بيرزادة» قائلاً: «ولِمَ؟ .. ما الغرض منها؟»

فأجبته وأنا أبتسم ابتسامةً عريضة: "نصنع منها قناعاً بملامح وجه إنسان.. هكذا .. حتى نخيف الآخرين فيبتعدوا».

قال السيد «بيرزادة» وهو يرد الابتسامة بأخرى: «فهمت.. كم هو مفيدٌ هذا!».

في اليوم التالي، أحضرت أمي ثمرة من قرع العسل تزن عشرة أرطال؛ ضخمة ومستديرة، ووضعتها فوق مائدة الطعام. وقبل العشاء، بينما كان أبي والسيد «بيرزادة» يشاهدان الأنباء المحلية، طلبت مني أمي أن أزيّن اليقطينة بأقلام التلوين، ولكنني أعلنت لها أنني أود نحتها بالشكل الصحيح؛ كتلك الثمار الأخرى التي لاحظتها في الجوار.

ووافقني السيد «بيرزادة» الرأي، فقال وهو ينهض عن الأريكة: «نعم .. فلنقم بنحتها، ودعنا من الأنباء الليلة». ومن دون أن يوجّه أي أسئلة، سار إلى داخل المطبخ، وفتح أحد الأدراج، ثم عاد وقد أحضر سكيناً طويلة مسنونة، ثم نظر إليّ ليتأكد من موافقتي، وسألني: «هل تأذنين لي أن أفعل هذا؟»

Twitter: @ketab_n

أومأت إليه بالموافقة، وللمرة الأولى التففنا جميعاً حول مائدة الطعام؛ أمي، وأبي، والسيد «بيرزادة»، وأنا. وبينما لم يلتفت أي منا إلى ما يذيعه التلفاز، كنا نغطي المائدة بورق الصحف. أما السيد «بيرزادة»، فعلّق سترته على المقعد من خلفه، وفكّ أزرار كُمّي قميصه المصنوعة من الحجر الكريم الملوّن، وشرع يشمّر الكُمّيْن بنسيجهما القوي.

«نبدأ من أعلى .. هكذا».. قلتُ للسيد «بيرزادة» موجّهةً إياه، وأنا أشير بسبابتي كي أشرح له الأمر عمليّاً.

غرس السيد «بيرزادة» نصل السكين في الثمرة محدثاً شقّاً مبدئيّاً، ثم شرع يدير منه السكين حتى أتم دائرة كاملة، ثم رفع ذلك الجزء الشبيه بالقبعة من ساق الثمرة، فانفصل بسهولة. وهنا انكفأ السيد «بيرزادة» فوق ثمرة قرع العسل برهةً؛ كي يستكشف محتواها ويشم رائحتها. ثم ناولته أمي ملعقة معدنية طويلة راح يُخرج بها أحشاء الثمرة، حتى أفرغها تماماً من طبقاتها وبذورها، بينما ـ في الوقت ذاته ـ كان أبي يفصل البذور عن اللُب، ويضعها فوق ورقة زبدة حتى يتسنى لنا شيها في وقت لاحق. أما أنا فرسمت مثلثيْن فوق سطح المضلّع لتحديد العينيْن، فنحتهما السيد «بيرزادة» بدقة، ثم كرّرنا الأمر ذاته مع هلالي الحاجبيْن، ثم مثلث ثالث للأنف. وهكذا لم يتبقَ سوى الفم؛ حيث تشكّل الأسنان تحدياً صعباً.. فترددت.

قلت متسائلة: «أنجعله وجهاً مبتسماً أم عبوساً؟».

أجابني السيد «بيرزادة»: «الاختيار لكِ».

على سبيل الحل الوسط؛ رسمت شيئاً أشبه بالتكشيرة المستوية عبر الوجه؛ بحيث لا تبدو حزينة ولا ودودة. وشرع السيد «بيرزادة» يشق الفم محل الرسم، دون أدنى قدر من التردد أو الخوف؛ وكأنه كان يحفر ويُشكّل ثمار قرع العسل طوال حياته. وعندما كاد السيد «بيرزادة» ينتهي من عمله، كانت الأنباء الوطنية قد بدأت. ولما ذكر المراسل «دكا»؛ التفتنا جميعاً صوبه منصتين إلى ما يقول: (أعلن مسؤول هندي أنه ما لم يعمد العالم إلى المساعدة على تخفيف العبء عن اللاجئين من شرق باكستان؛ فلن يكون أمام الهند سوى خوض الحرب ضد باكستان). كان وجه مراسل الأنباء يتصبب عرقاً وهو ينقل

Twitter: @ketab_n

هذه المعلومات، ولم يكن مرتدياً ربطة عنق ولا معطفاً، بل بدا وكأنه على وشك الانطلاق والمشاركة في المعركة. كان الرجل يحمي وجهه من حُرقة الجو، وهو يشير إلى الأشياء كي يلتفت إليها المصوّر وراء آلة التصوير. وهنا سقطت السكين من يد السيد «بيرزادة» محدثةً جرحاً متغلغلًا صوب قاع ثمرة قرع العسل.

قال السيد «بيرزادة» وهو يرفع يده إلى جانب وجهه، وكأنه قد تلقّى لتوّه صفعةً على وجنته: «هلا غفرتم لي!.. أنا.. هذا رهيب، سوف أشتري ثمرة أخرى، وسوف نحاول مجدداً».

«بل لا عليك على الإطلاق».. قال أبي وهو يلتقط السكين من السيد «بيرزادة»، ويحفر الثمرة حول الشق الذي أحدثته السكين، مهذّباً إياه بحيث اتسق مع شكل الأسنان التي كنت قد رسمتها. أسفر هذا عن ثقب كبير غير متجانس في حجم الليمونة، فأصبح، من ثمّ، تعبير وجه ثمرة قرع العسل ينم عن دهشة ساكنة، ولم يعد الحاجبان بغيضيْن، وإنما يطفوان في دهشة متجمدة فوق نظرة حائرة.

في عيد القديسين، لعبت دور الساحرة، ولعبت «دورا» ـ شريكتي في الحيلة ـ دور ساحرة كذلك. ارتدينا رداءً خارجيّاً مصنوعاً من قماش غطاء الوسائد المصبوغ باللون الأسود، وقبعتيْن مخروطيتيْن بحواف كرتونية عريضة. كما وضعنا ظلالاً خضراً فوق وجوهنا بقلم ظل عيون مكسور كان لأم «دورا»، وأعطتنا أمي حقيبتيْن من الخيش كانا يحويان في ما مضى الأرز البسمتي؛ حتى نجمع فيهما الحلوى. وفي ذلك العام، أقر أبوانا بأننا قد كبرنا بالقدر الذي يسمح لنا بالتجول في الحي بمفردنا، ودون حراسة. كانت خطتنا أن نسير من منزلي إلى منزل «دورا»؛ إذ كان من المتفق عليه أن أتصل لأخبر أمي بوصولي سالمةً إلى هناك، وبعدها تقوم والدة «دورا» بتوصيلي إلى منزلي. أما أبي فأعدّنا بالمشاعل الكهربائية، واضطررت إلى حمل ساعتي وضبطها على ساعته؛ حيث كان من المفترض أن نعود في الساعة التاسعة على أقصى تقدير.

Twitter: @ketab_n

عندما وصل السيد «بيرزادة» في ذلك المساء، قدّم لي علبة من النعناع المغطى بالشوكولاتة.

فقلت له وأنا أفتح حقيبة الخيش: «ضعه هنا.. حلوى أو حيلة!»

قال السيد «بيرزادة» وهو يضع العلبة في الكيس: «أعرف أنكِ لستِ في حاجة حقّاً إلى مشاركتي هذا المساء». ثم حملق في وجهي الأخضر والقبعة المثبّتة بشريط أسفل ذقني، وبحذر شديد رفع طرف الرداء الخارجي، وكنت أرتدي أسفل منه سترة ومعطفاً من الصوف المُحكم، وقال: «هل يكفي هذا لتبقي دافئة؟».

أومأت إليه إيجاباً؛ ما جعل القبعة تميل إلى أحد الجانبين.

فأعادها السيد «بيرزادة» إلى وضعها، وقال: «ربما من الأفضل لو ثبّتناها في مكانها».

كانت سلال الحلوى المنمنمة مصطفةً أسفل درجات السلّم في منزلنا، وعندما خلع السيد «بيرزادة» حذاءه هذه المرة لم يضعه كما كان يفعل، بل أدخله في خزانة الأحذية. ثم بدأ يحل أزرار معطفه، وكنت أقف منتظرةً أن آخذه منه حين ارتفع صوت «دورا» من دورة المياه؛ تقول إنها بحاجة إلى مساعدتي هناك في أن ترسم شامةً على ذقنها. وعندما انتهينا من الاستعداد أخيراً، التقطت لنا أمي صورة أمام المدفأة، ثم فتحت الباب الأمامي استعداداً للرحيل. أما أبي والسيد «بيرزادة» فكانا لا يزالان يتجولان في الردهة، ولم يدخلا غرفة المعيشة بعد. وفي الخارج، كان الظلام قد حلّ بالفعل، ورائحة أوراق الشجر النديّة عالقة في الهواء، بينما ثمرة قرع العسل التي نحتناها من قبل ترتجف على نحو مؤثر أمام الشجيرات عند باب منزلنا. من بعيد، كنا نسمع أصوات الأقدام المسرعة، وصياح الأولاد الأكبر سنّاً الذين اكتفوا بوضع الأقنعة المطاطية، وحَفيف ملابس الأطفال الصغار؛ وكان بعضهم من الصِغر بحيث كان آباؤهم يحملونهم من باب إلى آخر.

قال أبي محذّراً: «لا تدخلا أي منازل لا تعرفانها».

فعقد السيد «بيرزادة» حاجبيه، وقال متسائلاً: «أثمة خطر متوقع؟».

«كلا.. على الإطلاق».. أكّدت له أمي، ثم أردفت: «كل الأطفال سوف يخرجون من منازلهم الآن؛ إنه تقليد نتبعه كل عام».

Twitter: @ketab_n

فقال مقترحاً: «ربما من الأفضل لو صحبتُهما». بدا لي فجأة أنه متعبٌ وضئيل الحجم، وهو يقف هناك بقدميْه المفلطحتيْن داخل جوربيه، وفي عينيْه ارتسم رعب لم أره من قبل أبداً. وعلى الرغم من البرد، فإني بدأت أتعرّق داخل كيس الوسادة الذي أضعه.

قالت أمي: «كن مطمئناً سيد بيرزادة .. أؤكد لك أن ليليا ستكون آمنة تماماً مع صديقتها».

– «ولكن ماذا لو أمطرت؟ ماذا لو ضلّتا الطريق؟»

قلت له: «لا تقلقْ». كانت تلك هي المرة الأولى التي تفوّهت فيها بهاتيْن الكلمتيْن للسيد «بيرزادة».. كلمتان بسيطتان، حاولت مراراً أن أقولهما له طوال أسابيع، وأخفقت، فاكتفيت بقولهما فقط في صلواتي، ولكم خجلت من أنني قلتهما الآن من أجل نفسي!.

قرصني السيد «بيرزادة» في وجنتي بأصبعه الغليظة وراحة يده؛ ما أفسد الظل الأخضر على نحو طفيف، وقال مستسلماً: «حسناً.. مادامت سيدتي مُصرّة»، ثم انحنى لنا انحناءة صغيرة.

وأخيراً غادرنا المنزل ونحن نتعثّر قليلًا في أحذيتنا السود المدببة التي اشتريناها من متجر الأشياء المستعملة، وعندما استدرنا في نهاية الممشى لنلوّح لهم مودّعين، كان السيد «بيرزادة» يقف عند إطار الباب وهو يرد علينا تحية الرحيل، وبدا قصيراً وهو يقف بين والديّ.

سألتني «دورا»: «لماذا أراد هذا الرجل أن يأتي معنا؟». أجبت: «لأن بناته في عداد المفقودات». ما إن قلت لها هذا حتى تمنيت لو أنني لم أفعل؛ فقد شعرت بأنني بقولي هذا جعلت الأمر يتحقق بالفعل، وأن بنات السيد «بيرزادة» مفقودات بالفعل، وأنه لن يراهنّ مجدداً أبداً.

استكملت «دورا» الحديث متسائلةً: «هل تقصدين أن هناك من خطفهن.. من حديقة أو من مكان ما؟»

– «لم أعنِ أنهن مفقودات.. بل إنه يفتقدهن؛ فهن يعشن في بلدة أخرى، ولم يرهن منذ فترة.. هذا كل ما في الأمر».

Twitter: @ketab_n

انتقلنا من منزل إلى آخر، وصرنا نعبر من ممشى إلى آخر، وندق الأجراس. ولقد عمد بعضهم إلى إطفاء أنوارهم لتترك المصابيح أثراً أوقع، وبعضهم علّق الخفافيش المطاطية على النوافذ، بينما وضع «آل ماكنتاير» تابوتاً أمام باب منزلهم؛ حيث نهض منه السيد «ماكنتري» وقد غطى وجهه بالطباشير، ثم دفع بحفنة من الحلوى في أكياسنا. وأخبرني كثيرون أنهم لم يروا أبداً ساحرة هندية من قبل، بينما أتم آخرون دورهم من دون تعليق. وبينما كنا نشق طريقنا بمحاذاة الأشعة الصادرة من مصابيحنا، رأينا بيضاً محطماً في منتصف الطريق، وسيارات مغطاة بكريم الحلاقة، وورق الحمّام يغطي فروع الأشجار. وقبل أن نصل إلى منزل «دورا»، كانت أيدينا قد كلّت من حمل أكياس الخيش المنتفخة، وتورمت أقدامنا، وصارت تؤلمنا أشد الألم. وعلى الفور أعطتنا أمها ضمادات مهدئة للبثور، وقدّمت لنا عصير التفاح الدافئ وفيشار الكراميل. وبعدها ذكّرتني والدة «دورا» بضرورة الاتصال بوالديّ؛ ليطمئنا على وصولي إلى منزل «دورا» سالمة. وعندما فعلت، كان بوسعي سماع صوت التلفاز واضحاً في خلفية الحديث الهاتفي، ولم يبدُ لي أن مكالمتي هذه قد بعثت طمأنينة كافية في صدر أمي. وعندما أعدت سماعة الهاتف إلى مكانها، خطرت لي فكرة أن التلفاز في منزل «دورا» لم يكن مداراً على الإطلاق؛ إذ كان أبوها مضطجعاً فوق الأريكة يقرأ مجلة، بينما كأس النبيذ فوق منضدة القهوة، وموسيقى الساكسفون تنبعث من جهاز الستيريو.

بعد أن انتهيت أنا و«دورا» من فرز غنيمتنا، عددنا القطع، وصنّفناها، وتداولناها فيما بيننا حتى رضيت كل منا بنصيبها. أعادتني أمّها إلى بيتي، ولما وصلنا شكرتها، ومكثت هي بسيارتها أمام البيت حتى اطمأنت إلى وصولي إلى باب المنزل، رأيت ثمرة قرع العسل الخاصة بنا قد تحطّمت، وتناثرت قشرتها السميكة بين الحشائش. شعرت عندئذ بوخز الدمعات في عيني، وبغصةٍ مؤلمةٍ مفاجئةٍ في حلقي، وكأنّ حصوات صغيرة حادة انحشرت فيه؛ راحت تنسحق مع كل خطوة أخطوها بقدميّ المتألمتيْن. ثم فتحت الباب، وكنت أتوقع أن أرى ثلاثتهم يقفون في ردهة المنزل للقائي، وأن يُبدو حزنهم لتحطم ثمرة قرع العسل، ولكن لم يكن هناك أي أحد في استقبالي. كان السيد «بيرزادة» وأبي،

Twitter: @ketab_n

وأمي يجلسون جنباً إلى جنب على الأريكة في غرفة المعيشة، وكان التلفاز مغلقاً، ولكن السيد «بيرزادة» كان يضع رأسه بين يديْه؛ فقد سمعوا في تلك الأمسية ـ وفي أمسيات كثيرة بعدها ـ أن الهند وباكستان كانا يقتربان أكثر وأكثر صوب الحرب؛ فلقد اصطفت قوات من الجانبيْن على شطري الحدود، وكانت «دكا» لا تحيد عن مطلبها بالاستقلال، وتصر عليه، والحرب ستندلع في شرق الأراضي الباكستانية؛ فاتخذت الولايات المتحدة جانب باكستان الغربية، بينما تحالف الاتحاد السوفييتي مع كل من الهند وما أصبح في ما بعد يُعرف باسم «بنجلاديش». ودقّت طبول الحرب رسمياً في الرابع من ديسمبر، ولم يمضِ اثنا عشر يوماً حتى وهن عضد الجيش الباكستاني من جرّاء قتاله على مسافة تبعد ثلاثة آلاف ميل عن مصدر إمداداته؛ ومن ثمّ كان استسلامه في «دكا». لم أدرك كل هذه الحقائق إلا الآن؛ بعد أن أصبحت متاحة لديّ في كتب التاريخ الموجودة بكل المكتبات. لكن في ذلك الوقت، كان الأمر في غالبيته يشكل لغزاً غامضاً، وكانت مفاتيحُ تفسيره مشوّشة. أتذكر أنه في أثناء أيام الحرب الاثني عشر هذه؛ كفّ أبي عن حثّي على مشاهدة الأخبار معهم كما اعتاد، ولم يحضر لي السيد «بيرزادة» الحلوى المعتادة، ورفضت أمي تقديم أي أطعمة للعشاء سوى البيض المسلوق والأرز. كما أتذكر بعض الليالي التي ساعدت فيها أمي على بسط الفُرُش والأغطية فوق الأريكة؛ كي ينام فوقها السيد «بيرزادة»، وأصوات الصراخ الحادة ترتفع في منتصف الليل؛ عندما يتصل والداي بأقاربهما في كلكتا لمعرفة المزيد من التفاصيل عن الموقف هناك. ولا أنسى أبداً مشهد ثلاثتهم وهم يتصرفون في ذلك الوقت كشخص واحد؛ يتشاركون الوجبة ذاتها، والجسد ذاته، والصمت ذاته، والخوف ذاته.

بحلول شهر يناير؛ سافر السيد «بيرزادة» عائداً إلى منزله ذي الطوابق الثلاثة في «دكا»؛ ليكتشف ماذا تبقى منه. ولم يزرنا كثيراً خلال تلك الأسابيع الأخيرة من ذلك العام؛ إذ انشغل بوضع اللمسات الأخيرة على مؤلَّفه، في حين ذهبنا نحن إلى فيلادلفيا؛ لقضاء إجازة الميلاد مع أصدقاء لوالديّ هناك. وتماماً، كما لا أتذكر شيئاً عن زيارة السيد

Twitter: @ketab_n

«بيرزادة» الأولى لنا؛ فليس هناك ما أتذكره عن زيارته الأخيرة، فلقد اصطحبه والداي إلى المطار ذات ظهيرة، وكنت لا أزال بعدُ في المدرسة، ثم مضت فترة طويلة لم تأتِنا منه أخبار. أما نحن، فعادت أمسياتنا إلى سابق عهدها، وعدنا إلى تناول طعام العشاء أمام نشرة الأنباء، إلا أن الاختلاف الوحيد هو أنه لم يعد السيد «بيرزادة» ـ ولا ساعته الإضافية ـ يشاركنا الصُحبة. وأخبرتنا التقارير أن دكا كانت تبني نفسها من جديد على نحو متأنٍّ؛ من خلال حكومة برلمانية تشكّلت حديثاً، وأن زعيمها الجديد، الشيخ «مجيب الرحمن» ـ المطلَق سراحه من السجن أخيراً ـ قد طلب من البلدان إمداده بالمواد اللازمة لبناء أكثر من مليون منزل تهدمت أثناء الحرب. ومن ناحية أخرى، عاد عدد لا يُحصى من اللاجئين من الهند، ليجدوا في استقبالهم البطالة وخطر المجاعة. وكنت من وقت إلى آخر، أعمد إلى دراسة الخريطة فوق مكتب أبي، وأتخيل السيد «بيرزادة» فوق هذه البقعة الصفراء الصغيرة، بعرقه الغزير ـ كما تخيلته ذات مرة ـ في واحدة من رحلاته للبحث عن أسرته. وبالطبع كانت تلك خريطة عفا عليها الزمن في ذلك الوقت.

وأخيراً ـ بعد مُضي أشهر عدة ـ تلقينا بطاقة من السيد «بيرزادة» تهنؤنا بالسنة الهجرية الجديدة، مصحوبةً بخطاب قصير عرفنا منه أن شمل أسرته؛ زوجته وبناته وهو، قد التأم، وأنهن بحال جيدة، وقد بقين طوال أحداث العام المنصرم في منزل يملكه جد زوجته وجدتها في جبال «شيلونج». وذكر السيد «بيرزادة» في خطابه أن بناته لم يختلفن كثيراً عن ذي قبل، سوى أنهن صرن أطول قامة، وأنه لم يزل يخطئ في أسمائهن. وفي نهاية خطابه، شكرنا على كرم ضيافتنا له، وأضاف أنه على الرغم من أنه يفهم الآن معنى عبارة «شكراً لك»، فإنه لا يجدها كافيةً للتعبير عن امتنانه. واحتفالاً بهذه الأخبار السعيدة؛ أعدت أمي عشاءً خاصّاً في هذه الليلة، وعندما جلسنا إلى منضدة القهوة لتناول الطعام، استخدمنا الأكواب لنشرب نخب الحدث، ولكنني لم أشعر بأي احتفال؛ فعلى الرغم من أنني لم أره منذ أشهر، فإنني لم أشعر بغيابه بحق إلا في هذه الليلة؛ فقط وأنا أرفع الكوب وأتفوه باسمه؛ أدركت معنى أن تفتقد شخصاً ما تفصلك عنه أميال وساعات عديدة، مثلما مكث هو يفتقد زوجته وبناته شهوراً عدة. ولم يعد هناك سبب لعودته إلينا، وصدق

Twitter: @ketab_n

حدس والديّ بأننا لن نراه ثانية أبداً. ومنذ شهر يناير، وفي كل ليلة قبل أن أوي إلى فراشي، كنت أحرص على تناول قطعة من الحلوى احتفظت بها من عيد القديسين من أجل عائلة السيد «بيرزادة». أما هذه الليلة التي أتانا فيها خطابه، فقد شعرت بأنه لم تعد بي حاجة إلى ذلك، فتخلصت من كل الحلوى.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ترجمان الأوجاع

أمام محل الشاي، احتدم الجدل بين السيد «داس» وزوجته حول من الذي ينبغي عليه الذهاب مع «تينا» إلى المرحاض، وأخيراً رضخت السيدة «داس» بعدما ذكّرها زوجها بأنه هو الذي ساعد على اغتسال الطفلة في الليلة السابقة. في المرآة الخلفية، راقب السيد «كاباسي» السيدة «داس» وهي تترك ببطء سيارته «الإمباسادور» البيضاء الضخمة، إذ راحت تسحب ساقيها الحليقتين، العاريتين إلى حد كبير، عبر المقعد الخلفي، ولكنها لم تمسك بيد الطفلة وهما متجهتان إلى المرحاض.

كانوا في طريقهم لرؤية معبد الشمس في «كوناراك»، في أحد أيام السبت الجافة المشرقة، حيث تهب نسمات المحيط لتلطف حرارة منتصف شهر يوليو؛ ما يخلق طقساً مثالياً لمشاهدة المعالم السياحية. في الأوقات العادية لا يتوقف السيد «كاباسي» على الطريق بعد تلك المسافة القصيرة، ولكن لم تمض خمس دقائق منذ التقط عائلة السيد «داس» هذا الصباح من أمام فندق «ساندي فيلا»، حتى شرعت الطفلة الصغيرة تشتكي. بمجرد أن رأى السيد «كاباسي» السيد «داس» وزوجته»، وهما يقفان مع أبنائهما تحت مظلة الفندق، لاحظ أنهما صغيران جداً في العمر؛ ربما لم يتجاوزا الثلاثين، ولديهما ـ إضافة إلى «تينا» ـ صبيان آخران؛ «روني» و«بوبي»، ومن الواضح أنهما متقاربان في السن، وأسنان كل منهما تغطيها شبكة من الأسلاك الفضية البرّاقة. يبدو أنها أسرة هندية، غير أنهم يرتدون ملابس على غرار ما يفعله الأجانب؛ فالأبناء يرتدون ثياباً ثقيلة، زاهية الألوان، وقبعات شفافة الحواف. ولم يكن اصطحاب الأجانب بالأمر الغريب بالنسبة إلى السيد «كاباسي»، الذي اعتادهم؛ بل كان يتم اختياره خصيصاً لهم، وعلى نحو منتظم، لأنه يستطيع التحدث بالإنجليزية. ففي يوم أمس، قام بتوصيل زوجين مسنين من «أسكتلندا»؛ وقد غطت البقع الغامقة وجهيهما، وجعل الشعر الأبيض الخفيف ـ الذي يُظهر فروة

Twitter: @ketab_n

الرأس ـ رأسيهما معرضين لحرارة الشمس الحارقة. وبالمقارنة بهما، يكون وجها السيد «داس» وزوجته، بسمرتهما وشبابهما، من الوجوه اللافتة للنظر بالفعل. وعندما شرع السيد «كاباسي» بتقديم نفسه لهما، مد إليهما راحتيه معاً على سبيل التحية، إلا أن السيد «داس» ضغط على يده، على طريقة المصافحة الأمريكية، حتى إن السيد «كاباسي» شعر به وكأنه يضغط على مرفقه. أما السيدة «داس» ـ من جانبها ـ فاكتفت بابتسامة من جانب فمها في ازدراء للسيد «كاباسي»، من دون أن تظهر أي اهتمام بشأنه.

وفي أثناء الانتظار أمام محل الشاي، قفز «روني» ـ الذي يبدو الأكبر في الولدين ـ فجأة من فوق مقعده الخلقي، وقد فتنته عنزة مربوطة في وتد بالأرض.

«لا تمسسها».. قال السيد «داس»، وهو يرفع عينيه عن كتاب الرحلات ذي الغلاف الورقي العادي، الذي كان عنوانه (الهند) مكتوباً باللون الأصفر، وبدا وكأنه قد نُشر بالخارج. كان صوت السيد «داس» متردداً بعض الشيء، وحاداً على نحو ما، كأنه يصدر عن صبي لم يبلغ مرحلة النضج بعد.

«أريد أن أعطيها قطعة من العلكة».. صاح الولد، وهو يهرول في اتجاهها.

خرج السيد «داس» من السيارة، وشرع يفرد ساقيه، ثم جلس القرفصاء فوق الأرض لبرهة. كان رجلاً حليق الذقن، وبدا تماماً كنسخة مكبّرة من «روني»، ويضع قبعة ذات حافة، لونها في زرقة حجر الزفير، ويرتدي سروالاً قصيراً، وزوجين من الأحذية الرياضية، وقميصاً قطنياً. ومن عنقه، تتدلى آلة التصوير المثيرة للإعجاب؛ بعدستها للتصوير عن بعد، وما بها من أزرار وعلامات، إنها بالفعل الشيء الوحيد المعقّد الذي يضعه هذا الرجل. عقد السيد «داس» حاجبيه وهو يراقب «روني» في اندفاعه صوب العنزة، ولكن لم يبدُ عليه أنه يعتزم التدخل بأي حال، واكتفى بأن أردف لأخيه قائلاً: «بوبي .. تأكد من ألا يأتي أخوك بفعل أحمق».

«لا أريد أن أفعل هذا».. قال «بوبي» من دون أن يتحرك، حيث كان يجلس في المقعد الأمامي إلى جوار السيد «كاباسي»، وينظر باهتمام إلى صورة للإله الفيل الملصقة على صندوق التابلوه الخاص بالسيارة.

Twitter: @ketab_n

«لا داعي للقلق، فهي مستأنسة تماماً».. علق السيد «كاباسي» الذي كان في السادسة والأربعين من عمره، وقد انحسر شعره – الذي تحول لونه بالكامل إلى اللون الفضي – إلى الوراء، ولكن بشرته التي تشبه الحلوى في لونها، وجبينه الخالي من التجاعيد؛ لاعتنائه به في لحظات فراغه بقطرات زيت زهرة اللوتس العطري، قد جعلا من السهل على من يراه أن يتخيل كيف كان يبدو في مرحلة مبكرة من عمره. يرتدي السيد «كاباسي» بنطالاً رمادي اللون، وقميصاً ملائماً من طراز السترات؛ يضيق لدى الخصر، بكُمّين قصيرين، وياقة كبيرة حادة الحواف، مصنوعة من مادة رقيقة لكنها تعيش لفترة طويلة. وكان قد حدد بالفعل تفاصيل الشكل والخامة للخيّاط ـ إذ كانت تلك تفصيلته المفضلة في جولاته السياحية؛ لأنها لا تتجعد في رحلاته الطويلة خلف عجلة القيادة. ومن زجاج السيارة الأمامي، راح يراقب «روني» وهو يدور حول العنزة، ثم يلمسها من جانبها سريعاً، قبل أن يهرول عائداً إلى السيارة.

وما إن استقر السيد «داس» في المقعد الخلفي مرة أخرى داخل السيارة، حتى سأله السيد «كاباسي»: «هل تركت الهند مذ كنت طفلاً؟»

«نعم .. أنا و«مينا» ولدنا في أمريكا».. قال السيد «داس» معلناً، وانتابته نوبة ثقة مفاجئة، ثم أردف قائلاً: «وُلدنا ونشأنا في أمريكا، أما والدانا فيعيشان هنا الآن في «أسانسول»، بعد أن تقاعدا، ونحن نزورهما كل بضع سنوات». ثم استدار لمراقبة الطفلة الصغيرة وهي تعدو صوب السيارة، وكتفا ردائها الأرجواني يتقافزان فوق كتفيها الصغيرين ببشرتهما البنية اللون. وكانت تضم إلى صدرها دمية شقراء بدت وكأنها ممزقة بمقص بارد الحواف، ربما كإجراء عقابي. واستكمل السيد «داس» حديثه قائلاً: «إنها زيارة تينا الأولى إلى الهند، أليس كذلك يا تينا؟»

فقالت «تينا»: «لن أضطر إلى الذهاب إلى دورة المياه ثانية».

وسأل السيد «داس»: «أين مينا؟»

وتعجّب السيد «كاباسي» من أن السيد «داس» يشير إلى زوجته باسمها الأول وهو يتحدث إلى الطفلة الصغيرة. أما «تينا» فأشارت إلى حيث كانت السيدة «داس» تشتري

Twitter: @ketab_n

شيئاً من أحد الرجال ذوي الصدور العارية، الذين يعملون في محل الشاي. سمع السيد «كاباسي» أحد هؤلاء الرجال يغني مقطعاً من أغنية هندية رومانسية شهيرة، في أثناء سير السيدة «داس» في طريق عودتها إلى السيارة، ولكن يبدو أنها لم تفهم كلمات الأغنية، فلم تظهر عليها علامات اضطراب، ولا غضب، ولا إحراج، ولا أي رد فعل آخر تجاه تجاوزات الرجل الواضحة.

انتبه إليها السيد «كاباسي»؛ لقد ارتدت السيدة «داس» تنورة قصيرة إلى ما فوق الركبة، ذات مربعات حمر وبيض، وزوجين من الأحذية التي تغطي القدم، ذات كعب خشبي مربع الشكل، بينما بلوزتها ضيقة على نحو ما، وتتخذ شكل القميص الرجالي الداخلي، وتزين منطقة الصدر قطعة من القماش القطني على شكل حبة من نبات الفراولة. كانت السيدة «داس» قصيرة القامة، بيدين صغيرتين ككفي حيوان صغير، وأنامل باردة وردية اللون، وقد غطّت أظفارها بطلاء مماثل للون أحمر شفتيها، وكانت ممتلئة القوام إلى حد ما. أما شعرها فهو أطول من شعر زوجها بقدر يسير، وقد مشطته على أحد الجانبين، وكانت تضع نظارة شمسية كبيرة ذات لون بني داكن، مع مسحة وردية خفيفة، وتحمل حقيبة كبيرة من القش على شكل وعاء، تكاد تكون في حجم جذعها، وتبرز منها زجاجة مياه. سارت السيدة «داس» ببطء، وهي تحمل الأرز المحشو بالمكسرات والفلفل الحار في علبة ضخمة مصنوعة من ورق الصحف. والتفت السيد «كاباسي» إلى السيد «داس» متسائلاً:

– «أين تعيشون في أمريكا؟»

– «في نيو برونزويك، بولاية نيو جيرسي».

– «بالقرب من نيويورك؟»

– «تماماً، أعمل في التدريس للمرحلة الإعدادية هناك».

– «أي مادة تدرّس؟»

– «مادة العلوم، والواقع أنني أصطحب تلاميذي كل عام في رحلة إلى متحف التاريخ الطبيعي في مدينة «نيويورك». يمكنك القول: إنه ـ بشكل ما ـ هناك العديد من الأشياء

Twitter: @ketab_n

المشتركة بيننا؛ أعني أنا وأنت. أخبرني يا سيد «كاباسي»، منذ متى وأنت تعمل بالإرشاد السياحي؟»

– «منذ خمس سنوات».

وصلت السيدة «داس» إلى السيارة، فسألت وهي تغلق بابها: «كم من الوقت سوف تستغرق هذه الرحلة؟»

«نحو الساعتين ونصف الساعة».. أجابها السيد «كاباسي».

فأطلقت السيدة «داس» زفرة تنم عن نفاد صبر، كأنها قد قضت عمرها مسافرة بلا توقف، وشرعت تجلب بعض الهواء إلى نفسها مستخدمةً مجلة «بومباي» السينمائية المكتوبة بالإنجليزية، والتي كانت مطوية في يدها.

«ظننت أن معبد الشمس يبعد مسافة ثمانية عشر ميلاً فقط شمالي بوري».. قال السيد «داس» وهو ينقر فوق الدليل السياحي.

«إن الطرق المؤدية إلى كوناراك ليست بحالة جيدة، كما أن المسافة الصحيحة هي اثنان وخمسون ميلاً».. قال السيد «كاباسي» موضحاً.

أومأ السيد «داس» برأسه، وعدّل ـ لمرة أخرى ـ وضع حزام الكاميرا الذي بدأ يخز مؤخرة عنقه.

وقبل أن يدير محرك السيارة، شرع السيد «كاباسي» في التأكد من إحكام الأقفال داخل البابين الخلفيين. وبمجرد أن تحركت السيارة، بدأت الطفلة الصغيرة تلعب بقفل الباب إلى جانبها، وتبذل الجهد في دفعه إلى الأمام وإلى الخلف، ولكن لم تفعل السيدة «داس» شيئاً لتمنعها من ذلك، فلقد جلست شبه مرتخية في أحد طرفي المقعد الخلفي، ولم تحاول أن تشرك أياً منهم في تناول الأرز، وعلى جانبيها جلس «روني» و«تينا»؛ وكلاهما يمضغ علكات ذات لون أخضر برّاق.

عندما بدأت السيارة في زيادة سرعتها، قال «بوبي»، وهو يشير بأصبعه إلى الأشجار الطويلة المصفوفة على جانبي الطريق: «انظروا».

وهنا صاح «روني»: «إنها قرود!.. يا للعجب!»

Twitter: @ketab_n

كانت القرود تجلس في مجموعات على طول الفروع، بوجوهها السود البرّاقة، وأجسادها الفضية، ولكل منها حاجبان أفقيان، وشعر فوق الرأس يشبه التاج، فيما التفت ذيولها الرمادية الطويلة كمجموعة من الحبال بين أوراق الأشجار، بعضها يحك جلده بيديه السوداوين، أو يؤرجح قدميه وهو يحدّق في السيارة المارة.

قال السيد «كاباسي»: «نحن نطلق عليها اسم «هانومان»، ووجودها شائع جداً في المنطقة».

وما إن انتهى من عبارته تلك، حتى قفز أحد القردة إلى منتصف الطريق؛ ما أرغم السيد «كاباسي» على الضغط على الفرامل وإيقاف السيارة فجأة، فيما قفز قرد آخر فوق سقف السيارة، ثم انطلق منها على الفور. أطلق السيد «كاباسي» بوق السيارة، بينما كان الأطفال قد بلغت بهم الإثارة مبلغها؛ فحبسوا أنفاسهم، وشرعوا يغطون معظم وجوههم بأيديهم؛ فلم يحدث من قبل أن رأى أي منهم قرداً خارج حديقة الحيوان؛ كما قال السيد «داس» موضحاً، ثم طلب من السيد «كاباسي» أن يوقف السيارة لبرهة حتى يلتقط صورة لتلك القردة.

وبينما انشغل السيد «داس» بضبط عدسات آلة التصوير لالتقاط الصور عن بُعد، أخرجت السيدة «داس» من حقيبتها القشية زجاجة من طلاء الأظافر الشفاف، وشرعت تطلي ظِفر سبابتها.

مدّت الطفلة الصغيرة يدها لأمها، وقالت: «وأنا كذلك يا أمي.. اطلي لي أظافري أنا أيضاً».

«دعيني وشأني».. أجابتها السيدة «داس» وهي تنفخ الهواء صوب ظفرها كي يجف الطلاء، وتتحوّل بجسدها قليلاً بعيداً عن ابنتها وهي تردف: «لا أستطيع ضبط الطلاء وأنت تفعلين هذا».

انصرفت عنها الطفلة، وراحت تنشغل بمِئزر ثوب دميتها البلاستيكية؛ فتعقدها تارة وتحلّها تارة.

«فليجلس الجميع».. قال السيد «داس»، وهو يعيد وضع غطاء العدسة.

Twitter: @ketab_n

اهتزت السيارة بشكل ملحوظ وهي تندفع فوق الطريق المترب، فتسبب ذلك في قفز الركاب في أماكنهم بين الحين والآخر، غير أن ذلك لم يمنع السيدة «داس» من استئناف اعتنائها بطلاء أظافرها. أما السيد «كاباسي» فهدّأ من سرعته أملاً في أن يمنح راكبيه رحلة أكثر سلاسة وهدوءاً. وعندما مدّ يدّه صوب ذراع نقل السرعة، أزاح الصبي الجالس بالمقعد الأمامي إلى جواره ركبته الملساء حتى لا تعيق حركة الناقل. لاحظ السيد «كاباسي» أن هذا الولد كان أكثر شحوباً من الطفلين الآخرين. ثم سأل الولد: «أبي.. لماذا يجلس هذا السائق إلى الجانب الخطأ من السيارة أيضاً؟»

أجابه «روني»: «هكذا سياراتهم هنا يا أحمق».

فقال السيد «داس»: «لا تنعت أخاك بالأحمق»، ثم التفت إلى السيد «كاباسي» وقال: «تختلف السيارات في أمريكا كما تعلم.. لذا يختلط الأمر عليهم».

«نعم، أدرك هذا تماماً».. أجاب السيد «كاباسي» بلطف قدر المستطاع، وراح يزيد من سرعة السيارة مرة أخرى، وهم يقتربون من هضبة بالطريق. ثم أضاف: «أرى تلك السيارات الأمريكية في «دالاس»، حيث عجلة القيادة إلى الجانب الأيسر».

«ماذا يعني بـ «دالاس»؟».. سألت «تينا» وهي تضرب مقعد السيد «كاباسي» من الخلف بدميتها التي صارت الآن عارية تماماً.

«مسلسل تلفزيوني، لكنه لم يعد يُعرض الآن»، أوضح لها السيد «داس».

في أثناء مرور السيارة بصف من أشجار النخيل؛ خطر للسيد «كاباسي» أنهم جميعاً أشبه بالإخوة؛ فالسيد «داس» وزوجته يتعاملان وكأنهما أخ وأخت كبيران لهؤلاء الأطفال، وليس كوالدين لهم. بدا الأمر وكأنهما مسؤولان عنهم لذلك اليوم فحسب؛ فكان من الصعوبة بمكان تصديق أنهما مسؤولان بصفة منتظمة عن أي شيء سوى نفسيهما. أخذ السيد «داس» ينقر غطاء العدسة، وكتابه السياحي، وهو يمرر سبابته بين الحين والآخر عبر الصفحات، محدثاً صوتاً خفيفاً، ولم تزل السيدة «داس» تعتني بطلاء أظافرها، ولم تخلع نظارتها الشمسية. أما «تينا»، فشرعت تكرر رجاءها من حين إلى آخر، من أجل أن تطلي لها أمها أظافرها هي أيضاً، حتى استجابت السيدة «داس»، ووضعت قطرة من الطلاء فوق إصبع الصغيرة، قبل أن تعيد الزجاجة إلى حقيبتها القشية مرة أخرى.

Twitter: @ketab_n

«ألا يوجد تكييف هواء في هذه السيارة؟».. سألت السيدة «داس» وهي تنفخ الهواء صوب أظافرها، وكانت النافذة إلى جوار «تينا» مكسورة، ومن ثمّ يتعذّر فتحها.

«كفاكِ تذمراً؛ فالطقس ليس حاراً إلى هذه الدرجة».. قال زوجها.

ولكن السيدة «داس» تابعت شكواها قائلة: «لقد طلبت منك أن تحضر لنا سيارة مزودة بجهاز تكييف، فلماذا تفعل بنا هذا يا راج؟ لتوفّر بضع روبيات غبية؟.. كم وفّرت: خمسين روبية؟»

بدت لهجتهما كتلك اللهجات التي سمعها السيد «كاباسي» في برامج التلفاز الأمريكية، وإن كانت تختلف عن تلك التي سمعها في مسلسل «دالاس».

وجّه السيد «داس» حديثه إلى السيد «كاباسي» سائلاً إياه، وقد استبقى نافذته مفتوحة طوال الطريق: «أليس أمراً مملاً سيد «كاباسي» أن تُرشد الناس إلى الأشياء ذاتها كل يوم؟.. هلا أوقفت السيارة للحظة؛ أود أن ألتقط صورة لهذا الرجل».

شرع السيد «كاباسي» يقف إلى جانب الطريق، فيما التقط السيد «داس» صورة لرجل عاري القدمين، قد لفّ رأسه بعمامة قذرة، ويجلس فوق عربة من أكياس الحبوب، يجرها عِجلان. وكان الهزال سمة الرجل والعجلين. وفي المقعد الخلفي حدّقت السيدة «داس» في السماء عبر نافذة أخرى، حيث السحب شبه الشفافة تمر مسرعة، الواحدة تلو الأخرى.

أجاب السيد «كاباسي» وهم يتابعون طريقهم: «الحق أنني أتطلع إلى الذهاب إلى مثل هذه الأماكن كثيراً، فمعبد الشمس واحد من أماكني المفضلة، بل أعدّ زيارته بمثابة مكافأة لي. فأنا أقوم بهذه الجولات السياحية أيام الجمعة والسبت فحسب، حيث لديّ عمل آخر أقوم به طوال أيام الأسبوع الأخرى».

سأله السيد «داس»: «حقاً؟ أين؟»

– «أعمل في عيادة طبيب».

– «أنت طبيب؟»

– «كلا.. لستُ طبيباً، لكني أعمل مترجماً فورياً لدى أحدهم».

– «لماذا يحتاج الطبيب إلى مترجم فوري؟»

Twitter: @ketab_n

– «لديه العديد من المرضى الجوجاراتية[1]، وكان أبي جوجاراتياً أيضاً، ولكن القليل يتحدثون الجوجاراتية في هذه المنطقة، بما في ذلك الطبيب. ولذا طلب مني أن أنضم للعمل معه في عيادته، فأترجم له ما يقوله المرضى».

«عجيب! .. لم أسمع أبداً بشيء كهذا».. قال السيد «داس».

هزّ السيد «كاباسي» كتفيه، وقال: «إنه مجرد عمل؛ كأي عمل آخر".

«لكنه عمل في غاية الرومانسية».. قالت السيدة «داس» بنبرة حالمة كسرت بها صمتها الطويل، ثم رفعت نظارتها الشمسية ذات الظلال الوردية، وثبتتها فوق رأسها كالتاج. وللمرة الأولى تلاقت عيناها بعيني السيد «كاباسي» في المرآة الخلفية؛ وكانتا شاحبتين، وصغيرتين نوعاً ما، نظرتهما ثابتة ومحدّقة، ولكن شيئاً يشبه النعاس كان يغزوهما.

رفع السيد «داس» جسده لينظر نحوها، وقال متسائلاً: «وأين الرومانسية في هذا؟»

«لا أعرف.. شيء ما!».. قالت وهي تهز كتفيها وتعقد حاجبيها لبرهة، ثم توجهّت إلى السيد «كاباسي» تسأله في مرح: «هل ترغب في قطعة من العلكة؟»، ثم أدخلت يدها في حقيبتها، وأخرجت علكة مربعة الشكل، مغلّفة بغلاف أخضر ذي خطوط بيض. وما إن وضع السيد «كاباسي» العلكة في فمه حتى اندفع منها إلى لسانه سائل لزج حلو المذاق.

ثم أردفت: «أخبرنا بالمزيد عن عملك سيد كاباسي».

– «ما الذي ترغبين في معرفته يا سيدتي؟»

«لست أعرف تحديداً».. أجابته وهي تهز كتفيها مرة أخرى، وتمضغ بعضاً من الأرز المدخّن وتلعق زيت الخردل من ركني فمها، ثم استوت في مقعدها، وأمالت رأسها في بقعة شمسية وأغلقت عينيها وهي تقول: «احكِ لنا أحد المواقف المتكررة.. أريد أن أتخيل ما يحدث».

– «حسناً.. أتى ذات يوم رجل يشكو من ألم في حلقه؟»

– «هل كان يدخّن التبغ؟»

1– لغة يتحدث بها بعض الطوائف والقبائل في الهند. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

– «كلا.. كانت حالته مثيرة للفضول، إذ يشكو من أنه يشعر كما لو أن هناك قطعاً طويلة من الشوك مغروسة في حلقه. وعندما أخبرت الطبيب بالأمر استطاع أن يصف له العلاج المناسب".

– «لكم كان ذلك دقيقاً".

«نعم".. قال السيد «كاباسي» موافقاً بعد شيء من تردد.

«أي أن هؤلاء المرضى يعتمدون عليك تماماً».. أردفت السيدة «داس» ببطء، كما لو أنها تفكر بصوت مسموع، وأردفت أيضاً: «بل يمكن القول: إنهم يعتمدون عليك أكثر من اعتمادهم على الطبيب".

– «ماذا تعنين؟.. كيف يمكن أن يكون الأمر هكذا؟»

– «أعني ـ على سبيل المثال ـ أنه كان بوسعك أن تقول للطبيب: إن ذلك الرجل يشعر باحتراق في حلقه، وليس شيئاً كوخز الأشواك. وبالطبع لن يعرف المريض ما أخبرت به الطبيب، ولن يعرف الطبيب أن ما أخبرته به لم يكن صحيحاً. إنها مسؤولية كبيرة».

وافقها السيد «داس» بقوله: «بالفعل.. إنك تتحمل مسؤولية كبيرة بحق في عملك هذا سيد كاباسي».

لم يحدث أبداً من قبل أن فكّر السيد «كاباسي» أن عمله يستحق كل هذا الثناء؛ فبالنسبة إليه لم يكن الأمر سوى عمل لا يستحق الشكر. ولم يرَ شيئاً نبيلاً في تفسير علل الآخرين، وأن يجتهد في ترجمة أعراض الكثير من العظام المنتفخة، والتقلصات التي لا حصر لها في البطن والأمعاء، والبُقع فوق راحات الأيدي، بألوانها، وأشكالها، وأحجامها المختلفة. كان الطبيب الذي يعمل معه في نصف عمره تقريباً، وكان مولعاً بالسراويل التي تتسع أسفل الركبة، ويحب إطلاق النكات السمجة عن حزب المؤتمر الهندي. وقد عملا معاً في عيادة صغيرة بالية، حيث كان السيد «كاباسي» يحيك ملابس تلتصق به في الحر، على الرغم من وجود مروحة بالسقف مسوّدة الأنصال تدور فوق رأسيهما.

كان السيد «كاباسي» يرى في هذا العمل إشارة إلى إخفاقاته؛ فقد عمل في شبابه معلّماً متفرّغاً للغات الأجنبية، لديه مجموعة رائعة من القواميس. ولطالما حلم بأن يكون مترجماً

Twitter: @ketab_n

للدبلوماسيين وكبار الشخصيات، فيحل النزاعات بين الأشخاص، وحتى بين الدول؛ نزاعات كان وحده سيفهم الطرفين فيها. ولقد علّم السيد «كاباسي» نفسه بنفسه؛ فقبل أن يزوّجه أبواه، عمد كل ليلة إلى تدوين أصول الكلمات الشائعة في مجموعة من الدفاتر، وفي لحظة بعينها في حياته، أصبح السيد «كاباسي» واثقاً بأنه يستطيع التحدث بالإنجليزية، وبالفرنسية، وبالروسية، وبالبرتغالية، وبالإيطالية، حال أتيحت له الفرصة، ناهيك عن الهندية، والبنغالية، والأوريا، والجوجاراتية. أما الآن، فلم يتبق في ذاكرته سوى حفنة من الجمل الأوروبية، وبعض الكلمات المبعثرة للأشياء مثل الصحون والمقاعد. وظلت اللغة الإنجليزية هي اللغة الوحيدة غير الهندية التي يتحدثها بطلاقة. أدرك السيد «كاباسي» أن مهارته في هذا الأمر ليست منقطعة النظير، حتى إنه أحياناً يخشى أن يكبر أبناؤه وهم على معرفة بالإنجليزية أفضل منه، فقط من مشاهدتهم التلفاز. ولكن، لم تزل مهارته تلك طيّعة ومساندة له في الجولات السياحية.

اتخذ السيد «كاباسي» تلك الوظيفة الإضافية بعد إصابة أكبر أبنائه بحمّى التيفوئيد، وهو في السابعة من عمره؛ حيث تعرّف إلى الطبيب في تلك الحادثة. وقتها، كان السيد «كاباسي» يعمل مدرساً للغة الإنجليزية في مدرسة تعلم قواعد اللغة، فعمد إلى مقايضة مهاراته في الترجمة بسداد الفواتير العلاجية الباهظة. وأخيراً مات الصبي ذات ليلة وهو بين ذراعي أمه، وكانت أطرافه تكاد تشتعل من فرط الحمّى. وعندها كان لم يزل يتعيّن على السيد «كاباسي» تكبّد مصاريف الجنازة، ثم أطفاله الآخرين الذين سرعان ما أنجبتهم له زوجته، ثم حان دور المنزل الجديد الأوسع، والمدارس الجيدة، والمعلمين، والأحذية رفيعة المستوى، وجهاز التلفاز، والطرق التي لا تُحصى والتي حاول بها التخفيف عن زوجته لكيلا تبكي حتى وهي في نومها. ولذا، عندما عرض عليه الطبيب ضعف ما يتقاضاه في مدرسة قواعد اللغة تلك، وافق السيد «كاباسي» على قبول العرض. أدرك السيد «كاباسي» أن زوجته تنظر إلى عمله مترجماً بقليل من التقدير؛ لأنه يذكّرها بابنها الذي فقدته، فهي مستاءة من إنقاذه حياة الآخرين، حتى بمساعدته البسيطة تلك. ولذا، فضلت زوجته أن تُطلق عليه لقب «مساعد طبيب»، كما لو أن عمله مترجماً هناك يتساوى مع

Twitter: @ketab_n

قياس درجة حرارة أحد المرضى، أو تغيير ضمادة لآخر. ولم تسأله أبداً عن المرضى الذين يترددون إلى عيادة الطبيب، ولم تقل: إن وظيفته تلك تنطوي على مسؤولية كبيرة.

لذلك شعر السيد «كاباسي» بالإطراء، عندما كانت السيدة «داس» مفتونة بعمله. فعلى النقيض من زوجته، ذكرته تلك المرأة بتحديات مهنته الفكرية، ناهيك عن استخدامها كلمة «رومانسي». وعلى الرغم من أنها لا تتعامل مع زوجها بطريقة تتسم بالرومانسية، فإنها استخدمت هذه الكلمة لتصفه. وتساءل السيد «كاباسي» ما إذا كان السيد «داس» وزوجته لا يلائمان بعضهما؛ تماماً كما هي الحال معه هو وزوجته. فربما لا توجد بينهما ـ هما أيضاً ـ سوى أشياء قليلة مشتركة، بالطبع بغض النظر عن الأبناء الثلاثة، وعشر سنوات من عمر كل منهما. فلم تخفَ عنه الإشارات ذاتها التي يلحظها في زواجه؛ المشاحنات، واللامبالاة، وفترات الصمت الطويلة. ولا شك في أن اهتمام السيدة «داس» المفاجئ به ـ اهتمام لم تعطه زوجَها ولا أولادها ـ كان مُسكراً كالخمر. وكلما استعاد السيد «كاباسي» صوتها وهي تقول كلمة «رومانسي»، ازداد ثمالة.

شرع السيد «كاباسي» يتفقد انعكاس صورته في المرآة الخلفية وهو يقود السيارة، وشعر بامتنان لاختياره الحُلّة الرمادية هذا الصباح بدلاً من الحُلّة البنية، التي ارتخت قليلاً لدى الركبتين. وطفق من وقت إلى آخر يلقي نظرة خاطفة على السيدة «داس» عبر المرآة؛ فقد كان ينظر ـ إضافة إلى وجههاـ إلى الفراولة بين نهديها، والتجويف البني المُذهّب في عنقها. وقرر أخيراً أن يخبر السيدة «داس» بأمر مريض ثانٍ، ثم أتبعه بمريض ثالث: فأخبرها عن السيدة الشابة التي كانت تشكو شعورها بشيء أشبه بقطرات الأمطار تسقط فوق عمودها الفقري، والرجل الذي بدأت وحمة ميلاده تنبت شعراً. استمعت إليه السيدة «داس» في انتباه وهي تمشّط شعرها بفرشاة صغيرة من البلاستيك تشبه فراشاً بيضاوياً من المسامير، وتسأله المزيد من الأسئلة، والمزيد من الأمثلة. أما الأطفال فالتزموا الهدوء، وانشغلوا بمراقبة القرود فوق الأشجار، بينما انهمك السيد «داس» تماماً في مطالعة كتابه السياحي، فبدا الحديث وكأنه حديث خاص بين السيد «كاباسي» والسيدة «داس». ومضت نصف ساعة على هذا النحو، وعندما توقف الجمع لتناول طعام الغداء

Twitter: @ketab_n

في مطعم على جانب الطريق يبيع الفطائر وشطائر البيض المقلي؛ وهو الأمر الذي يتطلع إليه السيد «كاباسي» في جولاته السياحية، فيستمتع بالهدوء لبعض الوقت ويتناول قدح الشاي الساخن، أصابته خيبة الأمل؛ فبينما كان أفراد عائلة «داس» يستقرون معاً أسفل مظلة أرجوانية مهدّبة باللون الأبيض والشُرّابات البرتقالية، ويُملون طلباتهم على أحد السقاة الذي كان يجوب المكان وقد اعتمر قبعة ثلاثية الأركان، كان السيد «كاباسي» يتوجه على مضض إلى منضدة أخرى مجاورة.

«سيد كاباسي.. انتظر؛ لديك مكان هنا».. نادته السيدة «داس» وهي تُجلس «تينا» فوق ساقيها، وتصر على أن يرافقهم إلى منضدتهم. وهكذا تناول الجميع الشطائر مع عصير المانجو وأطباق البصل والبطاطس المقلية بشدة في الدقيق المُعجّن. وبعد الانتهاء من شطيرتي «الأومليت»، شرع السيد «داس» يلتقط المزيد من الصور للمجموعة وهي تتناول طعامها.

«كم تبقى لنا من الوقت للوصول؟».. توجه السيد «داس» إلى السيد «كاباسي» متسائلاً، فيما تريث برهة كي يضع فيلماً جديداً في آلة التصوير.

– «نحو نصف الساعة».

انصرف الأطفال عن منضدة الطعام لمشاهدة المزيد من القردة المجتمعين فوق شجرة قريبة، ومن ثمّ كانت هناك مسافة بين السيدة «داس» والسيد «كاباسي»، فوجّه السيد «داس» عدسة آلة التصوير تجاه وجهه والتقط لنفسه صورة وهو يغمض إحدى عينيه وأخرج لسانه من ركن فمه، ثم قال: «هذا يبدو مضحكاً يا مينا. والآن.. اقتربي قليلاً من السيد كاباسي».

وبالفعل اقتربت منه حتى اشتم رائحة بشرتها، فبدت له كمزيج من الخمر وماء الورد. وللحظة ساوره قلق من أن تشم هي رائحة عرقه الذي يعلم أنه قد تجمّع ولا شك أسفل قميصه ذي المادة الصناعية. ولكنه ابتلع عصير المانجو، ورتّب شعره الفضي بيديه؛ وعندما أسقط قطرة من العصير على ذقنه، تساءل عمّا إذا كانت السيدة« داس» قد لاحظتها.

لكنها لم تلاحظ، وتساءلت وهي تبحث عن شيء ما داخل حقيبتها القشيّة: «وأين تسكن سيد كاباسي؟»

– «هل تريدين عنواني؟»

«حتى نرسل إليك نسخة من الصور».. أجابت السيدة «داس»، ثم ناولته قطعة

Twitter: @ketab_n

من الورق انتزعتها بسرعة من صفحة في مجلة السينما التي كانت معها. كانت المساحة الشاغرة بالورقة محدودة جداً؛ فهي تزدحم بالسطور وصورة صغيرة لبطل وبطلة يتعانقان تحت شجرة «أوكالبتوس».

تكوّرت الورقة فيما كان السيد «كاباسي» يكتب عنوانه بحروف متأنية. لا شك في أنها سوف تكتب له، وتسأله عن أحواله في عمله في عيادة ذلك الطبيب، ولسوف يجيبها بلغة فصيحة، وسيختار أجمل الحكايات المسلية؛ تلك التي ستجعلها تضحك بصوت مرتفع وهي تقرؤها في بيتها في «نيو جيرسي». وبمضيّ الوقت، سوف تكشف له عن خيبة أملها في زواجها، تماماً مثلما سيفعل هو، ومن ثمّ ستزداد صداقتهما عمقاً وتزدهر. وبالطبع سوف يكون لديه صورتهما معاً وهما يأكلان البصل المقلي تحت تلك المظلة الأرجوانية، حيث قرر أن يحتفظ بتلك الصورة في أمان بين صفحات كتاب قواعد اللغة الروسية. وبينما تسارعت الأفكار في رأسه، شعر السيد «كاباسي» بصدمة خفيفة ممتعة، تشبه ذلك الشعور الذي اعتاد أن يختبره منذ زمن بعيد، عندما كان ـ بعد شهور من الترجمة بمساعدة القاموس ـ يجد أن بوسعه قراءة فقرة من رواية فرنسية أو قصيدة إيطالية، فيفهم مفرداتها، المفردة تلو الأخرى، من دون أن يضنيه في ذلك جهد. في تلك اللحظات، تذكر السيد «كاباسي» أنه اعتاد أن يعتقد أن كل الأشياء تسير بحكمة ما في هذا العالم، وأن لكل نضال مكافأة، وأن كل أخطاء الحياة تنتهي بمنطق واضح في نهاية الأمر. وأعاد إليه ذلك الوعد ـ الذي سمعه من السيدة «داس» بأنها سوف تراسله ـ ثقته في ذلك الاعتقاد، كأنه يتصالح مع العالم.

انتهى السيد «كاباسي» من تدوين عنوانه، وناولها الورقة، ولكن ما إن فعل ذلك، حتى انتابه قلق من أنه ربما قد أخطأ في تهجئة اسمه، أو ربما عكس بطريق الخطأ رمزه البريدي، بل أفزعته فكرة أن يكون قد أغفل حرفاً ما، فلا تصل إليه الصورة أبداً، وتضيع في مكان ما في «أوريسا"؛ مكان قريب ولكن الوصول إليه محال. وفكّر السيد «كاباسي» في أن يستعيد الورقة منها، فقط كي يتأكد من أنه قد كتب العنوان بدقة وعلى نحو صحيح، ولكن السيدة «داس» قد أسقطتها بالفعل في محتويات حقيبتها المبعثرة.

بحلول الثانية والنصف، وصل الجمع إلى «كونوراك»، حيث بدا المعبد ـ المصنوع من

Twitter: @ketab_n

الحجر الرملي - كياناً هائلاً على غرار هيكل الهرم، ويتخذ شكل مركبة حربية. كان بناء هذا المعبد إهداءً للشمس؛ صانعة الحياة الكبرى، والتي تضرب بأشعتها جوانب الصرح الثلاثة كل يوم في رحلتها عبر السماء. وعلى الجانبين الشمالي والجنوبي لقاعدة المعبد، توجد أربع وعشرون عجلة ضخمة منحوتة بدقة، والمعبد كله مرسوم على شكل مركبة تجرها مجموعة من سبعة أحصنة، تجري مسرعة وكأنها تعدو عبر السموات. شرح لهم السيد «كاباسي» - وهم يقتربون من ذلك الصرح - أن المعبد قد بُني في الفترة بين عامي 1243 و1255 بعد الميلاد، بجهد ألف ومئتين من الحرفيين، تحت إمرة الملك «ناراسيماديفا» الأول، الحاكم العظيم لإمبراطورية «جانجا»، ومن أسرة الملك ناراسيمهاديفا الأول، لتخليد ذكرى انتصاره على جيش المسلمين.

«يقال هنا إن المعبد يغطي مساحة تمتد نحو مائة وسبعين هكتاراً».. قال السيد «داس» وهو يقرأ كتابه.

«إنها مثل الصحراء».. قال «روني» وعيناه تتسعان بينما تجولان عبر الرمال المترامية على الأطراف كافة فيما وراء المعبد.

فقال السيد «كاباسي» وهو يوقف محرك السيارة: «ذات يوم كان نهر «تشاندرابهاجا» يمر على مسافة ميل إلى الشمال من هنا. لكنه جاف الآن».

خرج الجميع من السيارة وتوجهوا صوب المعبد؛ فتوقفوا أولاً لالتقاط الصور إلى جوار تمثالي الأسدين اللذين يحيطان بالممر، ثم قادهم السيد «كاباسي» إلى إحدى عجلات العربة المنحوتة بالمعبد، والتي يفوق ارتفاعها قامة إنسان، ويبلغ قطرها تسعة أقدام.

وشرع السيد «داس» يقرأ: «من المفترض أن هذه العجلات ترمز إلى عجلة الحياة. فهي تصوّر دورة الخلق، والبقاء، وتحقيق الهدف.. جميل!، ثم قلب صفحة الكتاب وتابع القراءة: «تنقسم كل من هذه العجلات إلى ثمانٍ من مكابح العربات السميكة والرقيقة، لتقسم اليوم إلى ثمانية أجزاء متساوية. أما الحافات فمنحوتة بتصميمات لطيور وحيوانات، بينما البروزات فوق مكابح العجلات فمنحوتة بنساء في أوضاع منمقة، تكاد تكون مثيرة إلى حد كبير».

ما أشار إليه كان عدداً لا يُحصى من الأفاريز المُضفّرة بأجساد عارية في عديد من

Twitter: @ketab_n

الأوضاع الحميمة؛ نساء متعلقات بأعناق الرجال، وقد التفت ركبهن إلى الأبد حول أفخاذ عشاقهن. إضافة إلى مشاهد متنوعة من الحياة اليومية؛ الصيد والتجارة، وقتل الغزلان بالأقواس والسهام، ومحاربين في مسيرتهم وهم يحملون السيوف في أيديهم.

لم يعد دخول المعبد بالأمر المتاح، بسبب الأنقاض التي ملأته منذ عدة سنوات، ولكن أبهرهم المشهد الخارجي، مثل كل السائحين الذين يصطحبهم السيد «كاباسي» لزيارة المعبد، فشرعوا يدورون حول كل جوانبه ببطء، ومن ورائهم السيد «داس» المنشغل بالتقاط الصور، بينما انطلق الأطفال إلى الأمام، وراحوا يشيرون بأصابعهم إلى الأجساد العارية، وقد أثار «ناجاميثيوس» فضولهم على نحو خاص؛ وهو تمثال لزوجين بنصفهما البشري والنصف الآخر ثعباني، ويُقال عنهما ـ كما أخبرهم السيد «كاباسي» ـ إنها يعيشان في أعماق مياه البحر. شعر السيد «كاباسي» بالسعادة لأن المعبد قد حاز إعجاب الأسرة، ناهيك عن سروره الخاص بإعجاب السيدة «داس»، التي شرعت تتوقف كل ثلاث أو أربع خطوات لتحدّق صامتة في العشّاق المنحوتين، ومواكب الأفيال وعازفات الموسيقى العاريات، وهن يضربن على الطبول ذات الوجهين.

وعلى الرغم من أن السيد «كاباسي» قد زار المعبد عدداً لا يُحصى من المرات، فإنه فكر هذه المرة وهو يحدّق بدوره في النساء العاريات أنه لم يرَ زوجته عارية تماماً أبداً، حتى وهما معاً في الفراش، كانت تستبقي طرفي بلوزتها معقودين معاً، وخيوط قميصها الداخلي القصير معقودة حول خصرها. كما لم يحدث أبداً أن أثار إعجابه ساقا زوجته من الجهة الخلفية على النحو الذي يشعره الآن تجاه ساقي السيدة «داس»، التي كانت تسير الآن بمفردها، كأنها تفعل ذلك له وحده. ولا شك في أن السيد «كاباسي» قد رأى العديد من السيقان العارية من قبل؛ لأمريكيات وأوروبيات يصطحبهن في تلك الجولات السياحية، إلا أن ثمة اختلافاً بالنسبة لدى السيدة «داس»؛ فعلى خلاف الأخريات اللاتي كن مهتمات بالمعبد فقط، ويدسسن أنوفهن في الكتب التوضيحية طوال الوقت، أو يُبقين عيونهن خلف عدسات آلات التصوير، كانت السيدة «داس» مهتمة بشأنه هو.

تطلع السيد «كاباسي» لقضاء بعض الوقت معها بمفرده؛ كي يتابعا حديثهما الخاص،

Twitter: @ketab_n

إلا أنه شعر بالتوتر من أن يسير إلى جوارها. أما هي، فكانت مختفية خلف نظارتها الشمسية، ومتجاهلةً إشارات زوجها لها كي تقف لالتقاط صورة أخرى، ومرّت إلى جوار أطفالها وكأنهم غرباء عنها. ولمّا ساور السيد «كاباسي» قلق من أنه قد يزعجها ببقائه خلفها، شرع يتخطاها كي يبدي إعجابه - كما يفعل دوماً - بالتماثيل البرونزية الثلاثة ذات الحجم الطبيعي التي تجسد إله الشمس الذي يُطلق عليه اسم «سوريا»، إذ يخرج كل منها من مشكاة في واجهة المعبد لتحية الشمس في أوقات الفجر، والظهيرة، والمساء. وفوق رؤوس التماثيل الثلاثة توجد أغطية فاخرة، وعيونها الواهنة المسحوبة مسبلة، بينما صدورها العارية مكسوة بالسلاسل والتمائم المحفورة. وتوجد أسفل أقدامها بألوانها الخضر والرمادية، بَتَلاَت نبات الخبيزة التي قدّمها لهم زائرون سابقون. أما التمثال الأخير، على الجدار الشمالي للمعبد، فهو التمثال المفضل لدى السيد «كاباسي»؛ فثمة مسحة من التعب والإرهاق كانت تعلو ملامح ذلك التجسيد للإله «سوريا»، كأنه مُنهك بعد يوم عمل شاق، وهو يجلس منفرج الساقين ممتطياً جواداً أرجله مطوية، وحتى عينا الفرس بدتا زائغتين. وحول جسده كانت منحوتات صغيرة لنساء متخذات شكل أزواج، وقد وجّهن أفخاذهن إلى أحد الجانبين.

«من هذا؟».. سألت السيدة «داس»، واندهش لرؤيتها تقف إلى جواره.

أجاب «كاباسي»: «إنه يُدعى استشالا سوريا؛ إله الغروب».

«أي أن الشمس ستغرب هنا بعد ساعتين، أليس كذلك؟».. سألته وهي تخرج إحدى قدميها من حذائها ذي الكعب المربع الشكل، ثم تحك أصابع تلك القدم في خلفية ساقها.

- «هذا صحيح»

رفعت السيدة «داس» نظارتها الشمسية لبرهة، ثم أعادتها وهي تقول: «مُتقَن».

لم يكن السنيد «كاباسي» متأكداً تماماً مما تعنيه الكلمة، لكنه شعر بأنها إجابة تنم عن استحسان منها، وتمنى أن تكون السيدة «داس» قد استوعبت جمال إله الشمس، وقوته. وفكّر في أنه ربما يُحدثها عنه أكثر في خطاباته لها، وسوف يشرح لها أشياءً كثيرة عن الهند،

Twitter: @ketab_n

ولسوف تخبره هي بأشياء عن أمريكا. فبطريقة ما، يشعر بأن هذه المراسلات سوف تحقق له حلمه بأن يعمل مترجماً بين الأمم. وكلما نظر إلى حقيبة القش الخاصة بالسيدة «داس»، انتابه شعور بالسعادة؛ لأن عنوانه يرقد هناك بين محتوياتها. وعندما تخيلها هناك؛ على مسافة آلاف الأميال، شعر بأن روحه تسقط بين قدميه، حتى إن رغبة عارمة في أن يضمها بين ذراعيه اجتاحته، وفي أن يستبقيها على هذا النحو حتى ولو للحظة، في عناق يشهده إله «سوريا»، ولكن السيدة «داس» سارت بعيداً عن التمثال المفضل لديه.

«ومتى تعودون إلى أمريكا؟».. سألها السيد «كاباسي»، وهو يحاول أن يبدو هادئاً.

– «بعد عشرة أيام».

شرع السيد «كاباسي» يحسب: أسبوع كي تستقر الأسرة بعد العودة، وأسبوع آخر لطبع الصور، وبضعة أيام لتكتب رسالتها الأولى له، وأسبوعان كي يحمل له البريد الجوي الرسالة إلى الهند. أي وفقاً لجدوله ـ بالأيام الاحتياطية التي أضافها ـ فإنه يتوقع أن تتواصل معه السيدة «داس» في غضون ستة أسابيع.

خيّم الصمت على الأسرة بينما كان السيد «كاباسي» يقودهم في طريق العودة إلى فندق «ساندي فيلا»، وأشارت الساعة إلى ما بعد الرابعة والنصف بقليل. وقبل عودتهم، ابتاع الأطفال نماذج جرانيتية مُصغرة من العجلات الحربية على سبيل التذكار، وراحوا يقلبونها بين أيديهم طوال الطريق، فيما تابع السيد «داس» قراءة كتابه، بينما حلّت السيدة داس شعر «تينا» الصغيرة، ثم مشطته بفرشاتها مقسّمة إياه إلى خصلتين معقودتين.

بدأ السيد «كاباسي» يخشى فكرة أن يتركهم ويمضي، فلم يكن مؤهلاً بعد لبدء فترة الأسابيع الستة كي يصله خطاب من السيدة «داس». استرق النظرات إليها في المرآة الخلفية، وهي تضع العصابة المرنة حول خصلة شعر «تينا»، واستغرق يفكر في طريقة ما يجعل بها هذه الرحلة تمتد لفترة أطول. في الجولات السابقة، عادةً ما كان يسارع بالعودة إلى «بوري» سالكاً طريقاً مختصراً، راغباً في العودة إلى المنزل، فيفرك قدميه ويديه بصابون خشب الصندل، ويستمتع بقضاء أمسيته بصحبة الجريدة وقدح من الشاي تعده زوجته وتقدمه له في صمت، وعلى الرغم من إذعانه منذ زمن بعيد لفكرة الصمت تلك، فإنها

Twitter: @ketab_n

صارت تحزنه الآن أشد الحزن. وفي تلك اللحظة، اقترح عليهم أن يذهبوا في زيارة للتلال في «أودايجيري» و«خانداجيري»، حيث العديد من منازل الرهبان منحوتة في الأرض، وتواجه بعضها عبر ممر ضيق. وأخبرهم السيد «كاباسي» بأنها تبعد عنهم بعض الأميال، ولكنها تستحق المشاهدة بالفعل.

أجابه السيد «داس»: «نعم، هناك شيء ما مذكور عن هذا المكان في هذا الكتاب؛ فقد بُني في عهد الملك «جاين» أو شيء كهذا».

فتوقف السيد «كاباسي» لبرهة لدى منعطف في الطريق وسأل: «هل نذهب إذاً؟.. إنه إلى اليسار من هنا».

استدار السيد «داس» لينظر إلى زوجته، وهزّ كل منهما كتفيه، فيما تعالى هتاف الأطفال: «نعم.. إلى اليسار.. إلى اليسار».

أدار السيد «كاباسي» عجلة القيادة وإحساسه بالارتياح يكاد يصيبه بالهذيان. لم يكن يعرف تحديداً ما سوف يفعله أو يقوله للسيدة «داس» لدى وصولهم إلى التلال. ربما يخبرها كم هي ساحرةٌ ابتسامتها؛ أو ربما يمتدح قميصها بلون حبّات الفراولة، والذي يجده لا يقاوَم بحق. وربما يمسك بيدها للحظة عندما ينشغل السيد «داس» بالتقاط إحدى صوره.

لم يكن ينبغي عليه أن يشعر بالقلق؛ فعندما وصلوا إلى التلال، التي يفصلها طريق شديد الانحدار وكثيف الأشجار، رفضت السيدة «داس» مغادرة السيارة. فعلى جانبي الطريق، جلست عشرات من القردة فوق الأحجار، وفوق فروع الأشجار، وأرجلها الخلفية تمتد إلى الأمام وترتفع إلى مستوى الكتف، بينما تستند أذرعها إلى ركبها.

فقالت، وهي تغوص في مقعدها بالسيارة: «ساقاي متعبتان؛ سأنتظر هنا».

فقال السيد «داس»: «ولم ارتديتِ هذا الحذاء السخيف؟ سنلتقط هكذا الصور من دونك!»

– «تصرّف كما لو أنني معكم إذاً».

– «ولكن ربما نستخدم إحدى هذه الصور لبطاقات عيد الميلاد هذا العام، فنحن لم

Twitter: @ketab_n

نلتقط صورة واحدة تجمعنا نحن الخمسة في معبد الشمس. وبوسع السيد «كاباسي» أن يلتقط لنا واحدة هنا».

– «لن آتي.. فهذه القردة تخيفني على أي حال».

«لكنها غير مؤذية».. قال السيد «داس»، ثم استدار تجاه السيد «كاباسي»، وسأله: «أليس كذلك؟»

– «إنها جائعة أكثر منها مؤذية، فلا داعي لاستفزازها بالطعام ولن تزعجكم».

توجّه السيد «داس» إلى الممر الضيق بصحبة الأطفال؛ الولدان إلى جانبه والبنت فوق كتفيه. أخذ السيد «كاباسي» يراقبهم وهم يعبرون الممر بصحبة رجل وامرأة من اليابان، حيث لم يكن هناك سائحون سواهما، وكانا قد توقفا لالتقاط صورة أخيرة، ثم دخلا سيارتهما وانطلقا مبتعدين. وما إن اختفت السيارة عن النظر، حتى أخذت بعض القردة تصيح وتطلق أصواتاً ناعمة كالهتاف، ثم شرعت تسير على أيديها وأرجلها السود المسطحة. وفي منطقة بعينها، اجتمعت مجموعة منها لتشكّل حلقة حول السيد «داس» والأطفال؛ فصاحت «تينا» في سرور، وركض «روني» يدور حول أبيه في دوائر، ثم انحنى «بوبي» والتقط عصا غليظة من فوق الأرض. وعندما مدّها إلى الأمام اقترب منه أحد القردة واختطفها منه، ثم راح يدق بها الأرض لبرهة.

قال السيد «كاباسي»، وهو يفتح باب السيارة إلى جواره: «سأنضم إليهم، فهناك الكثير الذي يجب توضيحه بشأن هذه الكهوف».

«كلا.. انتظر دقيقة».. قالت السيدة «داس»، ثم تركت المقعد الخلفي، وجلست بالمقعد إلى جوار السيد «كاباسي»، ثم أردفت قائلة: «لدى «راج» كتابه السخيف على أي حال». وراحا يرقبان معاً «بوبي» والقرد يمرر العصا إلى الأمام وإلى الخلف من بينهما.

«يا له من ولد صغير شجاع».. علق السيد «كاباسي».

أجابت السيدة «داس»: «لا غرابة في هذا».

– «ولم؟»

– «إنه ليس ابنه».

Twitter: @ketab_n

– «معذرة؟.. ماذا تقصدين؟»

– «أعني راج.. بوبي ليس ابناً لراج».

شعر السيد «كاباسي» بوخز في جلده، فقصد جيب قميصه ليلتقط علبة صغيرة من مرهم مسكن مصنوع من زيت نبات اللوتس، والتي يحملها معه دوماً، ومرره فوق ثلاث بقع في جبهته. أدرك أن السيدة «داس» تراقبه، ولكنه لم يستدر لمواجهتها، بل ظل يراقب السيد «داس» والأطفال وهم يتعدون في صعودهم ذلك الممر، ويتوقفون من آن إلى آخر لالتقاط صورة هنا وأخرى هناك، ويحيط بهم عدد متزايد من القردة.

– «هل يثير هذا دهشتك؟»

جعلته الطريقة التي سألته بها حريصاً على انتقاء كلماته.

«إنه شيء مختلف عمّا يفترضه المرء».. قال السيد «كاباسي» ببطء وهو يعيد علبة المرهم المسكن إلى جيبه.

«كلا بالطبع، وقطعاً لا أحد يعرف بالأمر.. لا أحد على الإطلاق. لقد أبقيت الأمر سراً طوال ثماني سنوات كاملة». ثم نظرت إلى السيد «كاباسي»، ومالت بذقنها كما لو أنها تنتهج موقفاً مغايراً، ثم أردفت: «ولكني أخبرتك بسري الآن».

أطرق السيد «كاباسي» وقد شعر بحلقه يجف فجأة، بينما جبهته دافئة ومتخدّرة قليلاً بفعل المرهم. وفكّر في أن يطلب من السيدة «داس» رشفة ماء، ثم قرّر ألا يفعل.

«لقد كنا صغيرين جداً حين تقابلنا أول مرة».. قالت السيدة «داس»، وهي تُدخل يدها في حقيبتها بحثاً عن شيء ما، ثم أخرجتها بعلبة الأرز، وسألته: «هل لك في بعض منه؟»

– «كلا.. شكراً لكِ».

وضعت السيدة «داس» حفنة من الأرز في فمها، واسترخت في المقعد قليلاً، وابتعدت بعينيها عن السيد «كاباسي»، وراحت تنظر من نافذة السيارة، ثم قالت: «تزوجنا ونحن لم نزل ندرس بالجامعة. كنا في المدرسة الثانوية حين تقدم لخطبتي، ثم التحقنا بالكلية ذاتها بالطبع. وقتها لم نكن نحتمل فكرة ابتعادنا عن بعضنا، ولو ليوم واحد، أو حتى دقيقة

Twitter: @ketab_n

واحدة. كانت تربط بين آبائنا صداقة وطيدة، وكانوا يعيشون في البلدة نفسها. طوال عمري وأنا أراه في عطلة نهاية الأسبوع؛ سواء في منزلنا أو منزلهم. كنا نصعد إلى غرف الطابق العلوي لنلعب معاً بينما آباؤنا يمزحون بشأن زواجنا. تخيل! لم يحدث أبداً أن أمسكوا بنا ونحن نفعل أي شيء، ولكنني أعتقد أن كل هذا كان بمثابة إعداد فحسب؛ أعني تلك الأشياء التي كنا نفعلها أيام الجمعة والسبت بينما آباؤنا يحتسون الشاي في الطابق السفلي.. بوسعي أن أخبرك قصصاً عن هذا، سيد كاباسي».

تابعت السيدة «داس» لتروي أنه نتيجةً لقضاء كل وقتها في الكلية مع «راج»، لم تستطع تكوين أي صداقات قوية. فلم يكن لديها من تثق به لتحكي له عن يوم صعب مرّت به، أو من تشاركه فكرة عابرة أو قلق من شيء ما. والآن يعيش والداها في النصف الآخر من العالم؛ لكنها لم تكن أبداً قريبة منهما على أية حال. وبعد زواجها في تلك السن الصغيرة، انشغلت تماماً، ثم جاء حملها في طفلها الأول بسرعة؛ ومن ثمّ الاعتناء به؛ وتدفئة زجاجات الحليب، واختبار درجة الحرارة على معصمها، بينما «راج» في عمله، يرتدي السراويل القطنية، ويدرّس تلاميذه أشياء عن الصخور والديناصورات. لم يبدُ لها «راج» أبداً غاضباً ولا متعجلاً، ولا ممتلئ الجسد مثلما أصبحت هي بعد الطفل الأول.

ولأنها غالباً ما تكون متعبة؛ اعتادت أن ترفض الدعوات التي كانت تتلقاها من صديقة أو اثنتين لها من دراستها بالجامعة لتناول طعام الغداء» أو التسوق في «مانهاتن». وأخيراً، انتهى الأمر بأن توقفت دعوات الأصدقاء لها، ومن ثمّ بقيت في المنزل وحدها طوال اليوم مع طفلها، تحيطها اللعب التي أصبحت كفخاخ تتعثر بها، متى مشت أو تجفل منها متى جلست، فأصبحت متعبة وغاضبة على نحو دائم. وبعد ولادة «روني»، كانوا يخرجون في أوقات قليلة، ولكن نادراً ما يجدون في هذا متعة. ولم يكن «راج» مكترثاً بهذا؛ كان يتطلع دوماً إلى العودة إلى المنزل بعد عمله في التدريس، فيشاهد التلفاز ويداعب «روني» في ركبته. ولكم شعرت بالغضب عندما أخبرها ذات يوم بأن صديقاً بنجابياً له ـ قابلته مرة واحدة ولا تتذكره ـ سوف يأتي للبقاء معهم لفترة أسبوع حتى ينتهي من بعض مقابلات التوظيف في منطقة «نيوبرونزويك».

ولقد انزرع «بوبي» في أحشائها في ظهيرة يوم من ذلك الأسبوع، فوق أريكة تناثرت

Twitter: @ketab_n

فوقها لعب «روني» المطاطية، إثر معرفة هذا الصديق بقبول إحدى شركات المستحضرات الدوائية في لندن تعيينه للعمل لديها؛ أما «روني» فكان يصرخ وقتها ويبكي ليتحرر من نقّالة الأطفال. لم يحدث أن قاومت عندما وضع صديق «راج» يده على ظهرها بينما كانت ذاهبة لإعداد قدح من القهوة، ثم اجتذبها ليضمها إلى حلّته الزرقاء المجعدة. وانتهى الأمر سريعاً، وفي صمت، وبحنكة لم يحدث أن شعرت بها من قبل، ومن دون تلك التعبيرات ذات المعاني والابتسامات التي يصر عليها «راج» بعد كل مرة. وفي اليوم التالي، أقلّ «راج» صديقه إلى مطار كينيدي الدولي. وهو الآن متزوج بفتاة بنجابية، ولم تزل الأسرة تعيش في «لندن»، وفي كل عام يتبادلان بطاقات أعياد الميلاد مع «راج» و«مينا»، فيرسل كل زوجين صور العائلة في ظرف. ولم يعرف ذلك الصديق أنه والد «بوبي».. ولن يعرف أبداً!

«معذرة سيدة داس، ولكن لمَ أطلعتِني على هذا الأمر؟».. سألها السيد «كاباسي» عندما توقفت أخيراً عن الكلام، وأدارت وجهها لتنظر إليه مرة أخرى.

– «بحق السماء.. هلا توقفت عن دعوتي بالسيدة داس؟ أنا لم أزل في الثامنة والعشرين من عمري، وقد يكون لديك أبناء في مثل سني».

«ليس تماماً».. وانزعج السيد «كاباسي» لفكرة أنها تتخذه بمثابة أب، وبدأ إحساسه بها ـ الذي جعله يتفقد انعكاس صورته في المرآة الخلفية وهو يقود السيارة ـ يخفت قليلاً.

«لقد أخبرتك لما تتمتع به من مواهب».. قالت وهي تعيد علبة الأرز إلى حقيبتها، حتى من دون أن تعيد غلق غطائها.

«لست أظنني أفهم ما تعنينه».. أجابها السيد «كاباسي»

– «ألا تفهم؟.. طوال ثماني سنوات لم أستطع أن أخبر أحداً من الأصدقاء بالأمر، وليس «راج» بالتأكيد، فهو حتى لا يرتاب في الأمر. إنه يعتقد أنني لم أزل أحبه. حسناً.. أليس هناك ما ترغب في قوله؟»

– «بشأن ماذا؟»

– «بشأن ما أخبرتك به.. بشأن سري، وهذا الإحساس البشع الذي أشعره حياله. لكم

Twitter: @ketab_n

هو رهيب أن أنظر إلى أطفالي والحال هكذا، ناهيك عن النظر إلى «راج». أحياناً تنتابني رغبة عنيفة في أن ألقي بالأشياء؛ ذات يوم شعرت برغبة عارمة في أن ألقي كل شيء خارج النافذة؛ التلفاز والأطفال وكل شيء. هل ترى في هذا أمراً غير صحي؟»

والتزم السيد «كاباسي» الصمت.

– «سيد كاباسي.. أليس هناك ما تقوله؟ كنت أعتقد أن هذا هو عملك».

– «عملي هو الجولات السياحية سيدة داس»

– «لست أعني هذا العمل.. أعني عملك الآخر مترجماً».

– «ولكن ليس لدينا عائق لغوي هنا.. فما حاجتك إلى مترجم؟»

– «لم يكن هذا ما عنيته، وإلا ما كنت أخبرتك أبداً. ألا تدرك ما يعني لي أن أخبرك بالأمر؟»

– «ماذا يعني؟»

– «يعني أنني متعبة من هذا الإحساس القاتل طول الوقت. ثماني سنوات وأنا أعيش هذا الألم يا سيد كاباسي. كنت آمل أن تساعدني كي أحيا بشكل أفضل؛ أن تقول الشيء المناسب، أو تقترح علاجاً ما».

نظر إليها السيد «كاباسي» وهي ترتدي تنورتها المزركشة وقميصها بلون الفراولة؛ امرأة دون الثلاثين من عمرها، لم تحب زوجها ولا أبناءها، بل فقدت إحساسها بالحياة بأسرها. لكن أحزنه اعترافها ذلك، بل أحزنه أكثر تفكيره في السيد «داس» وهو في أعلى التل؛ «تينا» متعلقة بكتفيه، ويلتقط صوراً لجحور الرهبان القديمة كي يريها لتلاميذه الأمريكيين، ولا يرتاب ولا يعي أن واحداً من ابنيه ليس ابنه في واقع الأمر. ولكم شعر السيد «كاباسي» بإهانة من أن تطلب منه السيدة «داس» أن يفسر لها سرها المبتذل التافه. لم تكن تشبه بأي حال هؤلاء المرضى الذين يفدون إلى عيادة الطبيب؛ هؤلاء اليائسين الذي يأتون بعيونهم الخالية من التعبير من قلة النوم، أو ضيق التنفس، أو عسر التبول ـ والأكثر ـ غير القادرين على التعبير عن آلامهم. وعلى الرغم من ذلك، فإن السيد «كاباسي» لم يزل يرى أنّ من واجبه مساعدة السيدة «داس». ربما يجدر به أن ينصحها بالاعتراف بالحقيقة

Twitter: @ketab_n

للسيد «داس»؛ سيخبرها بأن الصدق هو أفضل طريق، ولا شك في أن إخراج الأمر برمته من جوفها سوف يجعلها تشعر بتحسّن. وربما يقترح عليها أن يلعب دور الوسيط في هذا النقاش. ومن ثمّ قرر أن يبدأ بأكثر الأسئلة وضوحاً حتى يصل إلى قلب الحقيقة، فسألها: «هل حقاً ما تشعرين به هو الألم يا سيدة داس، أم أنه شعور بالذنب؟»

استدارت نحوه محدّقة، وزيت الخردل على شفتيها الورديتين. ثم فتحت فمها لتقول شيئاً ما، ولكن بدا وهي تحدّق في السيد «كاباسي» أن أمراً ما قد مرّ أمام عينيها، فتوقفت عن الحديث. سحقه هذا؛ وأدرك في هذه اللحظة أنه فقد أهميته تماماً لديها حتى إنه لم يعد حتى جديراً بالإهانة. فما كان منها إلا أن فتحت باب السيارة إلى جوارها وشرعت تسير صوب الممر، بخطوات مرتعدة قليلاً فوق الكعب الخشبي مربع الشكل، وهي تمد يدها داخل حقيبة القش لتلتهم حفنة من الأرز المُدخّن. سقطت حبّات الأرز من بين أصابعها تاركة أثراً متعرّجاً من خلفها، جعل أحد القردة يقفز من فوق الأشجار ويسعى خلف الحبات البيض القليلة. وبحثاً عن المزيد من هذا، شرع القرد يتبع السيدة «داس»، ثم انضم إليه آخرون، وسرعان ما أصبح نحو ستة قردة تجر أذيالها المخملية وراءها وهي تتبع السيدة «داس».

ترك السيد «كاباسي» السيارة، وأراد أن يصيح أو أن ينبهها بأي حال، ولكنه خشي أن تعلم أن القردة وراءها، فيصيبها هذا بالتوتر، فربما يختل توازنها، أو ربما تخطف القردة حقيبتها أو تشد شعرها. فبدأ يعدو صوب الممر متخذاً فرع شجرة وجده فوق الأرض كي يخيف به القردة ويبعدها. سارت السيدة «داس» تخطو في طريقها غافلة عن حبّات الأرز التي تسقط منها. وبالقرب من قمة المنحدر، وقبل مجموعة من جحور الرهبان المواجهة لعدد من الأعمدة الحجرية القصيرة، رأت السيد «داس» جاثياً على ركبتيه يضبط تركيز عدسة آلة التصوير، بينما الأطفال يقفون أسفل الممر، يختفون عن ناظريها تارة، وتارة يبزغون.

فصاحت بهم السيدة «داس»: «انتظروني.. أنا آتية».

أخذت «تينا» تقفز فرحاً وهي تقول: «أمي قادمة!»

«عظيم.. في الوقت المناسب! فلندعُ السيد كاباسي ليلتقط لنا صورة جماعية».. قال

Twitter: @ketab_n

السيد «داس» من دون أن يرفع عينيه.

أسرع السيد «كاباسي» خطاه وهو يلوّح بفرع الشجرة، فتزاحمت القردة في ابتعادها، وتفرقت في اتجاه آخر.

«أين بوبي؟».. سألت السيدة «داس» عندما توقفت.

رفع السيد «داس» رأسه عن آلة التصوير، وأردف إلى «روني» متسائلاً: «لست أدري.. أين بوبي؟»

هزّ «روني» كتفيه وقال: «كنت أظنه هنا».

كرّرت السيدة «داس» سؤالها محتدة: «أين هو؟.. ما خطبكم جميعاً؟»

شرع الجميع يصيحون باسم «بوبي» وهم ينتشرون أسفل الممر وأعلاه. ولأنهم كانوا يصيحون، لم يسمعوا صراخ الطفل في بادئ الأمر. وعندما وجدوه أسفل شجرة بعيدة بعض الشيء، ومجموعة من القردة تحيط به؛ ربما أكثر من عشرة قرود، تشد قميصه بأصابعها السود الطويلة. كان الأرز المدخن الذي أسقطته السيدة «داس» متناثراً أسفل قدميه، وأيدي القردة تنقّب عنه. كان الصبي صامتاً وقد تجمّد جسده من الخوف، والدموع تنهمر فوق وجهه المرعوب، وقدماه العاريتان متربتان ويعلوهما احمرار من الضربات التي ناوله إيّاها أحد القردة بالعصا التي أعطاه إياها من قبل.

صاحت «تينا»: «أبي.. القردة تضرب بوبي».

مسح السيد «داس» راحتيه في مقدمة بنطاله القصير، وفي غمرة توتره ضغط على مصراع آلة التصوير بطريق الخطأ، فأصدرت طنيناً مزعجاً من الفيلم المندفع؛ ما أثار القرود، فأخذ القرد الممسك بالعصا يزيد من الضربات التي يكيلها لـ «بوبي». «ماذا نفعل؟ ماذا لو بدؤوا الهجوم؟»

صرخت السيدة «داس» وقد لاحظت السيد «كاباسي» يقف على الجانب: «سيد كاباسي.. افعل شيئاً بحق السماء، أرجوك افعل شيئاً!»

أخذ السيد «كاباسي» فرع الشجرة وهشّ به القردة بعيداً، وأطلق صوتاً كالهسيس لتلك المتبقية منها، وهو يقفز على قدميه ليخيفها. وبالفعل، تراجعت القردة ببطء، في

Twitter: @ketab_n

إيقاع مدروس، وبانصياع ربما، لكنها لم تكن خائفة. التقط السيد «كاباسي» «بوبي» بين ذراعيه، وأخذه إلى حيث يقف أبواه وأخواه. وبينما كان يحمله، شعر برغبة في أن يهمس في أذنه بسر، لكن «بوبي» كان فزعاً ويرتجف من فرط الخوف، وقليل من الدماء ينزف من قدمه، من جرح أحدثته العصا. وعندما أعطاه لوالديه، شرع السيد «داس» بإزالة بعض الأوساخ عن قميص «بوبي»، وألبسه القبعة على الفور، فيما أخرجت السيدة «داس» من حقيبتها ضمادة وضعتها فوق جرح ركبته، وقدّم «روني» لأخيه علكة جديدة، وقال السيد «داس» وهو يربّت على رأسه: «إنه بخير.. إلا أنه خائف قليلاً، أليس كذلك يا بوبي؟»

«يا إلهي.. دعونا نذهب من هنا».. قالت السيدة «داس»، وأردفت وهي تضم يدها إلى صدرها: «هذا المكان يخيفني بحق».

«نعم.. فلنعد إلى الفندق بكل تأكيد».. قال السيد «داس» موافقاً إياها.

قالت السيدة «داس»: «بوبي المسكين.. تعال هنا للحظة، دع أمك تصفف لك شعرك». ومرة أخرى مدّت يدها إلى داخل حقيبتها لتخرج هذه المرة فرشاتها، وشرعت تمررها حول حواف القبعة. وبينما هي تُخرج الفرشاة، انزلقت قطعة الورق التي كتب عليها السيد «كاباسي»، وحملتها الرياح بعيداً. ولم يلاحظ أحد ما حدث سوى السيد «كاباسي»؛ ظل يراقب الورقة وهي ترتفع، فيحملها الهواء إلى أعلى وأعلى نحو الأشجار حيث كانت القردة قد عادت، وجلست تنظر بحزن إلى المشهد بالأسفل. راقب السيد «كاباسي» المشهد بدوره أيضاً، وهو يعرف أن هذه هي صورة عائلة «داس» التي سيحتفظ بها في ذهنه إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

حارسة الحيّ

لم تكن «بوري ما» ـ المشتغلة بكنس الدرج ـ قد نالت أي قسط من النوم طوال ليلتين، ومن ثمّ عمدت في الصباح قبل الليلة الثالثة إلى نفض الحشرات عن فراشها، ونفضت كذلك اللحاف مرة واحدة أسفل صناديق الخطابات حيث تعيش، ومرة أخرى لدى مدخل الزقاق؛ فتفرقت الغربان التي كانت تتغذى على قشور الخضروات منزعجةً في عدة اتجاهات مختلفة.

وفي رحلتها إلى سطح البناية عبر الطوابق الأربعة، وضعت «بوري ما» إحدى يديها فوق ركبتها التي عادة ما تتضخم في أول كل فصل مطير؛ ويعني ذلك أنها كانت تحمل الدلو، واللحاف، وحزمة القصب التي تستخدمها كالمقشة، تحت ذراع واحدة. أصبحت «بوري ما» تشعر في الآونة الأخيرة بأن الدرج بدا أكثر حدة؛ حتى إنها باتت تشعر بأن تسلق هذا الدرج أشبه بتسلق سلم بلا درج. كانت في الرابعة والستين من عمرها، وقد عقفت شعرها في عقدة لا يزيد حجمها على حجم ثمرة جوز الهند، وكانت تبدو ضئيلة من الأمام تماماً مثلما تبدو من الجانب.

في الواقع، كان الشيء الذي ظهر ثلاثي الأبعاد في «بوري ما» هو صوتها: هشاً من فرط الأحزان، لاذعاً كلبن متخثّر، ومدوياً بما يكفي لفصل لحم جوز الهند عن قشرته. وبصوتها هذا اعتادت «بوري ما» أن تذكر مرتين كل يوم ـ وهي تنظّف الدرج ـ تفاصيل محنتها وخسائرها التي تكبّدتها منذ ترحيلها من «كلكتا» بعد التقسيم. وكما تذكر دوماً؛ فإن الاضطرابات في ذلك الوقت قد فرّقت بينها وبين زوجها وبناتها الأربع، ومنزل من طابقين، وشجرة خشب الورد، وعدد من الصناديق لم تزل تحمل مفاتيح أقفالها ـ إلى جانب مدخرات حياتها ـ مربوطة بطرف الساري الهندي الذي ترتديه.

وبصرف النظر عمّا لاقته من متاعب، فإن الشيء الآخر الذي تحب «بوري ما» تأريخه

Twitter: @ketab_n

كان أفضل الأوقات التي مرّت بها. ومن ثمّ - بوصولها إلى عتبة الطابق الثاني - كانت بالفعل قد شغلت انتباه كل ساكني البناية بقائمة الطعام في ليلة حفل زفاف ابنتها الثالثة. «لقد زوّجناها لناظر مدرسة. فطهونا الأرز بماء الورد، ودعونا العمدة، وغسل الجميع أصابعهم في أواني القصدير».. تقول «بوري ما» وتتوقف لبرهة؛ إذ انقطعت أنفاسها، فتقوم بتعديل وضع الأشياء تحت إبطها، منتهزة في ذلك الفرصة أيضاً لتطارد صرصوراً كان بين أعمدة الدرابزين، ثم تستكمل قائلة: «كما طهونا الجمبري بزيت الخردل على البخار في أوراق الموز؛ كان شهياً فلم يتبق منه شيئ على الإطلاق. ولم يكن هذا يعد بذخاً بالنسبة إلينا؛ لقد كنا نأكل لحم الماعز مرتين كل أسبوع في بيتنا الذي يطل على بركة مليئة بالأسماك».

وبالوصول إلى ذلك الجزء من الحكاية، كانت «بوري ما» بدأت ترى الضوء النافذ من السطح منسلاً إلى الدرج. وعلى الرغم من أن الساعة كانت لا تزال تشير إلى الثامنة فحسب، فإن الشمس كانت من القوة بما يكفي لتدفئة آخر الدرجات الإسمنتية أسفل قدمها. كانت تلك بناية عتيقة، من ذلك الطراز حيث مياه الاستحمام التي تُحفظ في براميل، والنوافذ بلا زجاج، وسقّالات المراحيض مصنوعة من الطوب.

«ثم جاء رجل ليقطف لنا البلح والجوافة، ورجل آخر لتقليم الكركديه. نعم، هناك عرفت طعم الحياة، بينما هنا أتناول العشاء من وعاء الأرز»، ولدى هذه النقطة من الحكاية بدأت أذنا «بوري ما» تحترقان؛ كان الألم مستشرياً في ركبتها المتورمة. «هل ذكرت أنني عبرت الحدود وليس لدي سوى سوارين حول معصمي؟ رغم أن قدميّ لم تمسّا في يوم ما سوى الرخام. صدقوني أو لا تصدقوا، لا يمكنكم حتى أن تحلموا بمثل تلك الرفاهية التي كنت أنعم بها».

أما عن صحة ابتهالات «بوري ما» تلك، فلم يكن هناك برهان قاطع؛ ربما سوى أن بعد مساحة الحدود الخارجية السابق بدا وكأنه يتضاعف كل يوم، تماماً مثل محتويات صناديقها المصنوعة من خشب الورد وخزانتها. لم يساور أحداً شكٌّ في أنها لاجئة؛ فاللهجة البنغالية جعلت من ذلك أمراً واضحاً. إلا أن هذا لم يساعد قاطني هذه البناية

Twitter: @ketab_n

السكنية على استيعاب ادعاءات «بوري ما» فيما يتعلق بثرواتها السابقة، ناهيك عن روايتها بشأن عبورها حدود البنغال الشرقية، مع آلاف آخرين، فوق ظهر شاحنة، بين أكوام من أكياس القنّب. ولكن «بوري ما» أصرت في أيام أخرى على أنها قد أتت إلى «كلكتا» فوق عربة تجرها العجول.

«هل كانت شاحنة أم عربة تجرها العجول تلك التي أتيتِ فوقها؟».. سألها الأطفال في بعض الأحيان وهم في طريقهم إلى لعبة العسكر واللصوص في الزقاق. فتجيبهم «بوري ما» وهي تهز الطرف المفتوح للساري الهندي الذي ترتديه فيعلو رنين مفاتيحها، قائلة: «وما أهمية التفاصيل؟ ما جدوى نزع الليمون من لحاء التِّنْبول[1]؟ صدّقوني أو لا تصدّقوا.. بحياتي أحزان لا يمكنكم حتى الحُلم بها».

وهكذا شوهت «بوري ما» الحقائق، وناقضت نفسها، وزخرفت وزينت كل الأشياء تقريباً. ولكن بدت أحاديثها الصاخبة شديدة الإقناع، وحنقها حياً ينبض؛ فلم يكن من السهولة بمكان إغفالها أو تجنبها.

أي مالكة عقار هذه ينتهي بها الأمر إلى تنظيف الدرج؟.. هكذا يتساءل السيد «دال» ـ الساكن بالطابق الثالث ـ كلما مرّ بها في طريق عودته من مكتبه؛ حيث يحتفظ بإيصالات الاستلام الخاصة بموزعي تجارة الجملة للأنابيب المطاطية، والمواسير، والصمامات، في منطقة السباكة في «شارع كوليديج». أما الظن الذي اجتمعت عليه معظم الزوجات فهو احتمال أن «بوري ما» بروايتها تلك الحكايا؛ كانت تنعى لنفسها فقدان أسرتها.

«إن فم «بوري ما» ممتلئ بالرماد، ولكنها ضحية تقلّب الأزمان».. جملة كررها السيد «تشاترجي»، الذي لم يترك شرفته، ولم يقرأ جريدة منذ الاستقلال، ولكن على الرغم من هذه الحقيقة ـ أو ربما بسببها ـ فإن آراءه كانت دائماً رفيعة المستوى.

في النهاية أصبحت النظرية الشائعة هي أن «بوري ما» كانت تعمل أجيرةً لدى صاحب أرض ثري في الشرق، ولذلك فهي قادرة على المبالغة بشأن ماضيها بكل ذلك الإسهاب والاستعراض. ولم ينطلِ خداعها الأجش على أحد، بل أجمعوا على أنها مسلية

1–التِّنْبول Betel: نبات متسلق. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

بحق. وفي مقابل سكنها أسفل صناديق البريد، كانت «بوري ما» تُحافظ على الدرج الملتوي للبناية نظيفاً تماماً. والأهم هو أن السكان كانوا يحبون «بوري ما» التي تنام كل ليلة خلف البوابة الآيلة للسقوط، فهي بمثابة حارس يحول بينهم وبين العالم الخارجي.

ولم يكن لدى أي من قاطني تلك البناية السكنية بالتحديد ما يستحق السرقة. فالأرملة التي تعيش في الطابق الثاني ـ السيدة «ميزرا» ـ كانت الوحيدة التي لديها هاتف بمنزلها. إلا أن السكان شعروا بالامتنان نحو «بوري ما»؛ لما تمارسه من أنشطة حراسة في الزقاق؛ فهي تراقب الباعة المتجولين الذين يترددون على المكان، ويتنقلون من باب إلى آخر لبيع الأمشاط والشالات، وبوسعها استدعاء أي من عربات اليد في لحظة واحدة، وببضع صفعات من مكنستها تطرد أي مشبوه يأتي إلى المنطقة ليبصق أو يبول أو يتسبب في أي مشكلة أخرى.

باختصار، أصبحت الخدمات التي تقدمها «بوري ما» بمضي السنوات تشبه مهام الحارس بحق. وعلى الرغم من أن تلك لم تكن أبداً وظيفة لامرأة بأي حال، فإنها تحمّلت المسؤولية، وحافظت على يقظة لا تقل كفاءة عمّا لو كانت حارسة بوابة منزل يقع على الطريق الدائري السفلي، أو حديقة «جودبور»، أو أي منطقة مجاورة أخرى تخطر على البال.

اعتادت «بوري ما» أن تعلّق لحافها على سطح البناية فوق حبل الغسيل، الذي يمتد مائلاً من أحد أركان السور إلى الركن الآخر، فيمتد عبر رؤيتها لهوائيات أجهزة التلفاز، ولوحات الإعلانات، والأقواس البعيدة لجسر «هاروه». فكانت «بوري ما» ترى الأفق من الجوانب الأربعة، ثم تدير الصنبور في قاع الحوض، لتغسل وجهها، وتنظف قدميها، وتفرك أسنانها باثنتين من أصابعها، وبعدها تضرب اللحاف من جانبيه بمقشتها، ثم تتوقف بين هنيهة وأخرى لتحدّق فيه علّها تقف على المتسبب في أرقها ليلاً. كانت «بوري ما» مستغرقة تماماً في ما تفعل، حتى مضت بضع ثوان قبل أن تلاحظ أن السيدة «دال» ـ الساكنة بالطابق الثالث ـ قد أتت لوضع صينية من قشر الليمون المملح فوق السطح بغية تجفيفه.

Twitter: @ketab_n

«أياً كان ما بداخل هذا اللحاف، فهو يقيني مستيقظة طوال الليل. أخبريني أين ترينهم؟».. قالت «بوري ما».

كانت السيدة «دال» تميل بعض الشيء إلى «بوري ما»، فتعطيها من وقت إلى آخر معجون الزنجبيل ليضيف نكهة إلى الوجبات التي تطهوها. «لستُ أرى شيئاً».. أجابتها السيدة «دال» بعد برهة، وكان جفناها يبدوان شفّافين، وأصابع قدميها رقيقة للغاية، وقد وضعت حولها خواتم للزينة.

«إذاً، لابد من أن يكون لهم أجنحة».. قالت «بوري ما» وكأنها قد توصلت إلى استنتاج ما، ثم وضعت مقشتها، وراحت ترقب سحابة كانت تمر وراء أخرى، وأردفت قائلة: «إنهم يطيرون قبل أن أتمكّن من سحقهم. ولكن ما إن أدير لهم ظهري.. أراهن على أن ظهري ملتهب بسبب لدغاتهم».

رفعت السيدة «دال» ثنية ثوب «بوري ما» الهندي؛ قطعة من النسيج الأبيض زهيد الثمن وحدودها تشبه في لونها لون بِرْكَة قذرة، ثم شرعت تتفحص جلدها أعلى وأسفل بلوزتها المُفصّلة على طراز لم يعد يُباع في الأسواق. ثم قالت: «بوري ما.. إنكِ تتخيلين أشياء ولا شك».

– «أقول لكِ إن هذه المخلوقات الصغيرة تلتهمني حيّة».

«ربما كان طفحاً جلدياً بسبب حرارة الطقس».. قالت السيدة «دال» مقترحة، فهزّت «بوري ما» ذيل ثوبها حتى اهتزت سلسلة مفاتيحها محدثةً صوت الخشخشة المألوف، وقالت: «أنا أعرف كيف يكون الطفح الجلدي بسبب الطقس الحار، وهذه ليست كذلك. لم أحظَ بقسط من النوم طوال الأيام الثلاثة أو الأربعة الماضية. وربما أكثر.. لقد كان لديّ فراش نظيف، وبياضات قطنية. صدّقيني أو لا تصدّقي.. حتى الناموسيات لدينا كانت ناعمة كالحرير. رفاهية لا تأتيكِ حتى في أحلامك».

«لا تأتيني حتى في أحلامي».. رددت السيدة «دال» وهي تغمض جفنيها الشفّافين وتطلق تنهيدة، ثم استأنفت قائلة: «بل لا أستطيع أن أحلم بها يا دوري ما. فأنا أعيش في غرفتين محطّمتين، ومتزوجة برجل يبيع قطع غيار المراحيض». ثم استدارت مبتعدة

Twitter: @ketab_n

ونظرت إلى أحد الألحفة، ومررت أصبعها فوق جزء من خيط حياكته، ثم سألت:

– «بوري ما.. منذ متى وأنتِ تنامين فوق هذا الفراش؟»

وضعت «بوري ما» أصبعها فوق فمها وشرعت تفكر لبرهة، وتعذّر عليها أن تتذكر.

– «لماذا إذاً لم تتحدثي عنه أبداً حتى اليوم؟ هل تظنين أنه يصعب علينا تزويدك بلحاف نظيف ومُشمّع لهذا الأمر؟»، وبدت وكأنها تشعر بإهانة.

– «ليس هناك حاجة إلى هذا. فهذه الألحفة نظيفة الآن بعد أن نفّضتها بمقشتي».

«اسمعي.. لن أناقش معكِ هذا الأمر. أنتِ بحاجة إلى فراش جديد. لحاف ووسادة، وبطانية حينما يأتي الشتاء»، وفي أثناء حديثها كانت السيدة «دال» تمس أطراف أصابعها الأربع بإبهامها، فتعد كل تلك الأشياء المهمة اللازمة.

«في أيام الاحتفالات، كان الفقراء يأتون إلى منزلنا لإطعامهم».. قالت «بوري ما» وهي تملأ دلوها من كومة الفحم الموضوعة على الجانب الآخر من السطح.

«سوف أتحدث إلى السيد دال عندما يعود من المكتب».. أخبرتها السيدة «دال» وهي تقصد الدرج، وأضافت: «تعالي في المساء؛ سأعطيكِ بعض الأحماض العلاجية ومسحوقاً لظهرك».

– «إنها ليست وخزات من حرارة الطقس».

صحيح أن الطفح الجلدي كان شائعاً في أثناء الفصل المطير، ولكن «بوري ما» فضلت أن تصدّق أن ما يثير فراشها، ويحرمها النوم، ويلهب جلدها وفروة رأسها مثل الفلفل، لم يكن شيئاً محسوساً.

ظلّت «بوري ما» تفكّر في هذه الأشياء وهي تنظف الدرج ـ دائماً ما تبدأ السلم من أعلاه وحتى أسفله ـ وعندما بدأت السماء تمطر، راحت تركض عبر السطح كطفل يرتدي نعلين كبيرين، وأخذت تدفع قشر الليمون الخاص بالسيدة «دال» في مزراب الأمطار. وقبل أن يستطيع المشاة فتح مظلاتهم، انهمرت الأمطار فوق ياقاتهم، وجيوبهم، وأحذيتهم. ففي هذه البناية السكنية تحديداً، وكل البنايات المجاورة لها، كانت مصاريع الأبواب مغلقة ومقيّدة بالستائر إلى قضبان النوافذ.

Twitter: @ketab_n

في ذلك الوقت كانت «بوري ما» تعمل فوق الدرج في طريقها إلى الطابق الثاني. ولما رفعت عينيها أعلى الدرج الذي يشبه السُلّم، وأدركت صوت الأمطار من حولها، أدركت أن ألحفتها لابد من أن تكون قد تحوّلت إلى ما يشبه اللبن الرائب!

ولكنها تذكرت حديثها مع السيدة «دال»، فتابعت ـ بالسرعة ذاتها ـ كنس بقية الدرج من الأتربة، وأعقاب السجائر، وبقايا الأغلفة، حتى وصلت إلى صناديق البريد بالأسفل. وحتى تحول دون وصول الرياح إليها؛ راحت تفتش بين سلالها عن بعض ورق الجرائد، فجمّعته وسدّت به الفتحات التي تتخذ شكل حبات الماس في البوابة المتهاوية. وفوق سلة الفحم وضعت طعام غدائها لتسخينه، وراحت ترقب اللهب وبيدها مروحة يد مضفّرة.

في ذلك المساء ـ كعادتها ـ عقفت «بوري ما» شعرها مرة أخرى، وفكّت طرف ثوبها الفضفاض، وأخذت تعد مدخراتها. كانت قد أفاقت لتوها من غفوة لم تستغرق أكثر من عشرين دقيقة، قضتها فوق فراش مؤقت من ورق الجرائد. وأخيراً توقفت الأمطار، وانبعثت الرائحة العفنة من أوراق المانجو المبللة المعلقة على ارتفاع منخفض فوق الحي.

في بعض الأمسيات عمدت «بوري ما» إلى زيارة جيرانها، لتستمتع بالتسكع هنا وهناك بين العائلات. ومن جانبهم، كان السكّان يؤكدون أنها دائماً محل ترحابهم؛ ولم يسدلوا أبداً مقابض أبوابهم إلا حينما يحل الليل؛ فكانوا يقضون النهار في أعمالهم، أو يعنّفون أبناءهم، أو يزيدون من نفقاتهم، أو يلتقطون الحصى من أرز المساء. ومن وقت إلى آخر كان هناك من يناولها قدحاً من الشاي، أو تمر بها علبة الفطائر، أو تساعد هي الأطفال على رمي الكرة على طاولة اللعب. ولأنها تعرف أنه لا يجدر بها الجلوس فوق قطع الأثاث، كانت «بوري ما» تجلس القرفصاء في مداخل الأبواب والممرات، وتراقب لفتات وسلوكيات الآخرين، تماماً كشخص يراقب حركة المرور في مدينة غريبة.

وفي مساء ذلك اليوم على وجه التحديد، قررت «بوري ما» قبول دعوة السيدة «دال». كان ظهرها لم يزل يخزها حتى بعد تلك الغفوة القصيرة التي أخذتها فوق ورق الجرائد، وأضحت بحاجة إلى مسحوق الطفح الجلدي في آخر الأمر. فما كان منها إلا أن

Twitter: @ketab_n

التقطت مقشتها ـ فما كانت تشعر بذاتها إلا وهي معها ـ وكانت على وشك ارتقاء الدرج عندما ألفت عربة يد تقف أمام البوابة المتهالكة.

كان ذلك السيد «دال» الذي تركت سنوات قضاها في إيداع الإيصالات هالات أرجوانية حول عينيه؛ لكنه اليوم بدا لامع العينين، ويداعب أسنانه بطرف لسانه، وهو يحمل حوضين صغيرين من السيراميك.

«بوري ما، لديّ عمل لكِ. ساعديني على حمل هذين الحوضين إلى أعلى».. قال السيد «دال» وهو يضغط بمنديله فوق جبهته ويمسح عنقه، فيما يناول سائق العربة قطعة معدنية نقدية، ثم حمل بعدها الحوضين بمساعدة «بوري ما» حتى الطابق الثالث. وأخيراً، عندما أصبحا داخل الشقة، أعلن السيد «دال» خبراً ما لزوجته و«بوري ما»، وآخرين من السكان الذين تبعوهما يحدوهم فضول؛ فأخبرهم بأن ساعاته التي يقضيها في إيداع إيصالات توزيع الأنابيب المطاطية، والمواسير، ومثبتات الصمامات، قد انتهت، وأن الموزّع نفسه، التوّاق إلى الهواء النقي، والذي تضاعفت أرباحه، افتتح فرعاً ثانياً في «بيردوان»، وأنه عقب تقييم لأدائه المخلص على مر السنوات، منحه ترقية أصبح السيد «دال» بمقتضاها مديراً لفرع شارع كوليديج». وفي غمار إثارته، وبينما يمر في عودته إلى المنزل بمنطقة السباكة، اشترى السيد «دال» هذين الحوضين.

«ولكن ماذا سنفعل بهذين الحوضين في شقة من غرفتين؟».. سألته السيدة «دال» وهي بالفعل منكبة فوق قشور الليمون، مقطّبة الجبين، ثم أردفت: «هل سمع أحد بمثل هذا الأمر من قبل؟ أنا لم أزل أطهو الطعام فوق موقد الكيروسين، وأنت ترفض أن تبتاع لنا هاتفاً، بل لم أزل أنتظر الثلاجة التي وعدتني بها إبّان زواجنا. هل تتوقع أن يعوضني الحوضان عن كل هذا؟»

وارتفع صوت النقاش الحاد الذي تلا ذلك ليصل حتى إلى صناديق البريد بالأسفل. كان مرتفع الصوت، وطويلاً بما يكفي أن يعلو فوق سقوط آخر للأمطار حلّ بعد أن أسدل الظلام ستائره. كان مرتفعاً لدرجة تشويش «بوري ما» وهي تنظف الدرج من أعلى إلى أسفل للمرة الثانية في ذلك اليوم؛ ولهذا السبب لم تتحدث عن أحزانها ولا أفراحها. وقضت «بوري ما» ليلتها تلك فوق فراش من ورق الجرائد.

Twitter: @ketab_n

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، كان الجدال بين الزوجين «دال» لم يزل قائماً على نحو ما؛ عندما أتى فريق من العمال الحفاة لتركيب الحوضين. وبعد ليلة من الشد والجذب، قرر السيد «دال» تركيب أحد الحوضين في غرفة المعيشة بشقتهما، والآخر على جدار الدرج، في عتبة الطابق الأول من البناية، «فهذا للجميع كي يستخدموه»، هكذا أخبر الجميع. وبالطبع أسعد هذا كل ساكني البناية؛ سنوات وهم يغسلون أسنانهم بماء مختزن يسكبونه من الأكواب.

أما السيد «دال»، فكان يفكر: لاشك في أن حوضاً في مدخل البناية سوف يثير إعجاب الزائرين. فالآن وقد أصبح مديراً لشركة، من يدري من قد يزور البناية؟

طفق طاقم العمّال يعمل عدة ساعات؛ فيصعدون ويهبطون الدرج، ويتناولون وجباتهم وهم يجلسون القرفصاء مستندين إلى درابزين السلّم. وكانوا يدقون بالمطارق، ويصيحون، ويبصقون، ويجفّفون عرق جباههم بأطراف عماماتهم. ومن ثمّ، كان من المستحيل، بشكل عام، أن تنظف «بوري ما» الدرج في ذلك اليوم.

ولشغل الوقت، تراجعت «بوري ما» إلى سطح البناية. جرت قدميها بطول السور، ولكن فخذيها كانا يؤلمانها من النوم فوق ورق الجرائد. وبعد أن أدارت عينيها في جوانب الأفق الأربعة، عمدت إلى تمزيق ما تبقّى لها من ألحفتها إلى شرائط عديدة، واعتزمت أن تقوم بتلميع أعمدة الدرابزين في وقت لاحق.

وفي وقت مبكر من المساء، اجتمع السكّان ليشيدوا بنتائج عمل ذلك اليوم، وحتى «بوري ما» استحثوها على غسل يديها تحت الماء الجاري. فقالت مزدرية: «كان ماؤنا مُعطّراً بالزهر والبتلات. صدّقوني أو لا تصدّقوا.. كان ذلك ترفاً لا يتأتّى لكم حتى في أحلامكم».

أما السيد «دال» فتابع حديثه بشأن محاسن وفضائل ذلك الحوض، وهو يدير كل صنبور من أقصاه إلى أقصاه، قبل أن يفتحهما معاً عن آخرهما، كي يوضح للجميع الفرق في ضغط المياه. أما الرافعة الصغيرة بين الصنبورين فتسمح بجمع المياه في الحوض، عند الرغبة في ذلك.

ثم أنهى حديثه قائلاً: «أعلى درجات الرفاهية».

Twitter: @ketab_n

«بل علامة أكيدة على تغير الأزمان».. قال السيد «تشاترجي» وهو يُعلن إعجابه من شرفته.

أما بين الزوجات، فسرعان ما شاع بينهن الاستياء؛ الوقوف في طابور كي يغسلن أسنانهن كل صباح، وكل منهن مفعمة بالإحباط لاضطرارها إلى انتظار دورها، وأنها مضطرة إلى تنظيف يد الصنبور بعد كل مرة تستخدم فيها الحوض، وأنها لا تستطيع ترك الصابون الخاص بها وفرشاة ومعجون أسنانها فوق الحوض الضيّق. أليس لدى أسرة السيد «دال» حوضهم الخاص، فلمَ ينبغي على كل الآخرين الاشتراك في حوض واحد؟. وأخيراً صاحت إحداهن ذات صباح: «ألا تستطيع كل منّا شراء حوض لنفسها؟»

وسألت أخرى: «هل يتعيّن على عائلة «دال» وحدها أن ترفع من شأن هذه البناية؟»

وبدأت الشائعات تنتشر؛ بأنه عقب الجدال الذي اندلع بين الزوجين «دال»، حاول الزوج أن يصلح الأمر مع زوجته بأن ابتاع لها لترين من زيت الخردل، وشالاً من الكشمير، ودستة من صابون عطر خشب الصندل؛ وأن السيد «دال» قد تقدّم بطلب للحصول على خط هاتفي؛ وأن السيدة «دال» لم تعد تفعل شيئاً طوال اليوم سوى غسل يديها في حوضها الخاص. وكأن هذا لم يكن كافياً؛ فعندما أتت سيارة أجرة إلى الحي في الصباح التالي، وعُرف أنها متوجهة إلى محطة «هوراه»، سرعان ما أُشيع أن عائلة «دال» في طريقها لقضاء عطلة عشرة أيام في «سيملا».

«بوري ما.. أنا لم أنسَ؛ سوف نجلب لكِ معنا بطانية شعر الماعز التي ينسجونها في الجبال».. قالت لها السيدة «دال» من نافذة سيارة الأجرة المفتوحة، وهي ممسكة بحافظة جلدية تضعها فوق ساقيها؛ تتسق مع طرف الساري الفيروزي اللون الذي ترتديه.

«سوف نجلب معنا اثنتين!».. قال السيد «دال» وهو يقف إلى جانب زوجته، ويفتش في جيوبه ليتأكد من وجود حافظة نقوده في مكانها.

من بين كل هؤلاء الذين كانوا يعيشون في تلك البناية السكنية على وجه التحديد؛ وقفت «بوري ما» وحدها إلى جوار البوابة المتهالكة لوداع السيد «دال» وزوجته، متمنيةً لهما رحلة طيبة.

وما إن ذهبت الأسرة، حتى شرعت الزوجات الأخريات في التخطيط للتجديدات

Twitter: @ketab_n

الخاصة بهن؛ فقررت إحداهن أن تقايض بكومة من أساور زفافها في مقابل غسّالة بيضاء لتنظيف جدران الدرج، بينما رهنت أخرى ماكينة الحياكة واستدعت مُبيداً للحشرات، وذهبت ثالثة إلى صائغ الفضة وباعت له مجموعة من أوعية البودينج، لطلاء مصاريع البوابة باللون الأصفر.

ومن ثمّ، بدأ العمّال يشغلون هذه البناية السكنية تحديداً، ليلاً ونهاراً. وحتى تتجنب زحام العمّال، انتقلت «بوري ما» للنوم فوق سطح البناية؛ فمع العديد من هؤلاء الذين يدخلون ويخرجون من البوابة، والكثيرين الذين يكتظ بهم الحي طوال الوقت، لم يعد هناك سبيل لتعقب الجميع.

بعد بضعة أيام، أخذت «بوري ما» سلالها وموقدها إلى السطح كذلك؛ لم تكن بحاجة إلى استخدام الحوض في مدخل البناية، فكان بوسعها الاغتسال بسهولة ـ كما اعتادت ـ من الوعاء، ولكنها اعتزمت تلميع قضبان الدرج بأشرطة اللحاف التي مزّقتها. واستمرت «بوري ما» في النوم على ورق الجرائد.

جادت الأمطار بالمزيد، وجلست «بوري ما» القرفصاء، أسفل المظلة المهلهلة، وبتلك الجريدة فوق رأسها، وهي تراقب أسراب النمل الموسمي التي تسير على حبل الغسيل، وتحمل البيض في أفواهها. وبينما كانت الرياح الرطبة تهدئ من لهيب ظهرها، كانت أوراق الجرائد تذوي.

باتت فترات صباح «بوري ما» طويلة، وأمسياتها أطول، ولم تتذكر المرة الأخيرة التي احتست فيها قدحاً من الشاي. ولم تعد تفكر في ما واجهته من صعاب، ولا في حياتها الأولى، وغدت تتساءل: متى يعود آل «دال» بفراشها الجديد.

أصبحت «بوري ما» لا تطيق بقاءها على السطح على هذا النحو، فشرعت ـ على سبيل المران ـ تقضي فترات بعد الظهيرة وهي تدور في الحي؛ تحمل مقشتها القصبية في يد، وثوبها الملطخ بحبر الجرائد، فتجوب الأسواق وتنفق مدّخراتها على وجبات الطعام الصغيرة: فاليوم علبة من الأرز المدخّن، وغداً بعض الكاجو، وفي اليوم التالي كوب من عصير قصب السكر. ثم حدث ذات يوم أن سارت حتى متجر الكتب في

Twitter: @ketab_n

شارع «كوليديج»، وفي اليوم التالي سارت إلى أبعد من هذا، فوصلت إلى أسواق «باو بازار». وهناك، وبينما هي تقف في ساحة أحد المتاجر تتأمل الفاكهة والثمار، شعرت بأن ثمة شيء يشد طرف ثوبها. وعندما نظرت «بوري ما»، كانت بقية مدخرات حياتها، وسلسلة مفاتيحها قد اختفت.

عادت «بوري ما» ذلك المساء، لتجد سكّان البناية في انتظارها لدى البوابة المتهالكة، والصيحات الحاقدة تسود أعلى الدرج وأدناه، كلها تردد الخبر ذاته: سُرق الحوض من مدخل البناية. وفي الجدار الذي تم تنظيفه حديثاً، كانت هناك فجوة كبيرة، تطل منها الأنابيب المطاطية والمواسير، وقطع الجص متناثرة فوق الأرض. وقفت «بوري ما» تقبض على مقشتها، ولم تتفوه بكلمة.

وفي عجالة، بدا القوم وكأنهم يحملون «بوري ما» فوق الدرج حتى السطح، حيث أجلسوها إلى الجانب جهة حبل الغسيل، وشرعوا يصرخون فيها من الجانب الآخر.

«هذا كله من فعلها، هي أخبرت اللصوص، وإلا فأين كانت بينما كان ينبغي أن تحرس البوابة؟».. صرخ أحدهم، وهو يشير إلى «بوري ما».

وقال آخر: «منذ أيام وهي تتجول في الشوارع وتتحدث إلى الغرباء»، وسأل ثالث: «لقد تركناها تشاركنا الفحم، وأعطيناها مكاناً لتنام فيه، فكيف لها أن تخوننا بهذا الشكل؟»

وعلى الرغم من أن أحداً لم يوجّه إليها حديثاً مباشراً، فإن «بوري ما» قالت: «صدّقوني أو لا تصدّقوا، أنا لم أخبر اللصوص»، فقالوا: «سنوات ونحن نحتمل أكاذيبك، فهل تتوقعين منّا أن نصدقكِ اليوم؟».

استمر الحشد في رشقها بالاتهامات. تُرى كيف سيخبرون آل «دال» بالأمر؟ وأخيراً فكّروا في استشارة السيد «تشاترجي» الذي وجدوه جالساً في شرفته يتأمل زحام المرور.

فقال أحد قاطني الطابق الثاني: «لقد عرّضت «بوري ما» هذه البناية للخطر؛ وجميعنا لديه أشياء ثمينة، كما أن السيدة «ميزرا» أرملة تعيش بمفردها مع هاتفها. فماذا نفعل؟»

Twitter: @ketab_n

شرع السيد «تشاترجي» يفكّر في حديثهم، ويعدّل من وضع الشال الذي يلفه حول كتفيه، ويحدّق في سقّالات الخيزران التي تحيط بشرفته. والمصاريع من خلفه قد تحوّل لونها إلى الأصفر بعد أن كانت بلا لون في الفترة التي يتذكرها، وأخيراً قال:

«صحيح أن فم «بوري ما» ممتلئ برماد السنين، لكن لا شيء جديداً في هذا. الجديد هنا هو وجه هذه البناية، وما تحتاج إليه بناية كهذه هو حارس بحق».

فما كان من السكان إلا أن دفعوا بسلالها وفُرُشها ومقشتها القصبية أسفل الدرج، إلى جوار صناديق البريد، وعبر البوابة المتهالكة، إلى الحي، ثم دفعوا «بوري ما» ذاتها. وجميعهم تحدوه رغبة في البحث عن حارس حقيقي.

من بين كل تلك المتعلقات، احتفظت بوري ما بمقشتها فحسب. وللمرة الأخيرة، بينما كان ظلّها يختفي في الأفق، كانت «بوري ما» تتمتم وهي تهز طرف ثوبها بلا رنين: «صدّقوني.. صدّقوني!»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

امرأة مثيرة

كان ذلك أسوأ كابوس يمكن لزوجة أن تمر به. فكما أخبرت «لاكسيمي» «ميراندا»، أنه بعد زواج دام تسعة أعوام؛ وقع زوج ابنة عمها في غرام امرأة أخرى، حدث أن جلس إلى جانبها على متن الطائرة في رحلته من «دلهي» إلى «مونتريال». وبدلاً من أن يعود إلى وطنه ـ حيث زوجته وابنه ـ رافق تلك المرأة إلى «هيثرو»، ثم اتصل بزوجته ليخبرها أن ثمة حدثاً ما قد غيّر حياته بالفعل، وأنه بحاجة إلى بعض الوقت لإعادة النظر في الأشياء. فلم تحتمل ابنة عم «لاكسيمي» وطأة هذا الأمر، ومرضت.

«لست ألومها».. قالت «لاكسيمي» وهي تمسك بشراب «الهوت ميكس» الذي ظلّت تتناوله طوال اليوم، والذي بدا لـ «ميراندا» أشبه بحبوب البرتقال المتربة. ثم أردفت «لاكسيمي» قائلة: «شيء لا يصدق! فتاة إنجليزية في نصف عمره تقريبا». كانت «لاكسيمي» تكبر «ميراندا» ببضعة أعوام فحسب، ولكنها متزوجة، ولديها صورة تجمعها وزوجها وهما يجلسان فوق حجر أبيض أمام «تاج محل»، احتفظت بها في الجزء الداخلي لمكتبها المجاور لمكتب «ميراندا». وكانت «لاكسيمي» قد أمضت نحو ساعة على الأقل تتحدث عبر الهاتف، في محاولة لتهدئة ابنة عمها، بيد أن أحداً لم يلاحظ؛ حيث كانتا تعملان في قسم تنمية الموارد بإحدى المحطات الإذاعية العامة، وحولهما أشخاص يقضون اليوم بأكمله في إجراء اتصالات هاتفية يستجدون الأموال.

قالت «لاكسيمي»: «أشعر بالأسى من أجل الطفل؛ فلم يمضِ على وجوده بالمنزل سوى بضعة أيام، وها قد أخبرتني ابنة عمي أنها لا تقوى حتى على توصيله إلى المدرسة».

«أمر صعب بحق!».. قالت «ميراندا»، وعادة ما كانت المحادثات التي تُجريها «لاكسيمي» عبر الهاتف ـ بالأساس مع زوجها حول ما ستطهوه في العشاء ـ تشتت انتباه «ميراندا» وهي تقوم بطباعة الخطابات، وتستحث أعضاء المحطة الإذاعية على

Twitter: @ketab_n

زيادة اشتراكاتهم السنوية في مقابل الحصول على حقيبة لحمل الأشياء أو شمسية. وكانت «ميراندا» تسمع بوضوح حديث «لاكسيمي» بعباراتها التي تفوح منها المفردات الهندية بين الحين والآخر. ولكن في تلك الظهيرة، لم تكن «ميراندا» منصتة إليها؛ فلقد كانت منخرطة في حديث تليفوني خاص بها مع «ديف»، ليتفقا على مكان مقابلتهما في وقت لاحق من تلك الأمسية.

«لن يستاء إذاً من قضاء بضعة أيام في منزله».. قالت «لاكسيمي» وهي ترتشف المزيد من شراب الهوت ميكس، ثم وضعته في أحد الأدراج، وأردفت: «إنه يتمتع بشيء من عبقرية؛ والدته بنجابية، ووالده بنغالي، ولأنه تعلم الفرنسية والإنجليزية في المدرسة، أصبح بالفعل يتحدث أربع لغات؛ بل أظنه تخطّى صفّين دراسيين».

كان «ديف» بنغالياً كذلك، وفي البداية ظنّت «ميراندا» أن البنغالية ديانة، ولكن «ديف» أوضح لها فيما بعد ـ على خريطة نشرتها مجلة «الاقتصادي» ـ أن هناك منطقة في الهند يُطلق عليها اسم «البنغال». وكان قد أحضر هذه المجلة خصيصاً إلى شقتها حيث لم يكن لديها أطلس أو أي كتب أخرى تحتوى على خرائط. وهكذا أوضح لها فوق الخريطة تلك المدينة التي وُلد فيها، والمدينة الأخرى التي وُلد فيها أبوه. واحدة من هاتين المدينتين على الخريطة كان يحيطها مربع بقصد جذب انتباه القارئ. وحينما سألت «ميراندا» عمّا يعنيه هذا المربع، لَفَّ «ديف» المجلة، وقال وهو ينقر بها رأس «ميراندا» مازحاً: «شيء لن يهمك أبداً».

وقبل أن يغادر شقتها، قذف «ديف» المجلة في سلة المهملات، ومعها أعقاب السجائر الثلاثة التي يدخنها دائماً في أثناء زيارته لها. لكنها بعد أن راقبت سيارته وهي تختفي صوب شارع «الكومونولث»، ليعود إلى منزله في الضواحي، حيث يسكن هو وزوجته، التقطت المجلة ثانية، ونظفتها من رماد السجائر الذي علق بغلافها، ولفتها في الاتجاه المعاكس كي تستوي، ثم أوت «ميراندا» إلى فراشها ـ ولم يزل جسدها منهكاً من جرّاء لقائهما الحميمي ـ وشرعت تدرس حدود البنغال؛ خليج جنوبها وجبال شمالها، وكانت تلك الخريطة ملحقة بمقالة حول شيء ما يُدعى «بنك جرامين». فقلبت «ميراندا» صفحة

Twitter: @ketab_n

المجلة وهي تتطلع للعثور على صورة للمدينة التي وُلد فيها «ديف»، إلا أنها لم تجد إلا الرسوم البيانية والمخططات التوضيحية. وعلى الرغم من ذلك راحت تحدّق في ما ترى وهي تفكر طوال الوقت في «ديف»؛ كيف أنه قبل ربع ساعة مضت فحسب كان يضع قدميها أعلى كتفيه، ويضغط صدرها بركبتيها، وهو يخبرها أنه لا يشبع منها أبداً.

التقت «ميراندا» بـ «ديف» قبل أسبوع في متجر «فيليني»؛ عندما ذهبت في أثناء فترة راحة الغداء إلى هناك كي تبتاع جوارب تحتية بأسعار مُخفّضة من معروضات الطابق السفلي، ثم توجهت صوب الدرج لتصعد إلى الجزء الرئيسي من المتجر؛ حيث قسم مستحضرات التجميل والكريمات ومستحضرات الصابون معروضة كالجواهر، وظلال الجفون والبودرة تبرق كفراشات معلّقة خلف الزجاج. وعلى الرغم من أن «ميراندا» لم تشترِ سوى أحمر الشفاه، فإنها استمتعت بالسير في تلك المتاهة الضيقة، والتي كانت تألفها أكثر من أي مكان آخر في «بوسطن». ولكم كانت تهوى تحويل مسارها بمحاذاة السيدات المنتشرات في كل مكان، وهن يعمدن إلى رش البطاقات الصغيرة بالعطور وتلويحها في الهواء؛ وأحياناً كانت تعثر على بطاقة مطوية في جيب معطفها بعد عدة أيام من مغادرتها المتجر، ولم تزل محتفظة بآثار العطر، فتشعر بالدفء بينما هي تنتظر حافلة المترو في صباح الأيام الباردة.

في ذلك اليوم، توقفت «ميراندا» لتشُم إحدى تلك البطاقات التي تُشعرها بالسرور، فلاحظت أن هناك رجلاً يقف لدى إحدى طاولات البيع، ويمسك بقطعة من الورق تحوى كلمات مكتوبة بخط أنثوي دقيق، فألقت البائعة نظرة على ما هو مكتوب فيها، وشرعت تفتح الأدراج، ثم قدّمت له قطعة من الصابون مستطيلة الشكل في علبة سوداء، وقناع الهيدرات المُرطب، وقنينة من قطرات تجديد الخلايا، وأنبوبتين من كريم الوجه. وكان للرجل بشرة سمراء، وشعر أسود بدا مرئياً فوق مفاصل أصابعه، وكان يرتدى قميصاً وردي اللون كطائر البشروش، وحلة داكنة زرقاء، ومعطفاً بنياً فاتحاً بلون الجمل، تزينه أزرار جلدية برّاقة. وكي يتمكن من دفع قيمة مشترياته، عمد إلى خلع قفازه المصنوع من جلد الخنزير، ثم ظهرت الأوراق النقدية من محفظته خمرية اللون؛ ولم يكن يضع في أصبعه خاتم زواج.

Twitter: @ketab_n

«كيف أساعدكِ يا عزيزتي؟».. سألت البائعة «ميراندا»، وهي تنظر إليها من فوق نظارتها التي اتخذت شكل ظهر السلحفاة، في محاولة لتحديد نوع بشرة «ميراندا».

ولم تكن «ميراندا» تعلم تحديداً ما تريد؛ فكل ما كانت تعرفه أنها تود لو ظل هذا الرجل أمام عينيها ولا يذهب أبداً. أما هو، فبدا منتظراً ـ تماماً كالبائعة ـ أن تقول «ميراندا» شيئاً. فما كان منها إلا أن حدّقت في بعض القناني ـ القصيرة منها والطويلة ـ المُصطفة فوق رف بيضاوي في مشهد يشبه عائلة تتخذ وضعاً ما لالتقاط صورة.

وأخيراً قالت «ميراندا»: «أريد كريماً ..»

– «كم عمركِ؟»

– «اثنان وعشرون عاماً»

أومأت البائعة، وفتحت علبة جامدة المحتوى، ثم قالت: «ربما يبدو هذا أثقل قليلاً مما اعتدتِ استخدامه، ولكني أفضّل أن تبدئي استخدامه الآن، فالتجاعيد تبدأ بالتكوُّن في سن الخامسة والعشرين، ثم تبدأ الظهور بعدها».

وبينما البائعة تمرر الكريم برفق فوق وجه «ميراندا»، وقف الرجل يراقب ما يحدث. وبينما كانت البائعة تخبر «ميراندا» بالطريقة المناسبة لوضع ذلك الكريم؛ في حركات متكررة رشيقة من أسفل إلى أعلى بدءاً بقاعدة الحلْق، أسقط الرجل حاوية أحمر الشفاه، وضغط على أنبوب أطلق الجِل «الهلام»، فشرع بتدليك ما سقط منه فوق ظهر يده المتحررة من القفاز، وفتح عبوة كريم، واقترب منها بوجهه حتى علقت نقطة من الكريم بأنفه.

وابتسمت «ميراندا»، ولكن ثغرها كان مختفياً وراء فرشاة ضخمة تمررها البائعة فوق وجهها، وهي تقول: «هذا أحمر خدود رقم اثنين .. سوف يمنح وجهك بعض اللون».

أومأت «ميراندا» وهي تنظر إلى انعكاس وجهها في مرآة ركنية كانت بجانب منضدة العرض. كانت عيناها فضيتي اللون، ووجهها شاحباً كورقة، على النقيض من شعرها بلونه الأسود اللامع مثل حبات القهوة؛ الأمر الذي جعل البعض يصفونها بأنها مدهشة، إن لم تكن جميلة بحق. كان رأسها نحيلاً، بيضاوي الشكل، وبدا شامخاً على نحو واضح. كما كانت ملامحها دقيقة، وثقبا أنفها ضيقين كما لو أن ملقط غسيل يضغط عليهما. والآن،

Twitter: @ketab_n

كان وجهها متوهجاً، ووجنتاها متوردتان، والظل أسفل حاجبيها في لون الدخان. أما شفتاها، فكانتا تبرقان.

نظر الرجل في المرآة أيضاً، فأسرع يمسح الكريم من فوق أنفه، بينما تساءلت «ميراندا» من أي بلد عساه قد أتى؛ أسبانيا أم لبنان؟ وعندما فتح عبوة أخرى، قال من دون أن يوجه كلامه إلى شخص بعينه «هذه تفوح منها رائحة الأناناس»، لاحظت «ميراندا» فقط تلك اللهجة المختلفة في حديثه.

«هل ترغبين في أي شيء آخر اليوم؟».. سألت البائعة «ميراندا»، وهي تأخذ بطاقة ائتمانها.

– «كلا .. أشكركِ»

غلّفت البائعة علبة الكريم في عدة طبقات من نسيج أحمر، ثم أردفت: «سوف تسعدين كثيراً بهذا المنتج». وقّعت «ميراندا» على الإيصال بيد مهتزة، بينما لم يتزحزح الرجل عن مكانه.

ثم أضافت البائعة وهي تناولها حقيبة صغيرة تحمل اسم العلامة التجارية للمتجر قائلة: «لقد وضعت لكِ عينة من مُنتج جِل العين الجديد الخاص بنا»، ثم نظرت إلى بطاقة الائتمان الخاصة بـ «ميراندا» قبل أن تعيدها إليها عبر الطاولة، وقالت لها مودعة: «صحبتكِ السلامة يا ميراندا».

شرعت «ميراندا» في السير بخطوات سريعة في البداية، وعندما لاحظت أنها تتجه إلى أبواب الخروج خارج المتجر، أبطأت خطواتها.

«أتعرفين أن جزءاً من اسمكِ هندي الأصل؟».. قال الرجل وكان يجاريها في سرعة خطواتها.

فتوقفت «ميراندا» ـ مثلما فعل الرجل ـ عند منضدة دائرية مكدسة بالسترات الصوفية، وتطوقها أعواد الصنوبر والأقواس الناعمة. «تعني اسم (ميراندا)؟»

– «نعم .. فلدىّ عمة تُدعى ميرا».

كان اسمه «ديف»، أخبرها وهو يشير برأسه إلى اتجاه المحطة الجنوبية بأنه يعمل في

Twitter: @ketab_n

بنك استثماري خلف ذلك الشارع. وفكّرت «ميراندا» في أنه كان أول رجل بشوارب تراه وسيماً.

سارا معاً في اتجاه محطة شارع «بارك» إلى جوار الأكشاك التي تبيع الأحزمة وحقائب اليد الرخيصة. وفي أثناء سيرهما، أفسدت الرياح القوية ـ التي عادة ما تهب في شهر يناير ـ «الفارق» في تسريحة شعرها؛ وبينما مدّت يدها في جيب معطفها بحثاً عن حِلية لتثبيته، وقع نظرها على حقيبة التسوّق التي يحملها «ديف»، فسألته: «وهل اشتريت هذه الأشياء من أجل عمتك؟»

– «من؟»

– «عمتك .. ميرا»

«كلا .. إنها لزوجتي».. قال «ديف» عبارته تلك ببطء وهو ينظر في عيني «ميراندا» المندهشتين، ثم أردف: «سوف تسافر إلى الهند لقضاء بضعة أسابيع قليلة»، ثم أردف وهو يقلب عينيه في استياء: «وهي مدمنة لهذه الأصناف».

على نحو ما ـ في غياب تلك الزوجة ـ لم يبدُ في الأمر ما يسوء، فكانا يقضيان معاً كل ليلة.. تقريباً. ولقد أوضح لها «ديف» أنه لا يمكنه المبيت في شقتها لأن زوجته تتصل به تليفونياً من الهند في السادسة من صباح كل يوم، أي نحو الرابعة عصراً بتوقيت الهند؛ ومن ثمّ كان يغادر شقتها في الثانية أو الثالثة صباحاً، وعادة ما كان يمكث بما لا يتجاوز الرابعة صباحاً، ثم يقود سيارته عائداً إلى منزله في الضواحي. أما في أثناء النهار، فلم تكن تمضي ساعة واحدة من دون أن يتصل «ديف» بـ «ميراندا»؛ سواء من العمل أو من هاتفه المحمول. وما إن علم بمواعيدها اليومية، حتى صار يترك لها رسالة في الخامسة والنصف من مساء كل يوم، بينما تستقل هي حافلة المترو للعودة إلى المنزل، فتسمعها بمجرد خروجها من المترو، وهو يخبرها عبر الرسالة المسجلة بصوته: «تشغلين تفكيري طوال الوقت، وأتشوّق إلى رؤيتك». ولقد ذكر لها «ديف» كم يحب قضاء الوقت في شقتها، والجلوس إلى منضدة المطبخ التي لا يتجاوز اتساعها صندوق الخبز، والأرضيات المخربشة الزلقة

Twitter: @ketab_n

في منزلها، والجرس الكهربائي بالردهة الذي يصدر صوتاً يُربكه قليلاً عندما يضغط عليه. كما أخبرها بإعجابه بها لانتقالها للعيش في «بوسطن» – حيث لا تعرف أحداً ـ بدلاً من استمرارها في العيش في «ميتشجن» حيث نشأت والتحقت بالجامعة. وعندما أخبرته «ميراندا» بأنه لم يكن في انتقالها إلى «بوسطن» لهذا السبب تحديداً شيء مثير للإعجاب؛ هز رأسه وقال فجأة على نحو جاد: «أعلم جيداً ما يشعر به المرء عندما يكون وحيدا». وأدركت «ميراندا» في تلك اللحظة أنه يفهمها بحق؛ يفهم الوحدة التي تشعر بها في بعض الأمسيات وهي تستقل المترو في أثناء عودتها إلى منزلها بعد مشاهدتها أحد أفلام السينما بمفردها، أو ذهابها إلى أحد متاجر الكتب لقراءة المجلات، أو تناول المشروبات مع «لاكسيمي»، والتي كان ينبغي عليها دائماً مقابلة زوجها في محطة «ألوييف» في غضون ساعة أو اثنتين على الأكثر. وفي أوقات أخرى أقل جديّة، أخبرها «ديف» كم يعشق أن ساقيها أطول من جذعها؛ وهو ما لاحظه في المرة الأولى التي سارت فيها عارية عبر الغرفة، فقال لها وهو ينظر إلى ساقيها بإعجاب من فوق السرير حيث كان جالساً: «إنكِ أول امرأة أراها تتمتع بساقين طويلتين على هذا النحو».

كان «ديف» أول من يقول شيئاً كهذا؛ فعلى خلاف الأولاد الذين واعدتهم في أثناء دراستها الجامعية ـ الذين كانوا يتميزون عن هؤلاء الذين واعدتهم في المدرسة الثانوية بأنهم كانوا أطول قامة وأضخم جثة فحسب ـ كان «ديف» الرجل الوحيد الذي يعير مثل هذه الأشياء اهتمامه، إضافة إلى تركه الأبواب مفتوحة، وينهض عبر المنضدة في المطعم ليقبّل يدها. وكان أول من أهداها باقة ضخمة من الورد، حتى إنها اضطرت إلى توزيعها على ست من كؤوس الشراب خاصتها. و«ديف» هو أول من همس باسمها مراراً وهو يضاجعها. وبعد أيام من علاقتهما، وفي أثناء وجودها بعملها، تمنّت «ميراندا» لو أن لديها صورة تجمعها و«ديف» لتثبتها بالجزء الداخلي في مكتبها، مثل تلك الصورة التي تجمع «لاكسيمي» وزوجها أمام تاج محل. ولم يحدث أن أخبرت «لاكسيمي» ـ أو سواها ـ بعلاقتها مع «ديف»، على الرغم من أن شيئاً بداخلها كان يرغب دائماً في إخبار «لاكسيمي»، ولو لمجرد كون «لاكسيمي» هندية كذلك. إلا أن هذه الأخيرة كانت

Twitter: @ketab_n

منشغلة دوماً بحديثها التليفوني مع ابنة عمها خلال تلك الأيام، والتي لم تزل طريحة فراشها، وزوجها بعد في «لندن»، وابنها لا يذهب إلى المدرسة. فكانت «لاكسيمي» تحثّها قائلة: «يجب أن تأكلي شيئاً كي لا تخسري صحتك». وفي الأوقات الأخرى التي لم تكن تتحدث فيها إلى ابنه عمها، كانت «لاكسيمي» تتحدث إلى زوجها ـ في محادثات أقصر ـ تنتهي بجدال حول اختيار الدجاج أو اللحم في طعام العشاء. وسمعتها «ميراندا» ذات مرة تعتذر لزوجها قائلة: «آسفة؛ فقد أصابني الأمر برمته بشيء من شك وارتياب».

أما «ميراندا» و«ديف» فلم يتجادلا أبداً؛ فقد اعتادا الذهاب لمشاهدة الأفلام السينمائية في «نيكيلوديون»، وتبادل القبلات طوال الوقت؛ وكانا يتناولان شاورما لحم الخنزير، وقطع الكيك في ميدان «ديفيز»، بينما ورقة المناديل الورقية مثبتة في ياقة قميص «ديف» لتبدو مثل رابطة العنق؛ ويحتسيان شراب «سينجاريا»[1] في حانة أحد المطاعم الأسبانية، وهما يتحدثان، ومن فوقهما هيكل رأس خنزير مبتسم. وحدث ذات مرة أن ذهبا في زيارة لمتحف الفنون الجميلة في «بوسطن»، واختارا صورة زنابق الماء[2] لحجرة نوم «ميراندا». وفي أحد أيام السبت، بعد حضور حفل موسيقي في «قاعة سيمفوني»، اصطحبها «ديف» لمشاهدة مكانه المفضل في المدينة؛ قاعة «مابريوم» في المعهد العلمي المسيحي، حيث وقف الاثنان في غرفة من ألواح الزجاج الملون المشرقة تم تشكيلها بصورة مجوفة لتشبه الكرة الأرضية من الداخل، ولكن تبدو المعالم الخارجية للكرة الأرضية مرسومة على تلك الألواح الزجاجية للحجرة. وفي منتصف الغرفة كان يقف جسر شفاف، فشعرا وكأنهما يقفان في مركز الكرة الأرضية، وأشار ديف» إلى حيث الهند؛ وكانت مظللة باللون الأحمر، وأكثر تفصيلاً من تلك التي شاهدتها «ميراندا» من قبل في خريطة مجلة «الاقتصادي». وهناك شرح لها «ديف» أن دولاً كثيرة مثل «سيام» و«الصومال الإيطالية» لم تعد موجودة في العالم على هذا النحو الموضح في الخريطة؛ حيث أصبح لها أسماء مختلفة. ثم ظهر المحيط بلونه الذي يشبه زرقة صدر الطاووس، بدرجتيه، حسب عمق

1- Sangria : شراب أسباني مثلج مصنوع من خليط النبيذ الأحمر وعصير الفواكه، وأحيانا يضاف إليه البراندي. (المترجمة)

2- زنابق الماء: الاسم الشائع للنباتات المائية المزهرة. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

المياه. وأشار «ديف» إلى النقطة الأعمق في الكرة الأرضية؛ جزر «ماريانا»[1]، والتي يصل عمقها إلى سبعة أميال. ومن فوق الجسر، راحا يحدّقان في صورة جزر القطب الجنوبي المرسومة أسفل أقدامهما، ورفعا عنقيهما إلى السماء المرسومة من فوقهما لمشاهدة النجمة المعدنية العملاقة. وبينما كان «ديف» يتحدث إليها، كان صوته يرتد قوياً عبر زجاج الغرفة؛ تارة مرتفعاً وأخرى ناعماً؛ وأحياناً يبدو وكأنه يستقر في صدر «ميراندا»، وفي أوقات أخرى لم يكد يصل إلى أذنيها، بينما كانت تسمع مجموعة السائحين الذين يمرون فوق الجسر وهم يبتلعون ريقهم، وكأن بها مكبّرات للصوت. وأوضح لها «ديف» أن ذلك يعود إلى علم الصوتيات والسمعيات.

ثم عثرت «ميراندا» في الألواح الزجاجية على مدينة «لندن»، حيث كان زوج ابنة عم «لاكسيمي» بصحبة تلك المرأة التي قابلها على متن الطائرة، وتساءلت في نفسها: تُرى في أي مدينة بالهند تعيش زوجة «ديف». كانت «جزر البهاما» هي أبعد مكان وصلت إليه «ميراندا» في حياتها وهي بعد طفلة صغيرة؛ لكنها لم تجدها حين بحثت عنها فوق الألواح الزجاجية. وعندما ذهب السائحون وأصبحت هي و«ديف» بمفردهما فوق الجسر مجدداً، طلب منها «ديف» أن تقف لدى طرف الجسر من الناحية الأخرى، وأخبرها بأنه على الرغم من مسافة الثلاثين قدماً التي ستفصلهما، فإنهما سوف يستطيعان الاستماع إلى همسات بعضهما.

«لا أصدقك».. قالت «ميراندا»، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تتحدث فيها منذ أن دلفا إلى هذا المكان، وشعرت كأن مكبرات الصوت تطوق أذنيها بإحكام.

«حاولي».. حثها «ديف»، وهو يتراجع إلى الوراء حيث الطرف الآخر من الجسر، فتلاشى صوته ليصبح همساً وهو يقول: «قولي شيئاً». ورأت «ميراندا» شفتيه وهما تتشكلان بالكلمتين، وفي الوقت ذاته سمعتهما بوضوح حتى شعرت وكأنهما تتسللان عبر جلدها، مخترقة معطفها الشتوي؛ شعرت بهما شديدتي القرب ومفعمتين بالدفء، حتى باتت تشعر بحرارة في جسدها.

1- جزر ماريانا: تنتمي جزر ماريانا الشمالية إلى الكومنولث. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

«نعم».. همست «ميراندا» مترددة ولا تعرف ماذا يجدر بها أن تقول.
فهمس لها «ديف»: «أنتِ امرأة .. مثيرة».

وفي أثناء وجود «ميراندا» في عملها في الأسبوع التالي، أخبرتها «لاكسيمي» بأنها ليست المرة الأولى التي يقع فيها زوج ابنة عمها في علاقة غرامية، «فقررت أن تتركه حتى يعود إلى رشده»، أخبرتها «لاكسيمي» ذات مرة بينما كانتا تستعدان لمغادرة المكتب في مساء أحد الأيام: «قالت إنها سوف تفعل ذلك من أجل طفلها، بل إنها على استعداد لتصفح عنه من أجل الصبي». وبينما كانت «ميراندا» تنتظر أن تغلق «لاكسيمي» جهاز الحاسوب، أردفت الأخيرة: «لا شك في أنه سوف يأتي يوم يعود إليها زاحفاً، وسوف تغفر له»، ثم هزت رأسها وقالت: «إنها ليست مثلي؛ فلو سعى زوجي إلى امرأة أخرى، سوف أطرده من حياتي، وأغير أقفال الأبواب»، قالت وهي تمعن النظر في الصورة المثبتة في مكتبها، والتي يبدو فيها زوج «لاكسيمي» وهو يطوق كتفيها بذراعيه، ويميل بركبتيه صوبها وهما يجلسان على المقعد، ثم استدارت إلى «ميراندا» وسألتها: «أما كنتِ ستفعلين ذلك؟»

فأطرقت «ميراندا» وهي تفكر في زوجة «ديف» التي ستعود في اليوم التالي من الهند. وكان «ديف» قد اتصل بها في ظهيرة ذلك اليوم وهي لم تزل في عملها؛ ليخبرها بأنه اضطر للذهاب إلى المطار لاصطحابها، ووعدها بأن يعاود الاتصال بها في أقرب وقت ممكن.

ثم سألت «ميراندا» «لاكسيمي»: «كيف يبدو تاج محل؟»

فأجابتها «لاكسيمي»، ووجهها يشرق بالذكرى: «إنه أكثر بقاع الأرض رومانسية؛ تذكار أبدي للحب الخالد».

بينما ذهب «ديف» إلى المطار، توجهت «ميراندا» إلى الطابق السفلي بمتجر «فيليني» لشراء بعض الأشياء التي فكرت في أنه حريّ بالعشيقة أن تمتلكها؛ فوجدت زوجين أسودين

Twitter: @ketab_n

من الأحذية ذات كعب عالٍ، مزدانين بخرز معدني أصغر حجماً من أسنان طفل، وقميص نوم قصيراً من الساتان ذا حروف رقيقة، ومن فوقه رداء حريري يعلو الركبتين، وبدلاً من الجوارب الطويلة التي عادة ما كانت تلبسها في العمل، ابتاعت جوراباً شفافاً؛ ثم شرعت تفنّد أكوام الملابس وتتجول عبر الأرفف، وحمالات تعليق الثياب، حتى عثرت على فستان سهرة من مادة جلدية فضية اللون تشبه لون عينيها، وتعلوه بضع سلاسل للكتف. وبينما كانت تتسوّق، فكرت «ميراندا» في «ديف»، وتذكرت ما أخبرها به وهما في قاعة «مابريوم»؛ كانت تلك المرة الأولى التي يخبرها فيها رجل بأنها امرأة مثيرة. وعندما أغلقت عينيها، كانت لا تزال تشعر بهمسه يسري في أنحاء جسدها، أسفل جلدها. وفي الحجرة الخاصة لقياس الملابس؛ حجرة كبيرة مُبطّنة بالمرايا، وجدت «ميراندا» مكاناً إلى جوار سيدة أكبر منها في العمر، لها وجه مضيء وشعر أبيض خشن، وقد وقفت حافية القدمين وليس عليها سوى ملابسها الداخلية، وكانت تجذب ألياف نسيج الجورب الأسود المشدود بين أصابعها.

«عليكِ أن تتأكدي دائماً من عدم وجود نتوءات».. قالت السيدة لـ«ميراندا» ناصحة إياها. جذبت «ميراندا» القميص الساتاني ذا الحروف الرقيقة، ووضعته على صدرها لتراه في المرآة، فأومأت لها السيدة مستحسنة وهي تقول: «يبدو جميلاً».

ثم رفعت «ميراندا» ثوب السهرة الفضي، وسألتها: «وما رأيكِ في هذا؟»

– «رائع.. أحسب رجُلكِ سوف يُجن إلى درجة نزعه من فوق جسدك».

أما «ميراندا» فرأت بعين خيالها أنها تجلس مع «ديف» في ذلك المطعم بمنطقة «ساوث إيند»، الذي ذهبا إليه من قبل، حيث طلب «ديف» من النادل طبق الكبدة المطهو على الطريقة الفرنسية، وحساء الشمبانيا والتوت. فتخيلت نفسها ترتدي فستان السهرة الفضي، بينما يرتدى «ديف» إحدى حُلله، ويُقبّل يدها عبر المنضدة. ولكن المرة التالية التي أتى فيها «ديف» لزيارتها كانت بعد عدة أيام من عودة زوجته، إذ أتاها ظهيرة يوم أحد، وكان يرتدي ملابسه الرياضية وقد فرغ لتوّه من تدريباته في صالة الألعاب الرياضية؛ فكانت تلك حجّته الوحيدة للغياب عن منزله: فلقد اعتاد في أيام الأحد أن

Twitter: @ketab_n

يقود سيارته إلى «بوسطن» ويبدأ العدو بمحاذاة نهر «تشارلز». وفي زيارته الأولى لها يوم الأحد، بعد عودة زوجته، فتحت له «ميراندا» وهي ترتدي قميص النوم القصير الذي ابتاعته من متجر «فيليني»، إلا أنه لم يلاحظه، وحملها على الفور إلى غرفة النوم وهو يرتدي سروالاً ذا أربطة وحذاءً رياضياً، وضاجعها من دون أن ينطق بكلمة واحدة. وعندما غطت جسدها بالرداء الخارجي، فيما بعد وهي تسير في الغرفة لتحضر له صحناً صغيراً لرماد تبغه، تذمّر «ديف» لحرمانه من رؤية ساقيها الطويلتين، وطلب منها خلع الرداء. ومن ثمّ ـ في لقائهما يوم الأحد التالي ـ لم تهتم «ميراندا»، واكتفت بارتداء بنطالها الجينز، واحتفظت بالقميص في قاع أحد الأدراج؛ أسفل جواربها وملابسها الداخلية اليومية، بينما ظلّ فستان السهرة الفضي معلقاً في خزانتها، تتدلى منه بطاقة السعر، وعادة ما يتكوّم على الأرضية في الصباح حين تنزلق السلاسل من فوق الشماعة المعدنية.

وعلى الرغم من ذلك، استمرت لهفة «ميراندا» للقاء «ديف» في أيام الأحد، فتذهب في الصباح إلى متجر هندي لتبتاع الخبز الفرنسي وعلباً صغيرة من تلك الأشياء التي يحب «ديف» أن يتناولها؛ سمك الرنجة المخلل، وسلطة البطاطس، وقوالب الجبن المبشورة، وجبن الدوبل كريم. واعتادا أن يتناولا الطعام فوق السرير، فيلتقطان الرنجة بأصابعهما، ويقطعان الخبز بأيديهما. وفي هذه الأثناء، يقص «ديف» على «ميراندا» حكايا طفولته؛ عندما كان يعود إلى المنزل من المدرسة، فيشرب عصير المانجو المُعد في انتظاره فوق صينية التقديم، ثم يلعب «الكريكيت» إلى جوار البحيرة وهو يرتدى زياً أبيض. كما أخبرها كيف ذهب إلى الكلية في شمال ولاية «نيويورك» وهو بعد في الثامنة عشرة من عمره، في أثناء فترة ما أُطلق عليها «الطوارئ»، وكيف استغرق سنوات كي يستطيع فهم اللهجات الأمريكية في الأفلام، على الرغم من دراسته اللغة الإنجليزية حتى المستوى المتوسط. وبينما يتحدث، كان «ديف» يدخّن ثلاث لفافات من التبغ ويطفئها في صحن صغير إلى جوار الفراش. وأحياناً يسألها عن أشياء مثل عدد الفتيان الذين ربطتها بهم علاقة غرامية (ثلاثة)، وكم كان عمرها في أول مرة (كانت في التاسعة عشرة من عمرها). وبعد الغداء يجمعهما الفراش فوق أغطية تعج بفتات الخبز، ليغفو بعدها «ديف» فترة قصيرة

Twitter: @ketab_n

لا تتجاوز اثنتي عشرة دقيقة. ولم تعرف «ميراندا» أبداً رجلاً سواه اعتاد تلك الإغفاءة القصيرة، ولكن «ديف» أخبرها بأن ذلك شيء قد اعتاده منذ نشأته في الهند؛ حيث الطقس شديد الحرارة، فلا يغادر الناس منازلهم حتى غروب الشمس؛ «كما أنها تتيح لنا النوم معاً».. همس «ديف» عابثاً وهو يطوّق جسدها بذراعيه كسوار كبير حول جسدها.

إلا أن «ميراندا» لم تكن تغفو أبداً؛ كانت تراقب مضي الوقت في الساعة الموضوعة فوق المنضدة إلى جوار الفراش، أو تدفن وجهها في أصابع «ديف» والشعرات الست التي تكسو مفاصلها، وتجدلهم مع أصابعها. وبعد ست دقائق تستدير لمواجهته؛ فتتنهد وتتمدد كي تختبر ما إذا كان نائماً بالفعل؛ وكانت تجده كذلك دائماً. وبينما هو يتنفس، تبرز عروقه أسفل جلده. وعلى الرغم من ذلك، كان «ديف» قد زاد وزنه قليلاً في منطقة البطن، وحين اشتكى وجود الشعر على كتفيه، أخبرته «ميراندا» بأنها تراه مثالياً، ورفضت أن تتخيله في أي صورة أخرى مختلفة.

وبعد مضي الاثنتي عشرة دقيقة، يفتح «ديف» عينيه كأنما كان مستيقظاً طوال الوقت، فينظر إلى وجه «ميراندا» بابتسامة ملؤها الرضا الذي تمنت لو أنها شعرت به، ثم يتنهد وهو يمرر يده فوق ساقها ويقول: «أجمل اثنتي عشرة دقيقة في الأسبوع»، ثم ينهض مسرعاً من الفراش، ويرتدي ملابسه الرياضية ويربط حذاءه، ثم يذهب إلى دورة المياه فيغسل أسنانه بسبّابته، وقد أخبرها من قبل أنه شيء يجيد كل الهنود القيام به للتخلص من رائحة التبغ في أفواههم. وعندما تودّعه بقبلة قبل مغادرته، كانت تشم رائحتها العالقة في شعره، ولكنها أدركت أن ذلك لن يتسبب له في أي مشكلات؛ فقضاء فترة الظهيرة في العدو إنما يُعد عذراً كافياً للاستحمام بمجرد دخول منزله، ويبدو أمراً طبيعياً.

وباستثناء «لاكسيمي» و«ديف» لم تعرف «ميراندا» هنوداً آخرين سوى عائلة «ديكستس» التي كانت تسكن المنطقة المجاورة التي نشأت فيها. وقد اعتاد السيد «ديكستس» كل مساء أن يعدو في تلك الشوارع حول منزلهم، التي تغزوها الرياح، مرتدياً قميصه وبنطاله اليومي، وكانت كل فكرته عن الحذاء الرياضي تنحسر في زوجين

Twitter: @ketab_n

من أحذية «كيدز» الرخيصة؛ فيثير مظهره ضحك كل أطفال المنطقة ـ بمن فيهم «ميراندا» ـ عدا أطفال «ديكستس» أنفسهم. وفي عطلات نهاية الأسبوع، تتكدس الأسرة ـ الأب والأم واثنان من الأولاد وابنة واحدة ـ في سيارتهم، ليذهبوا بعيداً إلى مكان لا يعلمه أحد. ولقد اشتكى الآباء أن السيد «ديكستس» لا يعتني بتسميد حديقته كما ينبغي، ولا يشذّب الأوراق والفروع متى لزم الأمر، واتفقوا على أن منزل السيد «ديكستس» ـ الوحيد الذي يحتوى على جدران خشبية من مادة الفينيل ـ ينتقص من أناقة الحي. ولم يحدث قط أن اهتمت الأمهات بدعوة السيدة «ديكستس» إلى الانضمام إليهن حول حمام السباحة في «آرمسترونج». وعندما كان أطفال الحي يقفون لانتظار حافلة المدرسة، كانوا ينظرون إلى أطفال عائلة «ديكستس» ـ المنتظرين كذلك على أحد الجوانب ـ كما لو أنهم «حثالة الأرض»، وينفجرون ضحكاً منهم.

وذات عام، دُعي كل أطفال الحي إلى حضور حفل عيد ميلاد ابنة عائلة «ديكستس»؛ مازالت «ميراندا» تذكر منزلهم الذي يفوح منه عبق البخور ورائحة البصل، وكذلك كومة الأحذية المكدسة أمام الباب الأمامي، إلا أن أكثر ما تذكره كان قطعة من القماش في حجم غطاء الوسادة تقريباً، كانت معلقة فوق وتد خشبي أسفل الدرج، منقوشة عليها صورة لامرأة عارية مُحمرّة الوجه، ولها عينان واسعتان بلونهما الأبيض، وثميلان صوب صدغيها، ونقطتان فحسب للبؤبؤين؛ ودائرتان بنقطتين مماثلتين لتحديد ثدييها. وكانت تلك المرأة تحمل في إحدى يديها خنجراً، بينما تسحق بإحدى قدميها رجلاً مصارعاً وتطرحه أرضاً، وتلتف حول جسدها قلادة معقودة من رؤوس بشر نازفة، وكأنها سلسلة من حبات الفيشار؛ وكانت تخرج لسانها نحو «ميراندا».

أوضحت لها السيدة «ديكستس» مبتسمة: «إنها الإلهة كالي»، وأدارت الوتد قليلاً حتى تعدّل من استواء الصورة. كانت السيدة «ديكستس» تنقش يديها بالحناء، في شكل معقد من نقوش متعرجة ونجوم، ثم وجّهت حديثها إلى الأطفال قائلة: «هيا .. إلى الكعك».

كانت «ميراندا» تبلغ من العمر آنذاك تسعة أعوام، وقد انتابها رعب من أن تتذوق

Twitter: @ketab_n

ذلك الكعك. وطوال شهور بعد تلك الزيارة، ظلّت مرعوبة من مجرد السير في جانب الشارع حيث يقع منزل عائلة «ديكستس»، والذي كان ينبغي عليها المرور من أمامه مرتين كل يوم؛ مرة كي تصل إلى حيث تستقل الحافلة صباحاً، ومرة أخرى في عودتها إلى منزلها. ولقد مكثت «ميراندا» فترة من الوقت تحبس أنفاسها في أثناء مرورها أمام ذلك المنزل وحتى وصولها إلى حديقة المنزل المجاور له، تماماً كما اعتادت أن تفعل عندما تمر حافلة المدرسة بأحد المقابر.

ولكنها تشعر بالخزي الآن من ذلك الأمر؛ ففي أوقاتها الحميمة مع «ديف»، كانت «ميراندا» تغلق عينيها وتتخيل الصحارى والأفيال، ومقصورات الحدائق المصنوعة من الرخام التي تطل على مياه البحيرات في ضوء الليالي القمرية. وذات سبت، حين لم يكن لديها شيء آخر لتفعله، سارت «ميراندا» في طريق طويل حتى وصلت إلى الميدان المركزي، وتوجهت إلى أحد المطاعم الهندية، وطلبت من النادل طبقاً من الدجاج المشوي على الطريقة الهندية، بل حاولت أن تحفظ بعض الكلمات الهندية المطبوعة أسفل قائمة الطعام مثل: «لذيذ» و«ماء» و«الحساب من فضلك». ولمّا وجدت صعوبة في أن تحتفظ بالكلمات في ذهنها، شرعت تتوقف من وقت إلى آخر في قسم اللغات الأجنبية بمتجر الكتب الموجود في ميدان «كينمور»، لدراسة حروف اللغة البنغالية في سلسلة كتب التعليم الذاتي. وبلغ بها الأمر ذات مرة إلى محاولة نسخ الجزء الهندي في اسمها، «ميرا»، وتسجيله في مفكرتها الخاصة؛ وبالطبع تحركت يدها في اتجاهات غير مألوفة، فراحت تتوقف وتستدير ويسقط منها القلم وتلتقطه مرة أخرى بصعوبة لم تتوقعها. فوفقاً للأسهم الموضحة في الكتاب، رسمت «ميراندا» خطاً من جهة اليسار إلى جهة اليمين، حيث تتعلق به الحروف، ليبدو أحدها رقماً أكثر من كونه حرفاً، ويشبه حرفاً آخر مثلثاً من جهة الجانب. واستغرق منها الأمر عدة محاولات كي تجعل حروف اسمها تشبه نماذج الحروف الموضحة في الكتاب؛ وعلى الرغم من ذلك، لم تكن متأكدة: هل كتبت «ميرا» أو «مارا». لم تكن تلك الحروف سوى مجرد خربشة بالنسبة إليها، ولكنها أدركت ـ لدهشتها ـ أنه في بقعة ما من هذا العالم، يوجد معنى لتلك الحروف.

Twitter: @ketab_n

ولم يكن الأمر سيئاً في ذلك الأسبوع؛ فقد انشغلت بالعمل، وبدأت تتناول الغداء مع «لاكسيمي» في مطعم هندي جديد، على مقربة منهما، وتستمع إلى أحدث تطورات الموقف في زواج ابنة عم «لاكسيمي». وأحياناً حاولت «ميراندا» أن تغير ذلك الموضوع لأنه يعيد إليها شعوراً ما؛ سبق أن مرت به وهي مازالت بعد في الجامعة؛ عندما هربت هي وصديقها ذات مرة من متجر فطائر مزدحم من دون أن يدفعا ثمن طعامهما، فقط إرضاءً لرغبتهما في اكتشاف مدى قدرتهما على القيام بمثل ذلك الفعل. ولكن «لاكسيمي» لم تكن لتتحدث في شأن آخر. «لو كنت مكان ابنة عمي، لطرتُ مباشرة إلى لندن، وأطلقت الرصاص على الاثنين؛ لا أدري كيف تستطيع أن تصبر بهذا الشكل».. قالت ذات مرة وهي تشطر الخبز إلى نصفين وتغمسه في صلصة التوابل.

تعلمت «ميراندا» القدرة على الانتظار؛ تجلس في المساء إلى منضدة العشاء تطلي أظافرها بطلاء أظافر لامع، وتتناول السلطة مباشرة من الصحن، وتشاهد التلفاز، وتنتظر أيام الأحد. أما أيام السبت فكانت الأسوأ؛ فبحلولها تصبح نافدة الصبر، وكأن يوم الأحد لن يأتي أبداً! وعندما اتصل بها «ديف» في أحد أيام السبت في ساعة متأخرة من الليل، سمعت ضجيج ضحكات وحديث أشخاص من حوله، بدا لها ذلك الضجيج صادراً عن عدد ضخم من الناس، حتى إنها سألته إذا كان في حفل موسيقي، ولكنه كان يتصل من منزله في الضاحية، فأجابها قائلاً: «لا أسمعك جيداً .. لدينا ضيوف بالمنزل، هل تفتقدينني يا ميراندا؟»، نظرت «ميراندا» إلى شاشة التلفاز، وكانت قد كتمت صوته بالريموت كونترول عندما دقّ جرس الهاتف، وتخيلته وهو يهمس لها بحديثه عبر سماعة الهاتف، في حجرة بالطابق الأعلى، ويمسك قبضة الباب بيده، وردهة المنزل تمتلئ بالضيوف. ثم كرر «ديف» سؤاله: «ميراندا .. هل تفتقدينني؟»، فأخبرته بأنها تفتقده بالفعل.

وفي اليوم التالي، عندما زارها «ديف»، سألته «ميراندا» كيف تبدو زوجته، وبدت عصبية في سؤالها، وانتظرته حتى انتهي من لفافة التبغ الأخيرة فلوى طرفها بعنف في مطفأة السجائر، وتساءلت عما إذا كان هو وزوجته قد تشاجرا. إلا أن «ديف» لم يندهش

Twitter: @ketab_n

من سؤالها، وأخبرها وهو ينثر بعضاً من السمك الأبيض المدخن فوق الفتاحة، بأن زوجته تشبه ممثلة في «بومباي» تُدعى «مادهوري ديكست».

شعرت «ميراندا» بقلبها يتوقف عن النبض للحظة واحدة؛ ولكن لا .. فابنة آل «ديكستس» كان اسمها يبدأ بحرف الباء؛ وفكرت في أنه ربما كانت هذه الممثلة قريبة إلى تلك العائلة على نحو ما. وتذكرت وجه فتاة «ديكستس» الشاحب وتصفيفة شعرها في ضفيرتين طوال فترة المدرسة الثانوية.

بعد مضي أيام قليلة، توجهت «ميراندا» إلى متجر هندي في الميدان المركزي يؤجر أفلام الفيديو، حيث انفتح باب محدثاً مزيجاً معقداً من الأجراس. كان ذلك في وقت العشاء، و«ميراندا» هي الزبونة الوحيدة، وجهاز الفيديو يعرض على شاشة التلفاز المثبت في أحد أركان المتجر صورة لفتيات مصطفّات يرتدين سراويل نسائية ويمددن مفاصل أفخاذهن في تزامن على شاطئ.

«هل يمكنني مساعدتك؟».. سألها رجل يقف خلف خزانة المحاسبة، وكان يأكل «السمبوسك» ويغرس طرفها في صلصة بنية اللون في طبق ورقي. وأسفل المنضدة الزجاجية التي تقترب من خصره، ترقد صوانٍ أخرى من السمبوسك الممتلئة بالسمن، وشيء آخر بدا كأنه حلوى في شكل قطع الماس مغطاة بالورق المعدني البرّاق، ومعجنات برتقالية اللون تطفو في شراب السكر، ثم أردف الرجل: «هل ترغبين في بعض شرائط الفيديو؟».

فتحت «ميراندا» مفكرتها التي كتبت فيها اسم «مادهوري ديكست»، وراحت تبحث في شرائط الفيديو المتراصة فوق الأرفف، فرأت نساء ترتدي كل منهن تنورة قصيرة تعلو الركبة بدرجة كبيرة، ورداءً علوياً ضيقاً معقوداً بين نهديها فيما يشبه المنديل. بعضهن يملن إلى الخلف ليتكئن على حائط حجري أو شجرة. كن جميلات، مثل تلك الشابات اللاتي يرقصن على الشاطئ، وعيونهن تزينها خطوط الكحل، ولهن شعور طويلة سوداء؛ فأدركت «ميراندا» أن «مادهوري ديكست» كانت جميلة أيضاً.

«لدينا نسخ من شرائط الفيديو المُترجمة يا سيدتي».. أخبرها الرجل، وهو يمسح يديه بسرعة في قميصه، وأحضر لها ثلاثة شرائط.

Twitter: @ketab_n

«كلا .. أشكرك».. أجابته «ميراندا»، وشرعت تتجول في المتجر وهي تدقق النظر في الأرفف التي تصطف فيها العلب الكرتونية والصفائح، والمجمّد الذي يمتلئ بحقائب الخبز والخضراوات التي لا تعرفها، وكان الشيء الوحيد الذي تعرفت إليه هو صف علب الهوت ميكس التي اعتادت «لاكسيمي» أن تتناوله، وفكرت في شراء بعض منه من أجلها، لكنها ترددت؛ فكيف تشرح لها ما كانت تفعله في متجر بقال هندي.

«حارة جداً .. إنها حارة جداً بالنسبة إليك».. قال الرجل وهو يهز رأسه، وعيناه تتفحصان جسد «ميراندا».

وبحلول شهر فبراير، كان زوج ابنة عم «لاكسيمي» لم يزل في قصته؛ فقد عاد إلى «مونتريال» وتشاجر بقسوة مع زوجته طوال أسبوعين، وحزم حقائبه، وطار ثانية إلى «لندن»، بعد أن أعلن رغبته في الطلاق.

وبينما هي في مكتبها، استمعت «ميراندا» إلى «لاكسيمي» وهي تحاول أن تسرّي عن ابنة عمها بقولها: إن العالم لم يزل فيه رجال أفضل من زوجها. وفي اليوم التالي، علمت «لاكسيمي» من ابنة عمها أنها سوف تحضر بصحبة ابنها إلى منزل والديها في «كاليفورنيا» في محاولة للتعافي والاسترخاء، وأقنعتها «لاكسيمي» بقضاء نهاية الأسبوع معها في «بوسطن»: «لا شك في أن تغيير الأماكن سوف يساعدكِ كثيراً، كما أنني لم أرك منذ عدة سنوات»، أصرت «لاكسيمي» برفق.

أما «ميراندا» فكانت تحدّق في هاتفها، متمنية أن يتصل بها «ديف»، وقد مضت أربعة أيام على مكالمتهما الأخيرة. ثم سمعت «لاكسيمي» وهي تتصل بدليل التليفونات للاستعلام عن رقم أحد صالونات التجميل الذي وصفته بأنه «مكان مهدئ»، حيث كلّمته «لاكسيمي» وحددت موعداً للماساج، وتدليك الوجه، والعناية بالأظافر والأقدام، ثم حجزت مائدة للغداء في فندق «الفورسيزونز»، وتذكرت أنها في أثناء استغراقها في تحديد الأماكن للترفيه عن ابنة عمها قد أغفلت طفلها الصغير، فدقت بيدها على الحائط الذي يفصل بين مكتبها ومكتب «ميراندا» وسألتها: «ميراندا .. هل هناك ما يشغلك يوم السبت؟»

Twitter: @ketab_n

كان الولد نحيفاً، ويعلق حقيبة صفراء فوق ظهره، ويرتدي بنطالاً رمادي اللون وسترة حمراء تأخذ فتحة العنق فيها شكل حرف V، وحذاءً جلدياً أسود. كانت أطراف شعره الكثيف تتدلى فوق عينيه اللتين بدت الهالات السود أسفلهما واضحة. كان ذلك أول ما لاحظته «ميراندا» حينما نظرت إليه، فبدا لها مُنهكاً كمدخّن شرّه قلّما يغفو، على رغم حقيقة كونه طفلاً لم يتجاوز عمره السبعة أعوام. كان الولد ممسكاً بكراسة رسم كبيرة بها رباط حلزوني، وكان اسمه «روبن».

نظر الطفل إلى «ميراندا» محّدقاً، وقال لها «اسأليني عن إحدى عواصم البلاد؟»

فحدّقت فيه «ميراندا» بالمثل. كانت الساعة الثامنة والنصف صباح يوم السبت، فارتشفت بعضاً من قدح قهوتها، وسألته: «أسألك عن ماذا؟»

«إنها لعبة اعتاد أن يلعبها».. أوضحت ابنة عم «لاكسيمي»؛ كانت نحيلة الجسد مثل ابنها، ووجهها طويل ولديها الهالات السود ذاتها أسفل عينيها، ويتدلى من فوق كتفيها معطف ثقيل بلون الصدأ، وشعرها الأسود بخصلاته الرمادية، مشدود إلى الخلف كشعر راقصة الباليه، ثم أردفت قائلة: تسألينه عن اسم عاصمة أي بلد، فيخبركِ بها».

قالت «لاكسيمي»: «ليتكِ سمعتِه ونحن في السيارة، إنه يحفظ بالفعل كل عواصم البلدان الأوروبية».

«إنها ليست لعبة، فأنا أتنافس مع ولد آخر في المدرسة، ونتسابق في حفظ كل عواصم العالم، ولسوف أفوز عليه».. قال الولد.

أومأت «ميراندا» وقالت: «حسناً.. ما عاصمة الهند؟»

خطا الطفل بعيداً قليلاً وهو يلوّح بذراعيه مثل دمية الجندي، وقال لها: «هذه ليست جيدة؛ اسأليني عن شيء أصعب».

فأجابته سائلة: « السنغال؟»

« داكار!».. هتف الولد مزهوّاً، وبدأ يجري في مساحة من المكان راحت تتسع تدريجياً حتى انتهى به الأمر للجري إلى المطبخ، وسمعته «ميراندا» وهو يفتح باب الثلاجة ويغلقه.

Twitter: @ketab_n

صاحت ابنة عم «لاكسيمي» في الولد مهددةً: «روبن .. لا تلمس أي شيء قبل أن تستأذن أولاً»، ثم ابتسمت إلى «ميراندا» وقالت: «لا تقلقي .. سوف يستغرق في النوم في غضون ساعات قليلة، وأشكرك على العناية به».

«سوف نعود في الساعة الثالثة .. أسرعي؛ سوف ندفع الضعف لسائق سيارة الأجرة لانتظاره كل هذا الوقت».. قالت «لاكسيمي» وهي تختفي مع ابنة عمها عبر الردهة.

أحكمت «ميراندا» غلق سلسلة الباب، وتوجهت إلى المطبخ للعثور على «روبن»، ولكنه انطلق إلى غرفة المعيشة، وجلس فوق أحد مقاعد منضدة الطعام، وقد أزاح الحقيبة الصفراء من فوق ظهره، ودفع بسلة أدوات تسوية الأظافر الخاصة بـ «ميراندا» إلى أحد جوانب المنضدة، ونثر أقلام التلوين الخاصة به فوق سطح المنضدة. وقفت «ميراندا» خلف كتفه، تراقبه وهو يمسك اللون الأزرق ويرسم به صورة لطائرة جوية.

«إنها جميلة».. قالت «ميراندا»، وعندما لم يرد «روبن» عليها، توجهت إلى المطبخ كي تصب لنفسها المزيد من القهوة.

«هل لي في بعض منها من فضلك!».. طلب منها «روبن».

عادت «ميراندا» ثانية إلى غرفة المعيشة، وقالت: «بعض من ماذا؟»

– «من القهوة .. أرى أن لديكِ ما يكفي منها في الدورق».

سارت «ميراندا» إلى المنضدة، وجلست في مواجهته، بينما كان «روبن» يقف أحياناً فوق المقعد ليصل إلى لون آخر فوق المنضدة، ولكنه لم يتسبب في إحداث خسائر بالمقعد.

– «ولكنك مازلت صغيراً على تناول القهوة».

انحنى «روبن» فوق اللوحة التي يرسمها حتى بدا أن صدره الضئيل وكتفيه يتلامسان تقريباً، بينما رأسه يميل إلى جانب واحد، وقال لها: «تسمح لي الخادمة بتناول القهوة، تضع عليها اللبن ومقداراً كبيراً من السكر». ثم اعتدل في جلسته، ورسم وجه امرأة بجانب الطائرة، لديها شعر طويل متموج، وعيناها مثل النجمات، وأردف قائلاً: «كان شعرها أكثر لمعانا .. قابل أبي أيضاً امرأة جميلة على متن طائرة»، ونظر إلى «ميراندا»

Twitter: @ketab_n

ووجهه ينطفئ وهو يراقبها وهي تحتسي القهوة، ويستعطفها قائلاً: «ولو حتى مقدار ضئيل من القهوة؟»

وعلى الرغم من ملامحه الهادئة الوديعة، تساءلت «ميراندا» عمّا إذا كان الطفل من ذلك النوع الذي تجتاحه نوبات الغضب فيقذف كل الأشياء من حوله، وتخيلت أنه يضربها بحذائه الجلدي، ويصرخ للحصول على القهوة، ويبكي حتى تعود كل من والدته و«لاكسيمي» لاصطحابه. فما كان منها إلا أن توجهت إلى المطبخ، وأعدت له القهوة بالطريقة التي طلبها، واختارت قدحاً لا تهتم به كثيراً، فلا تنزعج حال سقط من يديه.

«أشكركِ».. قال «روبن» عندما وضعت له القهوة فوق المنضدة، فارتشف القليل منها وهو يمسك بالفنجان بإحكام بكلتا يديه.

مكثت «ميراندا» إلى جوار «روبن» وهو يرسم، لكنه اعترض عندما شرعت تضع طلاء أظافرها اللامع، وبدلاً من ذلك سحب من حقيبته كتيباً تعريفياً من الورق المقوى يضم معلومات عن العالم، وطلب من «ميراندا» أن تختبره. كانت الدول مرتبة في الكتيب وفقاً للقارات؛ حيث تضم كل صفحة ستة بلدان، موضحة بها العواصم باللون الأسود، ونبذة قصيرة عن عدد السكان ونظام الحكم وبعض الإحصاءات الأخرى. انتقلت «ميراندا» إلى صفحة في القسم الخاص بقارة أفريقيا، وبدأت توجيه الأسئلة:

– «ما عاصمة مالي؟»

– «باماكو»

– «ومالاوي؟»

– «ليلونجوي»

تذكرت «ميراندا» عندما شاهدت الجزء الخاص بقارة أفريقيا في قاعة «مابريوم» بالمعهد العلمي مع «ديف»، وتذكرت أيضاً كيف كان الجزء الأكبر منه مظللاً باللون الأخضر.

«استمري».. قال «روبن»

– «موريتانيا؟»

– «نواكشوط»

– «موريشيوس؟»

Twitter: @ketab_n

توقف «روبن»، وأغلق عينيه، ثم فتحهما ثانية، وقال مهزوماً: «لا أتذكر»
فأخبرته «ميراندا» بأنها «بور لويس».

«بور لويس».. كررها «روبن» مثل الأغنية.

وعندما بلغا الدولة الأخيرة في قارة أفريقيا، أخبرها «روبن» بأنه يرغب في مشاهدة برامج الأطفال في التلفاز، وطلب من «ميراندا» أن تشاركه الأمر. وعندما انتهى من هذا، تبعها إلى المطبخ، ووقف إلى جانبها وهي تعد المزيد من القهوة، ولكنه لم يتبعها عندما ذهبت إلى دورة المياه بعد عدة دقائق، إلا أنها اندهشت عندما فتحت الباب ووجدته يقف بالخارج.

«هل تريد دخول دورة المياه؟».. سألته «ميراندا»

هز «روبن» رأسه بالنفي، ولكنه دخل إلى دورة المياه، وأغلق غطاء المرحاض، وتسلق فوقه، وتفحص الرف الزجاجي الضيق المعلق فوق المغطس، والذي يحتوى على فرشاة أسنان «ميراندا» وأدوات مكياجها.

التقط «روبن» عينة جِل العين التي حصلت عليها «ميراندا» من المتجر في المرة الأولى التي رأت فيها «ديف»، وسألها: «فيمَ يستخدم هذا؟»

– «لإزالة الانتفاخات».

– «ما الانتفاخات؟»

«هنا».. أشارت «ميراندا» إلى أسفل عينيها كي توضح له.

– «تقصدين الانتفاخات الناتجة عن البكاء؟»

– «أظن ذلك».

فتح «روبن» غطاء الأنبوبة، وشرع يستنشقها، وضغط عليها، ووضع نقطة منها فوق إحدى أصابعه، ثم فركها فوق ظهر يده، وقال لها: «إنها تتمدد»، وبدأ يفحص جلده وكأنه يتوقع أن يتغير لونه، وأردف قائلاً: »لدى أمي انتفاخات، وهي تفسر ذلك بإصابتها بالبرد، ولكنها تبكي بالفعل، ربما لساعات أحياناً، وأحياناً حتى في أثناء تناول العشاء.. إنها تبكي بشدة إلى درجة أن عينيها تنتفخان مثل الضفاضع».

Twitter: @ketab_n

وهنا خطر لـ «ميراندا» أنه ينبغي عليها أن تقدم له بعض الطعام؛ فعثرت في المطبخ على علبة من كيك الأرز، والخس، وعرضت عليه أن تخرج لتشتري له شيئاً من المتجر الهندي، ولكن «روبن» أخبرها بأنه ليس جائعاً إلى ذلك الحد، وأنه لا بأس بواحدة من كيك الأرز، وأردف قائلاً: «سوف تأكلين واحدة أنت أيضاً»، فجلسا على المنضدة وبينهما كيك الأرز، وفتح كراسة الرسم الخاصة به على صفحة جديدة، وقال لها: «دوركِ كي ترسمي».

اختارت «ميراندا» قلم الألوان الأزرق، وقالت له: «ماذا أرسم؟»

فكر «روبن» لمدة دقيقة، ثم طلب منها أن ترسم الأشياء الموجودة في غرفة المعيشة: الأريكة، والمقعد الذي يشبه طراز مقعد المخرج، التلفاز، والهاتف، وأضاف قائلاً: «هكذا يمكنني أن أحفظ هذه الأشياء وأتذكرها».

– «وماذا تريد أن تحفظ؟»

«اليوم الذي قضيناه معاً».. أجابها «روبن» وهو يمد يده لتناول قطعة ثانية من الكيك.

– «ولماذا يجب عليك أن تحفظه؟»

– «لأننا لن نتقابل ثانيةً أبداً».

أصابتها عبارته البالغة الدقة بالدهشة، ونظرت إليه وهي تشعر ببعض إحباط، بينما لم يبدُ على «روبن» شيء من ذلك، ثم نقر الصفحة وهو يقول «تابعي الرسم».

حاولت «ميراندا» أن ترسم الأشياء بأفضل ما استطاعت؛ الأريكة والمقعد والتلفاز، وشرع «روبن» يسير بانحراف شديد نحوها وعلى مقربة منها إلى درجة أنها أحياناً كانت لا ترى ما تفعله، ثم وضع يده الصغيرة السمراء فوق يدها، وقال: «والآن جاء دوري أنا».

ناولته «ميراندا» قلم الألوان.

هز رأسه وقال: «لا .. أعني ارسمي صورة لي أنا».

– «لا أستطيع .. فلن تشبهك الصورة».

بدت مسحة كئيبة تكسو ملامح «روبن» من جديد، تماماً مثلما حدث عندما رفضت في البداية أن تعطيه القهوة، وأخذ يستحثها: «أرجوكِ .. من فضلكِ».

Twitter: @ketab_n

فرسمت «ميراندا» وجهه، وحددت رأسه وأطراف شعره الكثيفة، بينما استمر «روبن» في جلسته ثابتاً تماماً، وتعبير وجهه رسمي حزين، وهو ينظر في اتجاه واحد، وتمنت «ميراندا» لو استطاعت أن ترسم له صورة جيدة، وكانت يدها تتحرك في تزامن مع حركة عينيها، بطريقة غير محددة، تماماً مثلما حدث ذلك اليوم في متجر الكتب، عندما كتبت اسمها بالحروف البنغالية. لم تشبه الصورة التي ترسمها «ميراندا» الولد في شيء، وعندما كانت تحاول رسم أنفه، تسلل بعيداً عن المنضدة.

«أشعر بالملل».. قال «روبن» وهو يتجه صوب غرفة النوم، وسمعته «ميراندا» يفتح بابها، ثم يفتح أدراج الخزانة ويغلقها.

وعندما لحقت به «ميراندا» كان قد وصل بالفعل إلى الركن الخاص بخزانة الملابس في الغرفة، وظهر بعد دقيقة وشعره غير مرتب، ويمسك في يده بفستان السهرة الفضي، وقال لها: «وجدته على الأرض».

– «إنه ينزلق من فوق الشماعة»

نظر «روبن» إلى الفستان، ثم إلى جسد «ميراندا»، وقال لها» ارتديه».

– «ماذا؟»

– «ارتديه»

لم يكن هناك سبب كي ترتدي «ميراندا» هذا الفستان؛ فهي لم ترتده قط منذ المرة الأولى ـ والأخيرة ـ التي ارتدته فيها في حجرة قياس الملابس في متجر «فيليني»، وكانت تدرك حقيقة أنها طالما مع «ديف» فلن تُتاح لها الفرصة كي ترتديه أبداً. كانت تعلم أنهما لن يذهبا إلى المطاعم حيث يقترب منها «ديف» ويقبل يدها من فوق المائدة؛ فهما يتقابلان في شقتها في أيام الأحد، وهو يرتدى ملابسه الرياضية، وهي ترتدي الجينز. أخذت «ميراندا» الفستان من «روبن»، ونفضته من الأتربة، على الرغم من أن نسيجه الضعيف لم يكن ليتجعّد أبداً، ثم اقتربت من خزانة الملابس تبحث عن شماعة خالية.

«أرجوكِ .. ارتديه».. طلب منها «روبن» وقد وجدته يقف من خلفها فجأة، ثم طوّق خصرها بذراعيه النحيفتين الصغيرتين وهو يدفن وجهه في جسدها، ويستحثها: «أرجوكِ».

Twitter: @ketab_n

«حسناً».. قالت «ميراندا» وهي مندهشة من قوة قبضته.

ابتسم «روبن» راضياً، وجلس على حرف السرير.

فأشارت «ميراندا» إلى باب الغرفة وقالت له: «يجب أن تنتظرني في الخارج، وسوف آتيك بمجرد أن أنتهي».

– «ولكن أمي تخلع ملابسها أمامي دائماً».

– «أحقاً تفعل؟»

أومأ «روبن» برأسه إيجاباً، وقال: «إنها حتى لا تلتقط الملابس من فوق الأرض بعد أن تخلعها؛ بل تتركها مكومةً إلى جوار الفراش».

وأردف قائلاً: «وذات يوم نامت في حجرتي، وقالت: إن هذا يُشعرها بالأمان؛ كان ذلك بعد رحيل أبي».

«ولكني لستُ أمك».. قالت «ميراندا» وهي ترفعه عن سريرها من تحت إبْطيه. وعندما رفض أن يقف، حملته، ووجدته أثقل وزناً مما توقعت؛ فتعلّق بها الولد، وطوق رجليه في إحكام حول فخذيها، واستقر برأسه فوق صدرها. أجلسته «ميراندا في ردهة المنزل، وأغلقت باب حجرتها، ولمزيد من الحرص، أحكمت إغلاق مِزلاج غرفة نومها، ثم ارتدت الفستان، ونظرت إلى صورتها في المرآة خلف الباب، والتي تُظهر صورتها بالكامل. بدا الجورب القصير الذي ترتديه لتغطية كاحل قدمها، شيئاً سخيفاً ولا يتماشى مع فستان السهرة، ففتحت خزانة الأدراج وأخرجت الجورب الخاص بالفستان، ثم انتعلت الحذاء ذا الكعب العالي المزدان بحبات الخرز الصغيرة. بدت الحمّالات نحيلة جداً فوق ترقوتها، وكان الفستان فضفاضاً بعض الشيء فوق جسدها؛ إذ لم تتمكن من إحكام السوستة بمفردها.

وشرع «روبن» يطرق باب الغرفة: «هل لي أن أدخل؟»

وعندما فتحت «ميراندا» الباب، طالعها «روبن» وهو يحمل في يديه كتابه عن بلدان العالم، ويردد بعض الكلمات كي يحفظها. وما إن وقعت عيناه عليها حتى اتسعت حدقتاهما وهو ينظر إليها. جلست «ميراندا» على حافة الفراش، وقالت: «لكني أحتاج إلى مساعدة لغلق السوستة».

Twitter: @ketab_n

رفع «روبن» زمام المنزلق إلى أعلى، ثم وقفت «ميراندا» واستدارت، بينما ترك «روبن» كتابه، وقال لها: «إنك امرأة ... مثيرة».

– «ماذا قلت؟»

– «أنت امرأة مثيرة»

جلست «ميراندا» فوق الفراش مرة أخرى، وعلى الرغم من أنها تدرك أن ذلك لا يعني شيئاً، فإنها استشعرت وكأن دقة قد انفلتت من قلبها. تُرى .. هل يستخدم «روبن» هذه الكلمة ليصف كل النساء؛ وربما سمعها في التلفاز أو قرأها فوق غلاف إحدى المجلات. وتذكرت «ميراندا» اليوم الذي قضته في غرفة «مابريوم» وهي تقف لدى طرف الجسر بعيداً عن «ديف»؛ عندما سمعته يهمس لها بهذه الكلمة، وكانت تعلم وقتها ماذا تعني كلماته؛ أيام كانت كلماته تعني أشياءً!

عقدت «ميراندا» ذراعيها على صدرها، ونظرت في عيني «روبن»، وقالت: «أود أن أسألك عن شيء ما».

كان «روبن» صامتاً.

فأردفت: «ماذا تعني تلك الكلمة؟»

– «أي كلمة؟»

– «كلمة مثيرة .. ماذا تعني؟»

نظر «روبن» إلى الأرض فجأة في خجل، ثم قال: «لا يمكنني أن أخبرك».

– «لماذا؟»

«إنه سر».. قال «روبن» وهو يضغط على شفتيه بشدة إلى درجة أنْ تحول الجزء الذي يضغط عليه إلى اللون الأبيض.

– «أخبرني بهذا السر، أريد أن أعرفه».

جلس «روبن» فوق السرير إلى جانبها، وبدأ يرفس حافة الفراش بظهر حذائه، ثم قهقه بعصبية، واهتز جسده النحيل كأن أحداً ما يداعبه.

«أخبرني».. قالت «ميراندا» وقد انحنت، وأمسكت بكاحليه لتثبت موضع قدميه.

Twitter: @ketab_n

نظر «روبن» إليها بعينيه الضيقتين، وحاول جاهداً أن يضرب حافة الفراش من جديد، ولكن «ميراندا» ضغطت على قدميه فمنعته. رجع «روبن» بظهره فوق الفراش، واستند إلى لوحه الخشبي، ثم وضع يديه حول فمه، وهمس فيهما وكأنه يقول سراً بالفعل: «تعني أن تحب شخصاً ما لا تعرفه».

شعرت «ميراندا» بكلمات «روبن» تتسلل أسفل جلدها بالطريقة ذاتها التي شعرت بها عندما أخبرها «ديف» أنها مثيرة، إلا أن تأثير الكلمات هذه المرة بدا وكأنه يخدّرها بدلاً من أن يثيرها. وتذكرت إحساسها في متجر البقالة الهندي، في اللحظة التي أدركت فيها ـ حتى دون النظر إلى الصور ـ أن «مادهوري ديكست» التي تشبه زوجة «ديف»، امرأة جميلة.

استمر «روبن» في حديثه قائلاً: «هذا ما فعله أبي، جلس إلى جانب امرأة لا يعرفها ـ امرأة مثيرة ـ وأصبح الآن يحبها بدلاً من أمي».. قال «روبن»، ثم خلع نعليه، ووضعهما جنباً إلى جنب على الأرض، ثم أزاح اللحاف وزحف في فراش «ميراندا» ومعه الكتاب. ولم تمضِ دقيقة إلا وقد سقط الكتاب من يديه، وأغلق عينيه، وراح في سُبات. راقبته «ميراندا» في نومه، واللحاف يرتفع وينخفض وهو يتنفس، بيد أنه لم يستيقظ بعد اثنتي عشرة دقيقة مثل «ديف» ولا حتى بعد عشرين دقيقة، ولم يفتح عينيه و«ميراندا» تخلع ثوب السهرة الفضي وترتدي الجينز، وتضع حذاءها ذا الكعب العالي في نهاية خزانة الملابس، وتعيد طي جوربها لإعادته إلى خزانة الأدراج.

وعندما انتهت «ميراندا» من إعادة كل الأشياء إلى أماكنها، جلست فوق الفراش، ثم انحنت صوب «روبن»، واقتربت منه حتى رأت بعض المسحوق الأبيض العالق في جانب فمه جرّاء تناوله كيك الأرز. ثم التقطت كتابه، وراحت تُقلّب صفحاته وهي تتخيل المشاجرات التي سمعها «روبن» بمنزله في «مونتريال»؛ فسمعت أمه وهي ترتدي ثوب الحمام نفسه الذي تضعه على جسدها منذ عدة أسابيع، وقد تحول وجهها الجميل إلى وجه حاقد، وهي تصرخ قائلة: «هل هي جميلة؟ هل هي مثيرة؟»، وينكر والده ذلك في البداية، ويحاول تغيير الموضوع، ولكن والدة «روبن» تصرخ ثانيةً: «أخبرني .. هل

Twitter: @ketab_n

هي مثيرة؟»، وأخيراً يعترف والده بأنها مثيرة بالفعل، فتنخرط والدة «روبن» في البكاء فوق فراش محاط بأكوام متشابكة من الملابس، وتنتفخ عيناها مثل الضفادع، وتسأله وهي تتنهد في بكائها: «كيف تحب امرأة لا تعرفها؟».

بدأت «ميراندا» نفسها تبكي وهي تتخيل ذلك المشهد بين والدي «روبن»، وتذكرت كيف بدت كل البلدان في غرفة «مابريوم» ذلك اليوم، قريبة بدرجة كافية لأن يلمسها المرء، وكيف كان صوت «ديف» يرتد بقوة عبر زجاج الغرفة. ومن فوق الجسر، وعلى بعد مسافة ثلاثين قدماً، وصلت كلماته إلى أذنيها، بدرجة قريبة جداً ومفعمة بالدفء، حتى إن وقعها ظل منسلاً تحت جلدها لعدة أيام تلت. وبكت «ميراندا» كما لم تبكِ من قبل، حتى باتت عاجزة عن كفكفة دموعها. إلا أن هذا لم يوقظ «روبن»، وفكّرت «ميراندا» في أنه ربما قد اعتاد ذلك؛ أن ينام على صوت امرأة .. تبكي.

عندما هاتفها «ديف» يوم الأحد ليخبرها بأنه في طريقه إليها، قائلاً: «أنا تقريباً مستعد، سوف أصل إليكِ بحلول الساعة الثانية»، كانت «ميراندا» تشاهد برنامجاً عن الطهي في التلفاز؛ تشير فيه امرأة إلى صف من التفاح، وتشرح أفضل الأنواع التي يمكن خبزها، فأجابته: «من الأفضل ألا تأتي اليوم».

– «لماذا؟»

«أنا مصابة ببرد .. وطريحة الفراش منذ الصباح».. كذبت «ميراندا»، ولكنها لم تبتعد كثيراً عن الحقيقة، فقد أصابها البكاء بالاحتقان.

«صوتكِ لا يبدو لي على ما يرام».. قال «ديف»، ثم توقف برهة، ثم أضاف: «هل تحتاجين إلى أي شيء».

– «بل لديّ كل شيء».

– «أكثري من تناول المشروبات إذاً».

– «ديف؟»

– «نعم يا ميراندا؟»

Twitter: @ketab_n

– «هل تتذكر ذلك اليوم الذي ذهبنا فيه إلى قاعة مابريوم؟»

– «بالطبع أتذكره».

– «هل تتذكر كيف همس كل منا إلى الآخر؟»

«أتذكر بالطبع».. همس «ديف» مداعباً.

– «هل تتذكر ما قلته لي؟»

«دعينا نرجع إلى شقتك».. قال «ديف»، ثم توقف برهة، وضحك بهدوء، وأردف: «هل نتقابل يوم الأحد القادم؟»

في اليوم السابق، عندما بكت «ميراندا» اعتقدت أنها لن تنسى أي شيء أبداً، ولا حتى الطريقة التي يبدو بها اسمها وهو مكتوب باللغة البنغالية. وغرقت في النوم إلى جانب «روبن»، وعندما استيقظت وجدته يرسم طائرة فوق نسخة مجلة «الاقتصادي» التي احتفظت بها وخبأتها تحت الفراش، ثم سألها «روبن» وهو يقرأ الاسم المكتوب على العنوان الذي تُرسل إليه المجلة: «من هو ديفاجيت ميترا؟»

تخيلت «ميراندا» «ديف» وهو يرتدي ملابسه الرياضية وحذاءه الرياضي، ويضحك عبر الهاتف، وفكّرت في أنه سوف يلحق بزوجته في الطابق الأسفل، ويخبرها بأنه لن يذهب للعدو في ذلك اليوم، وبأنه سوف يشد عضلاته وهو يتمدد، ويستقر لقراءة الجرائد. كانت «ميراندا» تشتاق إليه رغماً عنها، وقررت أن تقابله مرة واحدة أو مرتين في أيام الأحد، وبعدها ستخبره بالأشياء التي أدركتها منذ البداية؛ أن في ما يحدث بينهما ظلماً فادحاً لها ولزوجته أيضاً، وأن كل منهما تستحق ما هو أفضل من ذلك، وأنه لا فائدة من استمرار هذه العلاقة على هذا النحو.

ولكن تساقط الثلج بكثافة في يوم الأحد التالي أبطل حُجّة «ديف» بشأن العدو بمحاذاة نهر «تشارلز». وعندما ذاب الجليد بحلول يوم الأحد التالي كانت «ميراندا» قد خططت بالفعل للخروج إلى السينما بصحبة «لاكسيمي». وعندما أخبرت «ديف» بذلك عبر الهاتف، لم يطلب منها إلغاء موعدها مع «لاكسيمي». وفي يوم الأحد الثالث، استيقظت «ميراندا» باكراً، وخرجت للتنزه سيراً؛ كان الطقس بارداً ومُشمساً في آن

Twitter: @ketab_n

واحد، فشرعت تسير طوال الطريق حتى وصلت إلى شارع «كومنولث»، ومرت في طريقها بالمطاعم التي كان «ديف» يقبّلها فيها، ثم قطعت كل الطريق إلى المعهد العلمي المسيحي سيراً على قدميها، وتوجهت إلى قاعة «مابريوم» لتجدها مغلقة، ولكنها ابتاعت قدحاً من القهوة من مكان قريب، وجلست على أحد المقاعد في الساحة العامة خارج الكنيسة، وراحت تحدّق في الأعمدة العملاقة والقبب المهيبة، والسماء الزرقاء الصافية التي تمتد فوق المدينة.

Twitter: @ketab_n

منزل السيدة «سين»

دأب «إليوت» على الذهاب إلى السيدة «سين» منذ قرابة شهر؛ منذ بدء الدراسة في سبتمبر. ففي العام الماضي اعتنت به طالبة جامعية تُدعى «آبي»؛ فتاة نحيفة ذات بشرة تعلوها البُقع، اعتادت أن تقرأ تلك الكتب التي لا تحمل صوراً على أغلفتها، وكانت ترفض تماماً أن تطهو له أي طعام يحوي اللحم. وقبل ذلك كانت تلك المرأة العجوز ـ السيدة «لندين» ـ تحييه لدى عودته كل مساء؛ فكانت ترتشف القهوة من التّرْمُس وتعكف على حل الكلمات المتقاطعة، بينما «إليوت» يلعب بمفرده. حصلت «آبي» على درجتها العلمية، وانتقلت إلى جامعة أخرى، بينما انتهى الأمر بالاستغناء عن خدمات السيدة «لندين»، عندما اكتشفت والدة «إليوت» أن كمية الويسكي في ذاك التّرْمُس تفوق كمية القهوة. ثم أتتهم السيدة «سين»، وعلّقت تلك المخطوطة المنمّقة المكتوبة على فهرس للبطاقات خارج المتجر: «زوجة أستاذ جامعي؛ مسؤولة وحنونة، وأعتني بطفلك في منزلي». وفي حديثهما الهاتفي أخبرتها والدة «إليوت» بأن جليسة الأطفال السابقة كانت تأتيهم في منزلهم. «إن إليوت في الحادية عشرة من عمره، وبوسعه أن يأكل ويمضي وقته بمفرده؛ وكل ما أريده أن يكون معه شخص كبير بالمنزل، فقد تقع حالة طارئة». ولكن السيدة «سين» لم تكن تتقن قيادة السيارات.

* * *

«كما ترين؛ منزلنا هادىء ونظيف، وآمن جداً على الأطفال».. قالت السيدة «سين» في أول لقاء لهما. وكانت تلك شقة جامعية تقع على أطراف الحرم الجامعي. أما البناية، فكانت ببهوٍ أرضيته مغطاة بالبلاط على شكل مربعات سود غير جذابة، وصف من صناديق البريد عليها علامات إما بأشرطة الاحتفالات أو البطاقات البيض. وبالداخل، كانت الظلال المتداخلة التي تركتها المكنسة الكهربائية ثابتة على سطح بساط فاخر بلون

Twitter: @ketab_n

الكمثرى. وأمام الأريكة والمقاعد كانت بقايا بُسُط أخرى غير متناسقة، بدت مثل بُسُط الترحيب الفردية التي توضع حيث من المتوقع أن تطأ أقدام الأشخاص. أما أغطية المصابيح البيض، أسطوانية الشكل، على جانبي الأريكة، فكانت لم تزل مغلّفة بغطاء المصنع البلاستيكي. حتى التلفاز والهاتف كانا مُغطيين بقطع من النسيج الأصفر ذي حواف صدفية. أما الشاي فكان في وعاء رمادي طويل، وُضع في صينية إلى جانب الأقداح، وبعض من كعك الزبد. وكان السيد «سين» رجلاً قصير القامة، ممتلئ الجسد، بعينين بارزتين قليلاً، ونظارات بإطار مستطيل ذي أركان سود. وببعض الجهد استطاع السيد «سين» أخيراً أن يضع ساقاً فوق الأخرى، وأن يرفع قدحه بكلتا يديه ليقرّبه من فمه. حتى حين لم يكن يرتشف منه؛ ولم يكن أي من الزوجين «سين» ينتعل حذاءً؛ وكان «إليوت» قد لاحظ أحذية عديدة فوق رفوف مكتبة صغيرة لدى الباب الأمامي، وكان كل منهما يرتدي نعلاً منزلياً بلاستيكياً. «إن السيد سين يدرّس مادة الرياضيات في الجامعة».. قالت السيدة «سين» لتقدّم زوجها، وكأن المعرفة بينهما طفيفة.

كانت السيدة «سين» في نحو الثلاثين من عمرها؛ وعلى الرغم من الفجوات التي تباعد بين أسنانها، والبثور الشاحبة فوق ذقنها، إلا أن عينيها كانتا جميلتين، يظللهما حاجبان كثيفان لافتان، يمتدان لأكثر من الاتساع الطبيعي للجفنين. أما رداؤها فكان أبيض برّاقاً مزركشاً بقماش بسيلي برتقالي، بدا أكثر ملاءمة للقاء في المساء عن ظهيرة أغسطس تلك، برذاذ أمطاره الطفيف. ولقد غطّت السيدة «سين» شفتيها بزبد القرنفل اللامع، بلون طفيف على حافتي الشفتين.

وعلى الرغم من ذلك، رأى «إليوت» أمه في سروالها القصير، بلونه البيج، المعقود عند الركبتين، وحذاءها الذي بدا غريباً بنعله المصنوع من الحبائل، تبدو أكبر سناً من السيدة «سين». أما شعرها القصير ـ تماماً كسروالها ـ فكان ضعيفاً جداً وتقليدياً، وفي تلك الغرفة، حيث كل الأشياء مغطاة بعناية، بدت ركبتاها وفخذاها العاريان وكأنها معرّضة لخطر ما. وفي كل مرة كانت السيدة «سين» تمد صحن الكعك في اتجاهها، تُعرض عنه والدة «إليوت»، وتشرع في توجيه سيل من الأسئلة، ثم تدوّن الإجابات في مفكرتها.

Twitter: @ketab_n

هل سيكون هناك أطفال آخرون بالمنزل؟ هل سبق للسيدة «سين» أن عملت في رعاية أطفال آخرين من قبل؟ منذ متى تعيش في هذه البلدة؟ وكان أكثر ما يقلقها هو عدم معرفة السيدة «سين» بقيادة السيارة. كانت والدة «إليوت» تعمل في مكتب على مسافة خمسين ميلاً إلى الشمال، بينما يعيش والده ـ وفقاً لآخر ما سمعته عنه ـ على مسافة ألفي ميل إلى الغرب.

«الحق أنني كنت أعطيها دروساً».. قال السيد «سين» وهو يضع قدحه فوق منضدة القهوة، وكانت تلك المرة الأولى التي يتفوّه بها بشيء في هذا اللقاء، ثم أردف: «وفي تقديري أن السيدة سين سوف تحصل على رخصة قيادتها بحلول شهر ديسمبر».

«أحقاً؟».. قالت السيدة «إليوت» وهي تدوّن هذه الملاحظة في مفكرتها.

– «نعم، فأنا أتعلّم القيادة الآن، ولكني تلميذة بطيئة؛ ففي المنزل، كما تعلمين، هناك من يقود».

– «تعنين أن لديكِ سائقاً خاصاً؟»

نظرت السيدة «سين» إلى زوجها، فأطرق، وأطرقت كذلك والدة «إليوت»، ثم شرعت تنظر في الغرفة من حولها، «وهذا كل ما .. في الهند؟». «نعم ..»، أجابت السيدة «سين» وكأن ذكر الكلمة قد أطلق شيئاً بداخلها، فرتّبت حدّ الساري الذي ترتديه ويرتفع على نحو مائل فوق صدرها، وراحت بدورها تجول بعينيها في أرجاء الغرفة، وكأنها ترى في المصابيح الجانبية، وفي وعاء الشاي، وفي الظلال المتجمدة فوق البساط، شيئاً يعجز الآخرون عن رؤيته، ثم أردفت: «كل شيء هناك».

لم يمانع «إليوت» في الذهاب إلى منزل السيدة «سين» بعد المدرسة. فبحلول سبتمبر كانت البرودة تسري في جنبات منزل الشاطئ الصغير الذي يعيش فيه مع أمه على مدار العام؛ كان يتعيّن على «إليوت» وأمه أن يحضرا جهاز التدفئة المتنقل وهما يتحركان من غرفة إلى أخرى، وأن يُحكما إغلاق النوافذ بالألواح البلاستيكية. وكان الشاطئ خالياً، ولا شك في أن اللعب بمفرده لم يكن أمراً مسلياً بالنسبة إلى «إليوت». فلم يكن يتبقى من

Twitter: @ketab_n

الجيران بعد يوم عيد العمّال سوى زوجين شابّين، لا يوجد لديهما أطفال، ولم يعد «إليوت» يستمتع بجمع القواقع المتكسّرة في دلوِه، ولا بقذف الطحالب البحرية المنتشرة كصفوف من اللازانيا الزمردية على رمال الشاطئ. أما شقة السيدة «سين» فكانت دافئة، بل دافئة أكثر من اللازم أحياناً، حيث شبكات التدفئة تطلق هسيسها باستمرار كوعاء الطهي بالضغط. وتعلّم «إليوت» أن أول ما يفعله هو خلع نعليه لدى باب منزل السيدة «سين»، وأن يضعهما فوق المكتبة في جوار صف من نعال السيدة «سين»، المختلفة الألوان، بنعلها المسطح كالورق المقوّى، وحلقة من الجلد للإمساك بأصبع قدمها الكبيرة.

استمتع «إليوت» بصفة خاصة بمراقبة السيدة «سين» وهي تُقطّع الأشياء جالسةً فوق ورق الجرائد المفروش على أرضية غرفة المعيشة، وتستخدم بدلاً من السكين نصلاً معقوفاً كقوس سفن «الفايكينج» في إبحارها للمعارك في البحور البعيدة، وفي أحد طرفيه كانت مثبّتة قاعدة خشبية. أما الحديد فكان أكثر سواداً من الفضة، ويفتقر إلى الصقل والتلميع، بذروة مسننة، أخبرت السيدة «سين» «إليوت» بأن الغرض منها هو التقطيع. وفي عصر كل يوم كانت السيدة «سين» تثبّت النصل وتحتفظ به في مكان مُحكم، بحيث يلتقي النصل في قاعدته بإحدى الزوايا. وبمواجهة الحافة الحادة دون لمسها أبداً. كانت تحمل ثمار الخضروات كاملةً بين يديها وتقطعها إربا: القنبيط، والكرنب، والجوز؛ فتقسمها إلى نصفين، ثم إلى أرباع، وسرعان ما تصنع منها مكعبات وشرائح وقطعاً صغيرة. كان بوسعها أن تقشّر ثمرة البطاطس في ثوانٍ. وأحياناً كانت تجلس القرفصاء، أو باسطةً ساقيها، وتحيط بها مجموعة من المصافي، وأوعية المياه المسطحة التي كانت تضع بها المكوّنات التي قامت بتقطيعها.

وبينما هي تعمل، كانت السيدة «سين» تستبقي عيناً على التلفاز وعيناً على «إليوت»، فيما بدا أنها لا تنظر إلى النصل إطلاقاً. وعلى الرغم من ذلك، فإنها رفضت أن تدع «إليوت» يدور من حولها وهي تقوم بأعمال التقطيع تلك. «هلا جلست من فضلك، فلن يستغرق هذا أكثر من بضع دقائق أخرى».. قالت السيدة «سين» وهي تشير إلى الأريكة التي كانت تحتفظ بها مغطاة طوال الوقت بغطاء الفراش بلونيه الأخضر والأسود،

Twitter: @ketab_n

والمطبوع عليه صفوف من الفيلة تحمل على ظهورها المقاعد الضخمة المغطاة. وكان ذلك الإجراء اليومي يستغرق نحو الساعة، وحتى ينشغل «إليوت» في هذا الوقت؛ كانت تعطيه أجزاء القصص الملونة من الصحف، وقطع الكعك المغطاة بزبد الفول السوداني، وأحياناً مصّاصة أو أعواد الجزر التي قطعتها بنصلها ذاك. ولو استطاعت لكانت أقامت منطقة محظورة من حولها. بيد أنها خالفت القواعد ذات مرة وطلبت من «إليوت» أن يحضر لها شيئاً من المطبخ. «إن لم تمانع، هلا أحضرت لي وعاءً بلاستيكياً كبيراً بما يكفي لاحتواء هذه السبانخ؟ ستجد واحداً في الخزانة الصغيرة إلى جوار الثلاجة. فقط كن حذراً يا عزيزي». وبينما كان يقترب من الخزانة، أردفت له: «ضعه على منضدة القهوة فحسب، يمكنني أخذه من هناك، وشكراً لك».

وكانت السيدة «سين» قد جلبت هذا النصل من الهند، فلقد كان جلياً أن هناك واحداً منه على الأقل في كل منزل. ولقد أخبرت «إليوت» ذات يوم قائلة: «كلما كان هناك زفاف في العائلة، أو احتفال كبير لأي سبب، كانت أمي ترسل لإخبار كل نساء الجيرة كي يحضرن أنصالاً كهذا النصل، ثم يجلسن في دائرة هائلة على سطح منزلنا؛ يضحكن ويثرثرن وهن يقطّعن خمسين كيلوجراماً من الخضراوات، ويبقين على هذا الحال طوال الليل». وكانت السيدة «سين» تنكّب في اهتمام على عملها ذاك؛ فكانت تصنع لوحة من قشر الخيار والباذنجان والبصل من حولها. «وكان من المستحيل أن نغفو في تلك الليالي من فرط ثرثرتهن». ثم توقفت عن الحديث لتنظر صوب شجرة الصنوبر خارج نافذة غرفة المعيشة، وتابعت: «أما هنا.. في هذا المكان حيث أحضرني السيد سين.. فأحياناً أجد صعوبة في النوم من فرط الصمت!»

وفي يوم آخر، جلست السيدة «سين» تنتزع الدهن الأصفر من أجزاء الدجاج، ثم تقسّمها بين الفخذ والساق. وبينما كانت العظام تنكسر بفعل النصل، كانت أساورها الذهبية تندفع وتتزاحم، ويبرق ساعداها وهي تزفر بصوت مسموع من أنفها. ثم توقفت لدى نقطة ما، وأمسكت بالدجاجة بكلتا يديها، وحدّقت خارج النافذة ولم تزل دهون وأوتار الدجاجة متعلقة بخواتمها.

– «إليوت .. لو أنني شرعت الآن أصرخ بأعلى صوت ممكن.. هل تظن أحداً سيأتي إليّ؟»

Twitter: @ketab_n

– «ما الخطب سيدة سين؟».

أجابته وهي تهز كتفيها: «لا شيء.. أسألك فقط عمّا إذا كنت تظن أن أحداً سيهرع لنجدتي»

– «ربما..»

– «في بيتنا .. هذا هو كل ما يجب عليك فعله. فليس لدى الجميع هواتف، فيكفي أن ترفع صوتك قليلاً، أو تعبّر عن حزن أو سرور، وسوف تجد كل جيرانك ونصف جيران جيرانك قد أتوا ليشاركوك الخطب، أياً كان، ويساعدوك في الترتيبات».

وكان «إليوت» قد أدرك أنه متى ذكرت السيدة «سين» (بيتنا) فإنها تعني الهند، وليس تلك الشقة التي تجلس فيها وتقطع الخضراوات. وراح يفكّر في بيته؛ ذلك الكائن على مسافة خمسة أميال، والزوجين الشابين اللذين يلوّحان من وقت إلى آخر وهما يعدوان على طول الشاطئ وقت المغيب. وتذكّر ذلك الاحتفال الذي أقاماه يوم عيد العمال؛ فتجمّع الناس على ظهر المركب، يأكلون، ويشربون، وصوت ضحكاتهم يعلو على الأصوات الضجرة للأمواج العاتية. غير أن «إليوت» وأمه لم يكونا من بين المدعوين، على الرغم من أن ذلك كان يوماً من الأيام القليلة جداً التي تحصل فيها أمه على عطلة، وقد قضياها بالمنزل. فاهتمت بغسل الملابس، واعتنت بموازنة دفتر الشيكات، وساعدها «إليوت» على تنظيف السيارة من الداخل. واقترح عليها «إليوت» أن يذهبا إلى محطة تنظيف السيارات على بُعد بضعة أميال أسفل الطريق، كما كانا يفعلان من وقت إلى آخر، فيمكثان داخل السيارة في أمان وبلا ابتلال، بينما الماء والصابون وأشرطة القماش العملاقة تضرب زجاج وجدار السيارة، إلا أن أمه كانت منهكة، واكتفت بتنظيف السيارة بخرطوم المياه. وعندما حلّ المساء، وبدأ الحشد من جيرانهم يرقصون، بحثت عن رقم هاتفهم في الدليل، واتصلت بهم لتطلب منهم أن يخفضوا من أصواتهم.

وأخيراً قال «إليوت» للسيدة «سين»: «ربما يتصلون بكِ.. ولكن ربما يشتكون من أنكِ تصدرين الكثير من الضجيج».

ومن مكانه فوق الأريكة كان بوسع «إليوت» أن يشم رائحة النفتالين والكمون، وأن يرى بوضوح ذلك الفارق المتمركز بدقة في منتصف شعر رأسها المُضفّر، المصبوغ باللون

Twitter: @ketab_n

القرمزي، ومن ثمّ كان يبرق في احمرار. في البداية كان «إليوت» يتساءل ما إذا كانت السيدة «سين» قد قطعت فروة رأسها، أو أن شيئاً قد عضّها هناك، حتى رآها ذلك اليوم وهي تقف أمام مرآة الحمام، وفي جدية تضيف مسحوقاً أحمر برأس دبوس تحتفظ به في علبة مربى صغيرة. ثم سقط بعض ذلك المسحوق فوق أنفه وهي تستخدم الدبوس في وضع نقطة منه فوق حاجبها. ثم قالت موضّحةً عندما سألها «إليوت» عنه: «ينبغي أن أضع هذا المسحوق كل يوم طوال أيام زواجي».

– «أتعنين شيئاً مثل خاتم الزواج؟»

– «تماماً يا إليوت.. كخاتم الزواج، ولكن من دون خشية فقده في ماء غسل الصحون».

وبحلول وقت وصول والدة «إليوت» في السادسة والثلث، كانت السيدة «سين» تتأكد من التخلص من كل ما قد يدل على أعمال التقطيع تلك؛ فالنصل نظيف، ومجفف، ومطوي، وفي مكان بعيد في خزانة عالية، تصل إليها بمساعدة السُلّم النقّال. وبمساعدة «إليوت» كانت تجمع كل ورق الجرائد بما فوقه من قشور، وبذور، وجلود. وفي الجزء الأعلى من المنضدة اصطفت الأواني والأوعية والمصافي، بينما كانت تزن التوابل والمعاجين وتخلطها بعضها ببعض، وفي آخر الأمر تطهو مجموعة من أنواع الحساء فوق لهب النيران الحلزوني. لم تكن تلك مناسبة خاصة، ولم تكن السيدة «سين» تنتظر صحبة أبداً؛ كان ذلك مجرد طعام عشاء لها وللسيد «سين»، كما بدا أخيراً من صحنين وكأسين وضعتهما ـ من دون مناديل ولا فضيّات ـ فوق المنضدة الفورميكا مربعة الشكل، الكائنة في ركن غرفة المعيشة.

وبينما كان «إليوت» يدفع بورق الجرائد في عُمق سلة المهملات، شعر كأنه والسيدة «سين» ينتهكان قاعدة ما غير معلنة. ربما كان ذلك بسبب العجلة التي كانت السيدة «سين» تنتهجها في إنجاز كل الأعمال؛ فتنظف بقايا السكر والملح من أظافرها، وتضيف الماء إلى حبّات العدس، وتمسح كل الأسطح التي يمكن تخيلها، وتغلق أبواب الخزانات

Twitter: @ketab_n

بمجموعة متعاقبة من النقرات؛ مما جعل «إليوت» يشعر بشيء من فزع لرؤية أمه فجأة، وهي ترتدي جواربها الشفّافة وسترتها المحشوة الكتفين التي ترتديها لعملها، وهي تجوب أركان منزل السيدة «سين». كانت تميل إلى أن تحوم حول الجانب الآخر من إطار الباب وهي تدعو «إليوت» كي يلبس حذاءه ويجمع حاجياته، إلا أن السيدة «سين» لم تكن لتسمح بهذا. كل مساء كانت تصر على أن تجلس والدة «إليوت» فوق الأريكة، فتقدّم لها شيئاً لتأكله: كوباً من اللبن الرائب الوردي البرّاق بعصير الزهر، واللحم المفري بالزبيب، ووعاءً من سميد الحلاوة الطحينية.

– «حقاً سيدة سين .. أنا أتناول غدائي بالفعل، فلا داعي لأن تتحمّلي هذا القدر من التعب».

– «ليس في الأمر أي متاعب؛ تماماً مثل إليوت. لا يوجد تعب على الإطلاق».

شرعت والدة «إليوت» تقضم ما قدّمته لها السيدة «سين» وعيناها تنظران إلى أعلى، وكأنها تستطلع رأيها في ما تتذوقه، بينما تضغط ركبتيها بعضهما ببعض، وكعبا حذائها العالي الذي لا تخلعه أبداً يغوصان في البساط الأرضي كمثريّ اللون. وأخيراً تنتهي قائلة: «إنه لذيذ الطعم»، وهي تضع الصحن بعد قضمة أو اثنتين. كان «إليوت» يعرف أن أمه لم تستسغ ذلك الطعم؛ فلقد أخبرته بذلك ذات مرة وهما في السيارة. كما كان يعرف أنها لم تتناول أي غداء في عملها، حيث كان أول ما فعلته لدى عودتهما إلى منزل الشاطئ أن صبّت لنفسها كأساً من الشراب وتناولت معه شطيرة جبن؛ وأحياناً ما كانت تكثر من هذا إلى درجة فقدانها شهيتها للطعام بوصول «البيتزا» التي عادة ما يطلبونها للعشاء. فكانت تجلس إلى جواره على المنضدة وهو يتناول طعامه، فتحتسي المزيد من الشراب وتسأله كيف كان يومه، ولكنها عادة ما تنتهي إلى الشاطئ لتدخّن سيجارة، تاركة «إليوت» ليجمع بقايا الطعام.

* * *

وفي كل مساء كانت السيدة «سين» تقف في بستان من أشجار الصنوبر إلى جوار الطريق الرئيسي حيث تُقلّ حافلة المدرسة «إليوت»، ومعه اثنان أو ثلاثة من الأطفال الذين

Twitter: @ketab_n

يسكنون في الجوار. ودائماً ما كان يخالج «إليوت» شعور بأن السيدة «سين» كانت تقف في انتظاره قبل موعده بكثير، وكأنها متلهفة إلى تحية شخص لم ترَه منذ سنوات. كان النسيم يداعب الشعرات فوق صدغيها، والوهج القرمزي يبرق في فارق رأسها لحدائته. وكانت تضع نظارة شمسية زرقاء كبيرة الحجم نوعاً، قياساً إلى حجم وجهها. أما نمط ثوبها فكان يختلف في كل يوم، فيروح يتحرك أسفل حاشية معطفها متعدد الألوان، والذي يتناسب مع كل الأحوال الجوية. وكان البلوط واليسروع يتناثران فوق الدائرة الأسفلتية التي تشكّل مُجمّعاً يتألف تقريباً من عشر بنايات حجرية؛ كلها متطابقة، ومطوّقة بمساحة مشتركة من ألواح الأشجار الطويلة. وفي طريق عودتهما من مكان وقوف حافلة المدرسة؛ كانت تُخرج حقيبة الشطيرة من جيبها، وتقدّم إلى «إليوت» البرتقال المقشّر، أو الفول السوداني خفيف الملح، الذي سبق أن قشّرته.

وكانا يتوجّهان مباشرة إلى السيارة، حيث تقضي السيدة «سين» عشرين دقيقة في التدرّب على القيادة. كانت تلك سيارة «سيدان» بلون الحلوى، ومقاعدها من الفينيل. وكان بها مذياع متوسط المدى ذو أزرار بلون الكروم، وعلى حافة المقعد الخلفي كانت علبة من المناديل الورقية ومكشط الجليد. ولقد أخبرت السيدة «سين» «إليوت» ذات مرة بأنها لا تشعر بارتياح لتركها إياه بمفرده في الشقة، غير أن «إليوت» كان يعرف أنها تريده أن يجلس إلى جوارها لأنها كانت تخشى القيادة، وترتعب من هدير المحرك، فكانت تضع يديها فوق أذنيها لتمنع عنهما الصوت؛ وهي تضغط بقدمها المنتعلة ذلك الخف دوّاسة الوقود ليدور المحرّك مسرعاً.

– «يقول السيد سين: إن كل الأشياء سوف تتحسن ما إن أحصل على رخصة القيادة. ما رأيك يا إليوت؟ هل ترى أن الأشياء سوف تتحسّن بالفعل؟»

أجابها مقترحاً: «سوف يمكنك الذهاب إلى أماكن كثيرة؛ بل إلى كل مكان».

– «وهل أستطيع القيادة حتى كلكتا؟ كم يستغرق هذا من الوقت يا إليوت؟ عشرة آلاف ميل بسرعة خمسين ميلاً في الساعة»؟

لم يستطع «إليوت» إجراء المسألة الحسابية في رأسه، فشرع يراقب السيدة «سين» وهي تعدّل من وضع مقعد السائق، والمرآة الأمامية، وتضع النظارة الشمسية فوق رأسها. ثم

Twitter: @ketab_n

ضبطت المذياع على محطة تذيع موسيقى السيمفونيات، ولقد سألته ذات مرة: «هل هذه لبتهوفن؟»، وهي تنطق المقطع الأول من اسم هذا المؤلف الموسيقي كـ «بايت» بدلاً من «بت». ثم أنزلت زجاج النافذة إلى جوارها، وطلبت من «إليوت» أن يفعل الشيء نفسه، وأخيراً ضغطت بقدمها دواسة الفرامل، وحوّلت عصا التحويل الأتوماتيكي وكأنها قلم ضخم يرشح بالحبر، ثم شرعت تزحف شبراً خارج المرآب؛ فدرات حول مجمّع البنايات مرّة، ثم مرّة أخرى.

– «ما رأيك يا إليوت؟ هل تعتقد أنني سوف أجتاز اختبار القيادة؟»

إلا أنها كانت مشوّشة على نحو مستمر؛ فهي توقف السيارة دون إنذار لمجرد أن تستمع إلى شيء ما في المذياع، أو للتحديق في شيء ما؛ أي شيء على الطريق. وإذا مرّت بشخص ما، تلوّح له، وإذا ما لمحت طائراً على مسافة عشرين قدماً أمامها، كانت تدق بوق السيارة بسبّابتها وتنتظر حتى يطير بعيداً. ولقد قالت له ذات مرة: إن السائق في الهند يجلس ناحية اليمين، وليس اليسار. وهكذا مضيا يزحفان في بطء إلى جوار الأرجوحة، ومبنى المغسلة، وصناديق القمامة الخضر الداكنة، وصفوف السيارات المتوقفة في المرآب. وفي كل مرة كانا يقتربان فيها من بستان أشجار الصنوبر حيث الأسفلت يتصل بالطريق الرئيسي؛ كانت السيدة «سين» تميل إلى الأمام، وتلقي بكل وزنها على الفرامل بينما تندفع السيارات من خلفها. كان ذلك طريقاً ضيقاً ملوناً بشرائط صفر صلبة، وحركة المرور تسري في ممر واحد في أي من الاتجاهين.

– «مستحيل يا إليوت .. كيف لي أن أذهب إلى هناك؟»

– «عليكِ الانتظار حتى تتأكدي من أن الطريق خالٍ»

– «ولمَ لا يحاول أحدهم أن يبطئ قليلاً؟»

– «هيا .. فالطريق خالٍ الآن».

– «ولكن ماذا عن السيارات من جهة اليمين، هل تراها؟ وانظر .. هناك شاحنة من خلفها. على أية حال، ليس مسموحاً لي بأن أقود فوق الطريق الرئيسي من دون السيد سين».

Twitter: @ketab_n

فقال إليوت: «عليكِ أن تستديري وتسرعي»، كان ذلك ما تفعله أمه، وكأنها لا تفكر قبل أن تفعل. ولكن الأمر يبدو بسيطاً عندما يكون إلى جوار أمه، وهما في طريق عودتهما مساءً إلى منزل الشاطئ. عندها يكون الطريق مجرد طريق، والسيارات الأخرى مجرد جزء من المشهد. ولكن عندما كان يجلس إلى جوار السيدة «سين»، تحت شمس الخريف التي تبرق بلا دفء عبر الأشجار، كان يرى كيف أن سيل السيارات ذاته يجعل مفاصلها تشحب، ومعصميها يهتزان، وتتعثر في حديثها بالإنكليزية.

«الجميع، وهذا الشعب، مشغولون جداً بعالمهم».

أدرك «إليوت» أن هناك شيئين يُدخلان السعادة على السيدة «سين»؛ أحدهما كان استلام خطاب من أسرتها. فكانت عادتها أن تتحقق من صندوق البريد بعد تدريبها على القيادة، تفتح الصندوق بنفسها ولكن تطلب من «إليوت» أن ينظر بداخله، وتخبره عمّا يبحث، ثم تغلق عينيها وتظللهما بيديها بينما يقلّب هو الفواتير والمجلات التي ترد باسم السيد «سين». في البداية كان «إليوت» يرى في قلقها أمراً غير مفهوم؛ فلدى أمه صندوق بريد في المدينة، وهي تجمع منه الخطابات على فترات متباعدة، حتى إنهم قطعوا الكهرباء عن المنزل ذات مرة ثلاثة أيام. ومضت أسابيع في منزل السيدة «سين» قبل أن يعثر «إليوت» على خطاب جوي أزرق اللون، مُحبّب الملمس، ومكتظ بطوابع يطل منها رجل أصلع أمام خزانة الغزل، وأختام البريد تضيف سواداً فوق الطوابع.

– «أهذا ما تبحثين عنه سيدة سين؟»

وللمرة الأولى احتضنته السيدة «سين»، فصافح وجهه رداءها الهندي، وأحاطته برائحتها التي تشبه النفتالين والكمّون. وأخيراً، اختطفت الخطاب من يده.

وما إن أصبحا داخل الشقة حتى خلعت نعليها؛ كلاً في اتجاه، وأزاحت دبوس شعرّها، ومزّقت ظرف الخطاب في ثلاث خطوات، وطفقت عيناها تروحان جيئة وذهاباً فوق السطور وهي تقرأ. وما إن انتهت من خطابها حتى أزاحت المفرش المطرّز الذي تغطّي به الهاتف، وطلبت الرقم، ثم سألت مجيبها: «هل لي أن أتحدث إلى السيد سين من فضلك؟

Twitter: @ketab_n

أنا زوجته، والأمر جد خطير».

بعد ذلك راحت تتحدث بلغتها الأصلية، والتي بدت سريعة وغير مستساغة في أذني «إليوت»؛ من الواضح أنها تقرأ له محتوى الخطاب. كان صوتها أعلى من المعتاد، وبدا أنه يتحوّل لدى النقاط الرئيسية في الخطاب. وعلى الرغم من أنها كانت تقف أمامه بوضوح، فإن «إليوت» شعر بأن السيدة «سين» لم تعد موجودة في الغرفة ذات البساط كمثريّ اللون.

وفجأة أصبحت الشقة أصغر من أن تحتوي إحساسها؛ فشرعا يعبران الشارع الرئيسي، ومشيا مسافة قصيرة حتى ساحة الجامعة الرباعية الزوايا؛ حيث الأجراس في البرج الحجري تدق كل ساعة، ثم تجولا في اتحاد الطلاب، واستخدما معاً صينية واحدة في الكافيتيريا، فتناولا البطاطس المقلية الموضوعة في علبة كرتونية على شكل قارب، وهما يجلسان وسط الطلاب الذين يثرثرون حول الطاولات المنتشرة. واختار «إليوت» أن يشرب الصودا في كوب ورقي، بينما احتست السيدة «سين» الشاي مع السكر والقشدة. وبعد أن فرغا من تناول الطعام، شرعا يستكشفان المبنى المعماري الفني، فيشاهدان المنحوتات واللوحات في الممرات الباردة التي تعج بعبق الطلاء الرطب والصلصال. وأخيراً مرّا ببناية الرياضيات حيث كان السيد «سين» يدرّس صفوفه.

وانتهى بهما الأمر إلى بناية ألعاب القوى الصاخبة، والتي تفوح منها رائحة الكلور، وعبر نافذة الدور الرابع المتسعة أخذا يراقبان السبّاحين وهم يعبرون من ناحية إلى أخرى أحواض السباحة الفيروزية اللون. وهنا أخرجت السيدة «سين» خطابها من محفظتها، وراحت تفحصه من الأمام ومن الخلف، ثم فتحته وقرأته لنفسها، وتطلق تنهيدة بين حين وآخر. وعندما انتهت منه، عادت إلى مشاهدة السبّاحين لبعض الوقت.

«لقد أنجبت أختي طفلة جميلة. أحسبها سوف تكون في الثالثة من عمرها عندما أستطيع رؤيتها؛ يتوقف هذا بالطبع على ما إذا كان السيد سين سوف يحصل على منصبه بشكل نهائي. أي أنها ستجد خالتها غريبة عليها؛ فإذا جلسنا إلى جوار بعضنا في القطار، لن تتعرّف إلى وجهي».. قالت السيدة «سين» وأبعدت الخطاب، ثم وضعت يدها على

Twitter: @ketab_n

رأس «إليوت»، وقالت: «هل تفتقد أمك يا إليوت في هذه الأوقات التي تقضيها معي؟»
إلا أن هذه الفكرة لم تخطر له على بال أبداً.

– «لا شك في أنك تفتقدها. والحق أنني أشعر بالخزي كلما فكّرت في ولد وحيد مثلك يبتعد عن أمه كل هذا القدر من ساعات اليوم».

– «ولكني أراها ليلاً».

– «عندما كنت في مثل عمرك، لم أفكّر أبداً في أن يأتي يوم أبتعد فيه كل هذه المسافة. ولكنك أكثر حكمة يا إليوت؛ تعرف بالفعل المذاق الحقيقي للأشياء».

أما الأمر الآخر الذي كان يُدخل السعادة على السيدة «سين» فكانت الأسماك من البحر. كانت دائماً ترغب في سمكة واحدة، وليس محارة، أو الشرائح التي عمدت والدة «إليوت» إلى شيّها ذات يوم منذ عدة شهور عندما دعت أحد رجال مكتبها إلى العشاء؛ وقضى الليلة في غرفة نوم أمه، غير أن «إليوت» لم يره ثانية بعد تلك الليلة. وذات ليلة، عندما أتت والدة «إليوت» لأخذه، قدّمت لها السيدة «سين» قطعة من لحم التونة المفري، وقد شرحت لها أنه كان من المفترض أن تُصنع من سمكة تُدعى «بيتكي»، وأردفت لها معتذرةً: «إنه أمر محبط بحق أن تعيشي بالقرب من المحيط ولا تحصلي على الكثير من الأسماك». ثم قالت إنها في فصل الصيف كانت تحب الذهاب إلى سوق بالقرب من الشاطئ، وأضافت أنه على الرغم من أن الأسماك هناك لا تعني شيئاً مقارنة بمذاق الأسماك في الهند، لكنها على الأقل طازجة. أما الآن والطقس يزداد برودة، لم تعد الزوارق تذهب للصيد بصفة مستمرة، وأحياناً لا توجد سمكات كاملة لأسابيع متصلة.

قالت والدة «إليوت» مقترحة: «جرّبي الشراء من المتجر».

هزّت السيدة «سين» رأسها وقالت: «من المتجر، يمكنني إطعام هرّة اثنتين وثلاثين مرة من اثنتين وثلاثين علبة، لكني لا أجد سمكة واحدة كاملة أبداً». كانت السيدة «سين» قد كبرت وهي تأكل الأسماك مرتين كل يوم، وأخبرتهم بأن الناس في «كلكتا» يبدؤون يومهم وينهونه بأكل السمك، وإذا حالفهم الحظ يأكلون وجبة خفيفة من الأسماك بعد

Twitter: @ketab_n

انتهاء اليوم الدراسي. وهم يأكلون ذيل وبيض الأسماك، وحتى رأسها. والسمك متاح لديهم في كل الأسواق، وفي كل ساعة، من الفجر حتى منتصف الليل. «كل ما يجب عليك عمله هو السير مسافة بسيطة من المنزل، فتجدينه».

كانت السيدة «سين» تعمد كل بضعة أيام إلى البحث في صفحات الدليل الأصفر عن رقم وضعت على هامشه علامة، وتسأل ما إذا كان لديهم أسماك كاملة. فحال وجدتها، كانت تطلب من المتجر أن يحجزوها لها، «نعم .. باسم السيد سين .. بحرف السين .. سوف يأتي لأخذها»، ثم تتصل بالسيد «سين» في الجامعة. وبعدها بعدة دقائق يصل السيد «سين»، فيربّت على رأس «إليوت»، ولكنه لا يُقبّل السيدة «سين»، فيجلس إلى المنضدة الفورميكا يقرأ البريد الخاص به مع قدح من الشاي قبل أن يخرج، ليعود بعد نصف ساعة وهو يحمل حقيبة ورقية مرسوماً فوقها سرطان البحر مبتسماً، فيناولها للسيدة «سين»، ثم يعود إلى الجامعة لفصوله المسائية. وحدث ذات يوم أن ناول السيدة «سين» الحقيبة الورقية وقال: «لن أستطيع جلب الأسماك لبعض الوقت؛ يجب أن أبدأ قضاء بعض الساعات المكتبية. فهلا قمتِ بطهي الدجاج المجمّد؟»

وفي الأيام القليلة التالية، بدلاً من الاتصال بمتجر الأسماك، كانت السيدة «سين» تذيب أرجل الدجاج في حوض المطبخ، ثم تقوم بتقطيعها باستخدام نصلها ذاك. ولقد طهت لهم ذات مرة طبق الفاصوليا الخضراء والسردين المعلّب. ثم حدث في الأسبوع التالي أن اتصل مدير المتجر بالسيدة «سين» مفترضاً أنها ترغب في بعض السمك، وأخبرها بأنه سوف يحتفظ به باسمها حتى آخر اليوم. فقالت السيدة «سين» وهي تشعر بالإطراء: «أليس لطيفاً منه أن يفعل هذا يا «إليوت»؟ لقد أخبرني الرجل بأنه قد بحث عن الاسم في دليل الهاتف، وأنه لم يجد سوى «سين» واحد. أتعرف كم «سين» لدينا في دليل هاتف «كلكتا» وحدها؟».

طلبت من «إليوت» أن يضع حذاءه وسترته، ثم اتصلت بالسيد «سين» في الجامعة. ربط «إليوت» حذاءه الرياضي إلى جوار المكتبة، ومكث منتظراً السيدة «سين» كي تأتي وتختار من صف نعالاتها. وبعد بضع دقائق ناداها باسمها، فلمّا لم تجبه، فك رباط حذائه

Twitter: @ketab_n

مرة أخرى، وعاد إلى غرفة المعيشة، ليجدها جالسة فوق الأريكة.. تبكي. كانت تخفي وجهها بيديها ودموعها تتسرب من بين أصابعها، وهي تتمتم شيئاً عن اجتماع اضطر السيد «سين» إلى أن يحضره. ثم وقفت ببطء، وأعادت وضع المفرش فوق الهاتف، وتبعها «إليوت» وهو يمشي للمرة الأولى منتعلاً حذاءه الرياضي فوق البساط الكمثري. حدّقت فيه السيدة «سين»، بجفنيها السفليين المنتفخين والمُحمّرين، وقالت: «أخبرني يا إليوت .. هل كان هذا مطلباً كبيراً؟»

وقبل أن يجيبها «إليوت»، كانت قد أمسكت بيده وأخذته إلى غرفة النوم، التي عادة ما كانت تبقيها مغلقة؛ حيث لم يكن - إضافة إلى الفراش الذي كان بلا لوح أمامي - سوى منضدة جانبية وُضع فوقها الهاتف، وطاولة الكي، ومكتب. شرعت السيدة «سين» تفتح أدراج المكتب وباب الخزانة التي كانت تعج بالثياب الهندية من كل لون ونوع، مزدانة بخيوط ذهبية وفضية. وكان بعضها من نسيج شفّاف رقيق، وبعضها الآخر من نسيج سميك كالستائر، مع شرائط معقودة لدى الحروف والأطراف. وكانت الثياب معلّقة داخل الخزانة على شمّاعات، بينما كانت الثياب في الأدراج مطوية على نحو مسطّح. «متى ارتديتُ هذه؟ أو هذه؟ أو هذه؟».. قالت وهي تُخرج الثوب تلو الآخر من الأدراج، ثم أنزلت العديد منها من فوق الشمّاعات، فتكوّمت الثياب مثل كومة من الأقمشة المتشابكة فوق الفراش. وانبعثت في الحجرة بأسرها رائحة النفتالين.

«ويكتبون لي كي أرسل لهم صوراً.. أرسلي لنا صوراً لحياتك الجديدة .. أي صور قد أرسلها إليهم؟».. تساءلت السيدة «سين»، ثم جلست منهكة على طرف الفراش، أو في تلك المساحة الصغيرة المتبقية من الفراش. وأضافت: «يعتقدون أنني أحيا هنا كملكة يا إليوت»، ثم نظرت إلى جدران الغرفة الشاغرة من حولها، وأردفت: «يظنون أنني أضغط على الأزرار هنا فيصبح المنزل نظيفاً؛ يظنون أنني أعيش في قصر».

وتعالى رنين الهاتف، ولكن السيدة «سين» تركته يدق عدة مرات قبل أن ترفع السماعة. وطوال المكالمة بدت وكأنها فقط تجيب عن أسئلة، وتجفف وجهها بطرف أحد الثياب. وعندما انتهت من الحديث، أعادت الثياب من دون ترتيب إلى الأدراج، ثم لبست نعليها

Twitter: @ketab_n

ولبس «إليوت» حذاءه، وذهبا إلى السيارة إلى حيث انتظرا أن يقابلهما السيد «سين».

«لماذا لا تتولّين القيادة اليوم؟».. سأل السيد «سين» زوجته ما إن أتى، وراح يدق بمفاصل أصبعه على غطاء السيارة. وكانا دائماً يتحدثان الإنكليزية في وجود «إليوت».

– «ليس اليوم، ربما في يوم آخر».

– «وكيف تتوقعين اجتياز الاختبار طالما ترفضين القيادة على الطريق وسط السيارات الأخرى؟»

– «ولكن إليوت معنا اليوم».

– «إليوت معنا كل يوم، وأنا أعمل لمصلحتك. إليوت .. هيا .. أخبر السيدة سين بأن هذا لمصلحتها».

لكنها رفضت.

ذهب ثلاثتهم في السيارة، والصمت يلف الجميع طوال الطرق ذاتها التي تتخذها والدة «إليوت» في العودة إلى منزل الشاطئ كل يوم، إلا أن هذه الرحلة في المقعد الخلفي لسيارة الزوجين «سين» بدت غير مألوفة، واستغرقت وقتاً أطول من المعتاد. حتى صرخات النوارس المملة التي يصحو عليها «إليوت» كل صباح كانت تفزعه وهي تنخفض في السماء وتخفق بجناحيها. كانت النوراس تمر الواحد تلو الآخر، والأكواخ ـ المغلقة في هذا الوقت من العام ـ التي تبيع عصير الليمون المجمّد والقواقع في الصيف. واحد فقط من هذه الأكواخ كان مفتوحاً؛ سوق السمك.

فتحت السيدة «سين» بابها، واتجهت صوب السيد «سين» الذي كان لم يزل خلف حزام مقعد السيارة، وسألته: هل ستأتي؟»

ناولها السيد «سين» بعض النقود من محفظته، وقال وهو يحدّق في ساعة لوح السيارة أمامه: «لديّ اجتماع بعد عشرين دقيقة، فلا داعي لإضاعة الوقت».

اصطحبها «إليوت» إلى داخل المحل البارد نوعاً، وجدرانه مزيّنة بالشباك والعوّامات، وقد اجتمعت مجموعة من السائحين ممن يحملون آلات التصوير حول أعناقهم؛ بعضهم يتناول المحار المحشو، وبعضهم الآخر يشير إلى المخطط الضخم الذي يوضح خمسين

Twitter: @ketab_n

نوعاً مختلفاً من أسماك شمال الأطلسي. التقطت السيدة «سين» بطاقة من الماكينة على منضدة الاستقبال وانتظرت في الطابور. أما «إليوت» فوقف إلى جوار أسماك سرطان البحر التي رُصّت واحدة فوق الأخرى في صهريجها المضبب، وحول مخالبها العُصابات المطاطية الصفر. وكان «إليوت» يراقب السيدة «سين» عندما حان دورها وهي تضحك وتثرثر مع رجل ذي وجه مشرق متورّد، ويرتدي زياً أسود من المطاط، ويحمل في كل يد سمكة ماكريل من ذيلها.

– «هل هذه الأسماك طازجة بحق؟»

– «وعلى وشك أن تجيبك بنفسها»

توجّه الرجل بالأسماك صوب كفة الميزان.

– «وهل تريدين تنظيفها سيدة سين؟»

أومأت إليه إيجاباً وقالت: «ولكن اترك الرؤوس من فضلك».

– «ألديكِ هرة بالمنزل؟»

– «لا.. بل زوج»!

وفي وقت لاحق، أخرجت السيدة «سين» نصلها من الخزانة، وبسطت ورق الجرائد فوق البساط، وراحت تفحص كنوزها الجديدة، فكانت تخرج السمكات واحدة تلو الأخرى من ورق التغليف؛ مجعّدة ولم تزل مشوبة بالدماء. فقطعت ذيولها، ونخست أمعاءها، وأخرجت الأحشاء، ثم باستخدام المقص عمدت إلى قص الزعانف، وعندما دسّت أصبعها أسفل الخياشيم كانت شديدة الحُمرة حتى بدا لون أصبعها باهتاً. وأخيراً أمسكت بجسدها، وصفّتها في خطوط على كل من طرفيها، ووضعتها على مسافات متساوية من النصل.

سألها إليوت: «لم تفعلين هذا؟»

«لأرى كم قطعة لدينا، فحال قطعتها على نحو صحيح سوف تكفي هذه السمكة لثلاث وجبات».. أجابت السيدة «سين»، ثم قطعت الرأس ووضعتها فوق طبق هندي

Twitter: @ketab_n

معدني.

في شهر نوفمبر، حلّت أيام كانت السيدة «سين» ترفض فيها أن تتدرب على القيادة. ولم يغادر النصل الخزانة، ولم يُفرش ورق الجرائد فوق الأرض. كما لم تتصل بمتجر الأسماك، ولم تُذب الدجاج. وفي صمت كانت تعد رقائق البسكويت مع زبد الفول السوداني لـ «إليوت»، ثم تجلس لتقرأ خطاباتها القديمة التي تحتفظ بها في صندوق للأحذية. وعندما يحين موعد ذهاب «إليوت»، تجمع أشياءه من دون أن تدعو أمه إلى الجلوس فوق الأريكة وتناول شيء ما قبل رحيلهما. وعندما سألت والدة «إليوت» ابنها عمّا إذا كان يلاحظ تغييراً ما في سلوك السيدة «سين»، أجابها نافياً. فلم يقل لها: إن السيدة «سين» كانت تذرع الشقة وهي تحدّق في المصابيح المظللة بالأغطية البلاستيكية وكأنها تراها لأول مرة. ولم يخبرها بأنها كانت تدير التلفاز رغم أنها لم تشاهده، أو أنها تعد لنفسها الشاي، ثم تتركه ليبرد فوق منضدة التقديم دون أن تشربه. وذات يوم أدارت شريطاً يذيع شيئاً قالت: إن اسمه «راجا»، فكان الإيقاع أشبه بعزف بطيء على الكمان ثم تتزايد سرعته بشدة، وكان المفترض أن تسمعه السيدة «سين» فقط في وقت متأخر من الظهيرة، بينما الشمس على وشك الغروب. وبينما كانت الموسيقى تدور ـ نحو الساعة ـ كانت تجلس فوق الأريكة مغمضة العينين. ثم قالت: «أظنها أكثر شجناً من ألحان بتهوفن، أليس كذلك؟». وفي يوم آخر أدارت شريطاً يتحدث لغتها، وأخبرت «إليوت» بأنه كان هدية الوداع التي أعدّتها لها أسرتها. وبينما كانت الأصوات والضحكات تتتابع، وكل منها يقول الجزء الخاص به، كانت السيدة «سين» تعرّفه بكل متحدث. «هذا عمي الثالث، وهذا ابن عمي، وأبي، وجدّي». ومن بينهم من غنّى لها أغنية، ومن قرأ لها قصيدة؛ أما الصوت الأخير فكان لأمّها. كان صوتها أكثر هدوءاً ورصانة من بقية الأصوات، وكانت تصمت لبرهة بين كل جملة وأخرى، واستغلّتها السيدة «سين» في الترجمة لـ «إليوت»: «لقد ارتفع ثمن الماعز روبيتين، وثمار المانجو المتاحة في السوق ليست جيدة المذاق. وعكرت المياه شارع الكلية». وهنا أسكتت السيدة «سين» الشريط، وقالت: «هذه الأشياء حدثت

Twitter: @ketab_n

يوم أن تركت الهند». وفي اليوم التالي، أدارت الشريط ذاته مجدداً، ولكنها أسكتته عندما شرع جدّها يتحدث، وأخبرت «إليوت» بأنها قد تلقّت خطاباً في عطلة الأسبوع، عرفت منه أن جدّها قد مات.

بعد مضي أسبوع، عاودت السيدة «سين» الطهي؛ فجلست ذات يوم تقطع شرائح الكرنب فوق أرضية غرفة المعيشة، عندما ناداها السيد «سين». كان يريد أن يصطحب «إليوت» والسيدة «سين» إلى شاطئ البحر. وفي مثل هذه المناسبات كانت السيدة «سين» ترتدي ثوبها الهندي الأحمر، وتضع على شفتيها اللون ذاته؛ وتجدد من الوهج القرمزي على جبهتها، وتعيد صبغ شعرها. ثم عقدت وشاحها أسفل ذقنها، ووضعت نظارتها الشمسية فوق رأسها، وآلة التصوير الصغيرة في محفظتها. وبينما كان السيد «سين» يُخرج السيارة من المرآب، كان يبسط ذراعه فوق مسند المقعد الأمامي إلى جواره، فبدا وكأنه يضع ذراعه على كتف زوجته. ثم قال لها: «إن الطقس يزداد برودة هنا؛ ينبغي أن نشتري لكِ شيئاً يدفئكِ أكثر من هذا المعطف الخفيف». ومن ذلك المتجر، اشتريا أسماك الماكريل، والغنج، والقاروس، ولقد صاحبهما السيد «سين» إلى داخل المتجر هذه المرة، وكان هو من سأل عمّا إذا كانت الأسماك طازجة، وعن طريقة تقطيعها. وبالفعل اشترى الزوجان الكثير من الأسماك، حتى اضطر «إليوت» إلى حمل إحدى الحقائب. وبعد أن وضعوا الحقائب في الشاحنة، أعرب السيد «سين» عن جوعه الشديد، ووافقته السيدة «سين»، ومن ثم عبروا الشارع إلى أحد المطاعم حيث نوافذ الشراء الخارجي لم تزل مفتوحة ومتاحة. وأخيراً جلس ثلاثتهم إلى إحدى طاولات الرحلات، وتناولوا سلّتين من الكعك، وأضافت السيدة «سين» الكثير من صلصة التاباسكو والفلفل الأسود على كعكها. «مثل الباكورا المشوية، أليس كذلك؟»، تورّد وجه السيدة «سين»، وتلاشى أحمر شفتيها، وكانت تضحك من كل شيء وأي شيء يقوله السيد «سين».

وخلف المطعم كان شاطئ صغير، فبعد أن انتهوا من تناول الطعام، شرعوا يسيرون لبعض الوقت على طول الشاطئ، إلا أن الرياح كانت قوية جداً بحيث اضطروا إلى السير

Twitter: @ketab_n

إلى الوراء. ثم أشارت السيدة «سين» إلى المياه وقالت: إنه في لحظة بعينها تشبه كل موجة شكل الساري المنشور فوق حبل الغسيل ليجف. وصاحت جذلة: «هذا مستحيل!»، وضحكت وهي تدور عائدة، وعيناها تغمرهما الدموع. «لا أستطيع الابتعاد عن هذا المنظر»، وبدلاً من ذلك التقطت صورة للسيد «سين» و«إليوت» وهما يقفان فوق الرمال، ثم قالت وهي تحتضن «إليوت» في معطفها وتعطي زوجها آلة التصوير: «والآن دور أحدنا»، وأخيراً كانت آلة التصوير في يد «إليوت»، وقال له السيد «سين»: «ثبّت قبضتك عليها». وبالفعل نظر «إليوت» عبر نافذة عدسة التصوير، وانتظر حتى يقترب السيد «سين» وزوجته من بعضهما، ولكنهما لم يفعلا، ولم يمسك أحدهما بيد الآخر، ولم يضع كل منهما ذراعه فوق خصر الآخر؛ بل اكتفى كل منهما بابتسامة وفمه مغلق، وكانا يغلقان أعينهما من فرط هبوب الرياح، وثوب السيدة «سين» يطير كألسنة اللهب أسفل معطفها.

وفي السيارة، حيث الدفء أخيراً، والإرهاق من رحلة السير في الرياح ومن الكعك الثقيل، راحوا يتأملون ويمتدحون جمال الكثبان والمراكب التي يرونها على البُعد، ومنظر الفنار، والشاطئ، والسماء الأرجوانية. وبعد برهة، أبطأ السيد «سين» السيارة حتى توقف إلى جانب الطريق.

فسألته زوجته: «ما الخطب؟»

– «ستقودين إلى المنزل اليوم»

– «كلا .. ليس اليوم»

«بلى .. اليوم»، قال السيد «سين» وترك السيارة، ثم فتح الباب إلى جوار السيدة «سين». وما إن فعل حتى اندفعت رياح قوية داخل السيارة، مصحوبةً بصوت الأمواج المرتطمة بالشاطئ. وأخيراً، نزلت السيدة «سين» من السيارة، ولكنها استغرقت وقتاً طويلاً في تعديل ثوبها والنظارة الشمسية، بينما استدار «إليوت» ونظر من النافذة الخلفية. كان الطريق خالياً، وأدارت السيدة «سين» المذياع، وسرى نغم الكمان في أرجاء السيارة.

أغلقه السيد «سين» وهو يقول: «لا داعي له».

Twitter: @ketab_n

أجابته وهي تديره مرة أخرى: «بل يساعدني على التركيز».

قال موجّهاً إياها: «اضبطي إشارتك»

– «أعرف ما ينبغي عليّ فعله»

وسرت الأمور بشكل جيد لمسافة ميل، على الرغم من أنها كانت تقود أبطأ كثيراً من السيارات الأخرى المارة بها، ولكن ما إن اقتربت من المدينة، وبدأت أضواء إشارات المرور فوق الأسلاك الظهور من مسافة بعيدة، حتى أبطأت السيدة «سين» من سرعة السيارة أكثر وأكثر.

قال السيد «سين»: «غيّري المسار .. سوف تحتاجين إلى اتخاذ جهة اليسار من الدوران».

إلا أن السيدة «سين» لم تفعل.

فقال وهو يغلق المذياع: «اتجهي يساراً كما قلت لكِ .. ألا تسمعينني؟»

أطلقت سيارة نفيرها، ثم سيارة أخرى، وأجابتهما السيدة «سين» بنفير عنيد مماثل، ثم أوقفت السيارة، وشرعت تحاول الوقوف إلى جانب الطريق من دون أي إشارة وهي تقول: «هذا يكفي»، ثم أراحت جبهتها فوق عجلة القيادة وهي تقول: «إني أكرهها .. أكره القيادة، ولن أستمر في هذا».

توقفت السيدة «سين» عن القيادة بعد هذا اليوم. وفي المرة التالية التي اتصل فيها مدير المتجر، لم تحاول السيدة «سين» إخبار زوجها في مكتبه، وقررت أن تجرب شيئاً آخر. كانت هناك حافلة المدينة التي تسير وفق جدول مواعيد ثابت بين الجامعة وشاطئ البحر؛ فكانت تقف في محطتين بعد الجامعة، أولاهما دار الرعاية ثم ساحة سوق بلا اسم، تتألف من متجر للكتب، ومحل أحذية، وصيدلية، ومحل للحيوانات الأليفة، ومتجر للأسطوانات الموسيقية. وعلى المقاعد أسفل الرواق كانت تجلس النساء المسّنات من دار الرعاية في أزواج، ويرتدين المعاطف بأزرارها الضخمة، وبطول الركبة، ويأكلن اللازانيا.

«إليوت .. هل سوف تضع أمك في دار للرعاية حينما تصبح عجوزاً؟».. سألته السيدة «سين» وهما يجلسان في الحافلة.

Twitter: @ketab_n

– «ربما.. ولكني سأزورها كل يوم».

«أنت تقول هذا الآن، ولكن عندما تصبح رجلاً سوف تأخذك حياتك إلى أماكن لا تتوقعها». ثم شرعت تعد على أصابعها وهي تقول: «سوف يكون لديك زوجة، وأبناء سيرغبون في أن تصطحبهم إلى أماكن مختلفة في الوقت ذاته. ومهما تكن طيباً وعطوفاً سوف يأتي يوم تشتكي فيه من اضطرارك إلى زيارة أمك، وسوف تسأم الأمر يا «إليوت». ومن ثمّ سوف يفوت يوم، ثم يوم آخر، حتى يأتي يوم تضطر هي إلى استقلال الحافلة كي تأتي لنفسها ببعض اللازانيا».

وفي متجر الأسماك كانت صواني الثلج شبه خالية، وفي صهاريج حفظ سرطان البحر، كانت خيوط الصدأ واضحةً من خلال المياه؛ علامة على أن المتجر سوف يغلق أبوابه آخر الشهر لموسم الشتاء، ولم يكن هناك سوى عامل واحد فقط خلف منضدة الاستقبال؛ صبي صغير لم يتعرف إلى السيدة «سين»، فاكتفى بأن ناولها الحقيبة المحفوظة باسمها.

«هل تم تنظيفها ووزنها؟».. سألت السيدة «سين».

هز الصبي كتفيه وأجابها: «لقد رحل رئيسي مبكراً، ولم يقل شيئاً سوى أن أعطيكِ هذه الحقيبة».

وفي مرآب السيارات راحت السيدة «سين» تفحص جدول الحافلات، فعرفت أنه سوف يتعيّن عليهما الانتظار لفترة خمسة وأربعين دقيقة حتى يحين موعد الحافلة التالية، فعبرا الشراع لشراء الكعك من متجر بيع الوجبات السريعة الذي زاروه من قبل. ولم يكن هناك مكان للجلوس؛ إذ لم تعد المناضد قيد الاستخدام، والمقاعد مقلوبة رأساً على عقب فوق المناضد.

وفي طريق عودتهما إلى المنزل، ظلّت امرأة عجوز ترقبهما، وعيناها تنتقلان بين السيدة «سين» و«إليوت»، ومنهما إلى الحقيبة بين أرجلهما، وخيط دماء يتسرب منها. كانت ترتدي معطفاً أسود، وتضع فوق فخذيها ـ بيدين شاحبتين تملؤهما العُقد ـ حقيبة بيضاء من الصيدلية. ولم يكن بالحافلة ركّاب آخرون سوى طالبين من الجامعة؛ ولد وفتاة يرتديان قميصين متشابهين، تتشابك أصابعهما معاً وهما مسترخيان في المقعد الخلفي. وفي

Twitter: @ketab_n

صمت شرعت السيدة «سين» و«إليوت» في تناول الكعك من حقيبته، وكانت السيدة «سين» قد نسيت المناديل، وظلّت آثار الكعك متناثرة حول زوايا فمها. وعندما وصلت الحافلة إلى دار الرعاية، وقفت العجوز ذات المعطف، وقالت شيئاً ما للسائق، ثم تركت الحافلة. فأدار الرجل رأسه صوب السيدة «سين» وسألها: «ماذا لديكِ في هذه الحقيبة؟»

نظرت إليه السيدة «سين» في دهشة.

«هل تتحدثين الإنكليزية؟».. سألها الرجل وقد بدأت الحافلة تتحرك من جديد، فشرع الرجل ينظر إلى السيد «سين» و«إليوت» من خلال المرآة الأمامية.

– «نعم .. أتحدث الإنكليزية».

– «ماذا تحملين في الحقيبة إذاً؟»

– «سمكة»

قال السائق: «يبدو أن الرائحة تزعج المسافرين الآخرين.. هلا فتحت النافذة إلى جوارها يا بُني؟»

في عصر يوم آخر بعد بضعة أيام تعالى رنين الهاتف في المنزل، وأخبرها مدير المتجر بأن القوارب قد أحضرت أسماك «هلبوت» طازجة ورائعة المذاق، وسألها عمّا إذا كانت تريد بعضاً منها. فاتصلت السيدة «سين» بزوجها في مكتبه، غير أنه لم يكن هناك. ثم عاودت الاتصال به بعد قليل .. ثم مرة ثالثة، وأخيراً دخلت المطبخ، ومنه إلى غرفة المعيشة ومعها النصل، وثمرة باذنجان، وبعض من ورق الجرائد. وعلى نحو تلقائي اتخذ «إليوت» مكانه فوق الأريكة من دون أن ينتظر أن تطلب منه السيدة «سين» أن يفعل، ومكث يرقبها وهي تقطع الثمرة إلى شرائح؛ فقطعتها إلى شرائط نحيلة، ثم إلى مربعات أصغر فأصغر، حتى صارت في حجم مكعبات السكر.

– «سأضع هذه المكعبات في طبق لذيذ جداً مع السمك والموز الأخضر».

– «وهل سنذهب لشراء السمك؟»

– «نعم .. سنذهب لشراء السمك».

Twitter: @ketab_n

– «وهل سوف يصحبنا السيد سين إلى هناك؟»

– «فلتلبس حذاءك»

غادرا الشقة من دون أن يقوما بأعمال التنظيف المعتادة. وفي الخارج كان الطقس بارداً جداً، حتى إن «إليوت» كان يشعر بالبرودة فوق أسنانه. ثم دخلا السيارة، ودارت السيدة «سين» حول الدائرة الأسفلتية عدة مرات، وكانت في كل مرة تقف قليلاً إلى جوار بستان الصنوبر لتراقب حركة المرور على الطريق الرئيسي. وظنّ «إليوت» أنها تتدرب فحسب حتى يأتي السيد «سين»، ولكنها أدارت الإشارة واستدارت.

وسرعان ما وقع الحادث. فبعد نحو ميل من القيادة، اتخذت السيدة «سين» جهة اليسار في توقيت مبكّر عمّا يجب، وعلى الرغم من أن السيارة الآتية استطاعت أن تنحرف عن طريقها، إلا أن نفيرها قد أفزع السيدة «سين» حتى إنها فقدت السيطرة على عجلة القيادة، وارتطمت بعمود الهاتف في الركن المقابل. وعلى الفور وصل الشرطي، وطلب من السيدة «سين» رخصة القيادة، وبالطبع لم يكن لديها رخصة كي تعطيه إياها؛ فقالت: «إن السيد سين يدرّس الرياضيات في الجامعة»، وكان هذا كل ما لديها من توضيح.

كان الضرر طفيفاً؛ جرح في شفة السيدة «سين»، بينما اشتكى «إليوت» من ألم طفيف في رأسه وضلوعه، واعوج واقي السيارة الأمامي. وظن الشرطي أن السيدة «سين» قد جُرحت كذلك في رأسها، لكن ذلك لم يكن سوى البقعة القرمزية. وعندما وصل السيد «سين» وقد أقلّه أحد زملائه، تحدث مطولاً إلى الشرطي وهو يملأ بعض النماذج، ولم يتفوّه بكلمة للسيدة «سين» وهم في طريق عودتهم إلى المنزل. وعندما تركوا السيارة، ربّت السيد «سين» فوق رأس «إليوت» وقال: «يقول الشرطي: إن الحظ قد أسعفك اليوم، فخرجت من الحادثة بلا خدش واحد».

وبعد أن خلعت نعليها ووضعتهما في المكتبة؛ أبعدت السيدة «سين» النصل الذي كان لا يزال في غرفة المعيشة، وألقت بقطع الباذنجان وورق الجرائد في سلة المهملات، ثم أعدّت صحناً من المقرمشات مع زبد الفول السوداني ووضعته فوق منضدة التقديم، وأدارت التلفاز إلى «إليوت». «في حال ظلّ جائعاً، أعطه مصاصة من الصندوق في

Twitter: @ketab_n

المُجمّد».. قالت السيدة «سين» لزوجها وهو جالس إلى المنضدة الفورميكا ينظر في خطابات البريد، ودخلت غرفة نومها، وأغلقت الباب. وعندما وصلت والدة «إليوت» في السادسة والربع، أطلعها السيد «سين» على تفاصيل الحادث، وعرض أن يعيد إليها ما دفعته لشهر نوفمبر. وبينما كان يحرر لها شيكاً بالمبلغ كان يعتذر بالإنابة عن السيدة «سين»، وقال: إنها تستريح لبعض الوقت، رغم أن «إليوت» قد سمعها تبكي عندما دخل دورة المياه. وارتضت والدة «إليوت» هذه الترتيبات، بل أفصحت لـ «إليوت» في طريق عودتهما إلى المنزل بأنها تشعر الآن بالارتياح. وكانت تلك آخر ظهيرة أمضاها «إليوت» في منزل السيدة «سين»، أو مع أي جليسة أطفال أخرى. ومنذ ذلك الحين أصبحت والدة «إليوت» تترك له مفتاحاً يضعه في خيط حول عنقه، على أن يتصل بالجيران إزاء حدث أي ظرف طارئ، وأصبح من ثمّ يمكث في منزل الشاطئ بمفرده بعد اليوم الدراسي. وفي اليوم الأول، وبينما كان يخلع معطفه عندما دخل المنزل لتوّه، دق جرس الهاتف، وكانت أمه تتصل به من عملها: «أنت الآن فتى كبير يا إليوت .. هل أنت بخير؟»، نظر «إليوت» عبر نافذة المطبخ إلى الأمواج الرمادية المنحسرة عن الشاطئ، وأجابها بأنه على ما يرام.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ذلك المنزل المبارك

اكتشفا التمثال الأول في الخزانة الصغيرة فوق الموقد، إلى جانب زجاجة مغلقة من خل الشعير. «خمن، ماذا وجدت؟».. قالت «توينكل»، وهي تخطو بمحاذاة نهايات الصناديق المغلقة بالشرائط العازلة، وتلوح بزجاجة الخل في إحدى يديها، وتمسك باليد الأخرى تمثالاً أبيض للمسيح مصنوع من الخزف الصيني، في حجم الزجاجة تقريباً. رفع «سانجيف» بصره إلى أعلى؛ حيث كان جاثياً على الأرض، يضع علامات مميزة بقطع صغيرة من الأوراق اللاصقة المشقوقة، فوق القاعدة الخشبية التي تحتاج إلى إعادة طلاء، ثم قال: «تخلصي منه».

– «أيهما؟»

– «الاثنين»

– «ولكن يمكنني استخدام الخل في الطبخ؛ فعلامته التجارية مازالت جديدة».

– «لم تستخدمي الخل في طهي أي شيء من قبل».

– «سأبحث عن شيء في واحد من كتب الطهي التي حصلنا عليها من أجل زفافنا».

استدار «سانجيف» من جديد إلى القاعدة الخشبية؛ لاستبدال قصاصة الورق اللاصق التي سقطت على الأرض، وأردف قائلاً: «إذاً تأكدي من تاريخ الصلاحية، وتخلصي على الأقل من ذلك التمثال»

«لكنه يمكن أن يساوي شيئاً، من يدري؟».. قالت «توينكل»، وقلبت التمثال رأساً على عقب، ثم نقرت بأصبعها السبابة حروف الرداء الصغيرة المطوية المنقوشة بالتمثال، وأضافت: «إنه تمثال جميل».

«إننا لسنا مسيحيين».. قال «سانجيف» الذي بدأ يلاحظ مؤخراً أنه يحتاج إلى ذكر الأمور بوضوح إلى «توينكل»؛ فقد اضطر في اليوم السابق إلى إخبارها بأنها إذا جرّت

Twitter: @ketab_n

مكتبها بدلاً من حمله؛ سوف تتسبب في إحداث خدوش في الأرضية المصنوعة من الباركيه.

«نعم، نحن لسنا مسيحيين، إننا هندوس طيبون».. قالت «تو‌ينكل» وهي تهز كتفها في استهجان، ثم طبعت قبلة على قمة رأس تمثال المسيح، ووضعته فوق سطح رف المدفأة، الذي يحتاج ـ كما لاحظ «سانجيف» ـ إلى تنظيفه من الأتربة.

بنهاية الأسبوع، أصبح رف المدفأة ـ الذي لم يتم تنظيفه من الأتربة بعد ـ بمثابة مكان لعرض مجموعة ضخمة من المقتنيات المسيحية: فهناك بطاقة بريدية ثلاثية الأبعاد للقديس «فرانسيس» مرسومة بأربعة ألوان، عثرت عليها «تو‌ينكل» مثبتة في ظهر خزانة الأدوية، وسلسلة مفاتيح خشبية على هيئة صليب، خطا عليها «سانجيف» بقدم حافية عندما كان يضع رفوفاً إضافية في مكتب «تو‌ينكل»، وإطار مرسوم بالأرقام للحكماء الثلاث في مقابل خلفية سوداء ناعمة، والذي كان في خزانة المفروشات، وهناك أيضاً حامل ذو ثلاث قوائم يجسد مشهداً ليسوع المسيح وهو أشقر وبلا ذقن في أثناء إلقاء خطبة على قمة جبل، وقد عثرا عليه في أحد أدراج خزانة خزفية مبنية في حائط حجرة الطعام.

«هل تظن أن مالكي هذا المنزل السابقين كانوا متدينين؟».. سألت «تو‌ينكل» في اليوم التالي، وهي تفسح مكانا فوق رف المدفأة لقبة بلاستيكية صغيرة مليئة بالثلج؛ تحمل مشهداً لميلاد المسيح منقوشة بطريقة المنمنمات، عثرت عليها خلف مواسير حوض المطبخ.

كان «سانجيف» مشغولاً بتنظيم كتبه الدراسية في الهندسة التي حصل عليها في أثناء دراسته في معهد «ماساتشوسيتس» للتكنولوجيا، فوق أحد أرفف الكتب وفقاً للترتيب الأبجدي، وذلك رغم مضيّ العديد من السنوات منذ المرة الأخيرة التي احتاج فيها إلى الرجوع إليها. انتقل «سانجيف» بعد التخرج من «بوسطن» إلى «كونكتيكت» للعمل في شركة على مقربة من «هارتفورد»، وقد علم مؤخراً أنه مُرشح لشغل وظيفة نائب رئيس الشركة. لم يتجاوز «سانجيف» الثالثة والثلاثين من العمر، غير أنّ لديه سكرتيرة خاصة، وعدداً من الأشخاص الذين يعملون تحت إشرافه، الذين يزودنه بسرور بأي معلومة يحتاج

Twitter: @ketab_n

إليها. وعلى الرغم من ذلك، فإن وجود كتبه الجامعية في الغرفة يذكره بفترة من حياته يستدعيها بولع، عندما كان يسير كل مساء عبر جسر شارع «ماساتشوسيتس» لكي يطلب طبق الدجاج البنغالي مع السبانخ من مطعمه الهندي المفضل على الجانب الآخر من نهر «تشارلز»، ثم يعود إلى حجرته الصغيرة، ويكتب نسخاً واضحة من مجموعة مشكلاته.

«أو ربما كانت محاولة منهم لإغراء الناس باعتناق دينهم».. قالت «تو‌ينكل» في تأمل.

– «من الواضح أن هذه الحيلة قد أفلحت معكِ».

تجاهلت «تو‌ينكل» ما قاله «سانجيف»، وهزت القبة البلاستيكية، فتحرك الثلج في دوامة عبر المِزْوَد.

تمعن «سانجيف» في الأشياء المصطفة فوق رف المدفأة، وشعر بالحيرة من أن كل منها في طريقته يُعد شيئاً سخيفاً جداً، وبدا له أنه من الواضح أنها تفتقد القيمة المقدسة، وأصابته الحيرة بصورة أكبر لأن «تو‌ينكل» ـ التي دائماً ما تدل اختياراتها على ذوقها الرفيع ـ مفتونة بتلك الأشياء؛ التي تمثل شيئاً ما بالنسبة إليها، على الرغم من أنها لا تعني شيئاً بالنسبة إليه. «من الأجدر بنا أن نتصل بالسمسار العقاري، ونخبره بتلك الأشياء التي تركوها، ونطلب منه أن يأخذها بعيداً».

«سانجي، لا تفعل ذلك».. قالت «تو‌ينكل» في استنكار، وأردفت: «أرجوك، سأنزعج جداً إذا تخلصت من هذه الأشياء؛ فمن الواضح أنها كانت مهمة للأشخاص الذين عاشوا في هذا المنزل. أظن أن مثل ذلك الفعل سيبدو تدنيساً للمقدسات أو ما شابه ذلك».

– «إذا كانت بالفعل بهذه الدرجة من الأهمية، فلماذا تمت تخبئتها في كل أنحاء المنزل؟ ولماذا لم يأخذوها وهم راحلون؟»

«لابد من أن هناك المزيد».. قالت «تو‌ينكل»، وعيناها تجوبان حوائط الغرفة الخاوية ذات الطلاء الأبيض الذي يميل إلى الصفرة، كأن هناك أشياء أخرى مخبأة خلف الطلاء، ثم تساءلت: «ما الأشياء الأخرى التي تتوقع أن نعثر عليها؟»

ولكن في أثناء تفريغ محتويات صناديقهما، وتعليق ملابسهما الشتوية والرسوم الحريرية لمواكب الأفيال؛ التي ابتاعاها من «جابور» في شهر العسل، وعلى الرغم من الفزع الذي

Twitter: @ketab_n

شعرت به «تونكل»؛ فإنهما لم يعثرا على أي شيء. ومضى نحو أسبوع كامل قبل أن يكتشفا في ظهيرة يوم الأحد، ملصقاً مرسوماً بالألوان المائية للمسيح، بحجم يفوق الحجم الطبيعي، وهو يذرف دموعاً شفافة في حجم بذور الفول السوداني، ويرتدي تاجاً من الأشواك. كان ذلك الملصق ملفوفاً خلف المدفأة في غرفة نوم الضيوف، وقد ظن «سانجيف» أنه مجرد ظل للنافذة.

«يجب أن نعلقه في مكان ما؛ إنه بالفعل مذهل جداً».. قالت «تونكل»، ثم أشعلت سيجارة، وبدأت تدخنها بتلذذ، وتلوح بها حول رأس «سانجيف»، كما لو أنها عصا قائد فرقة موسيقية، مثل صوت السيمفونية الخامسة لـ «ماهلير» الذي يعلو من الاستريو بالطابق الأسفل.

«اسمعي، سوف أتحمل، بعض الوقت، معرضكِ الصغير لـ «وحوش» الكتاب المقدس الموجود بغرفة المعيشة، ولكنني أرفض أن يتم عرض هذا الملصق في منزلنا».. قال «سانجيف» وهو ينقر بأصبعه واحدة من الدموع المرسومة في حجم بذور الفول السوداني.

حدقت «تونكل» فيه، وتنهدت في رباطة جأش، وبزغ الدخان في شعاعين خافتين باللون الأزرق من ثقبي أنفها، ثم لفت الملصق ببطء، وثبتته بواحد من الشرائط المرنة التي تضعها دائماً حول معصمها لربط شعرها الكثيف الجامح الذي تلوّن الحنّاء خصلاته، وأخبرته قائلة: «سوف أضعه في حجرة مكتبي، وبذلك لن تكون مضطراً إلى رؤيته».

– «وماذا عن الحفلة التي سنقيمها بمناسبة الانتقال إلى هذا المنزل الجديد؟ سيرغب الضيوف في مشاهدة كل الغرف، وقد دعوت إليها زملائي في العمل».

طوت «تونكل» عينيها في ضيق، ولاحظ «سانجيف» ارتفاع صوت السيمفونية التي وصلت إلى حركتها الثالثة، وبدت النغمات الناجمة عن ضربات الصنوج الموسيقية واضحة بشدة.

«سوف أعلقه خلف الباب».. اقترحت «تونكل»، ثم أردفت: «وبذلك لن يراه ضيوفك عندما يدلفون إلى الغرفة، فهل هذا يرضيك؟»

Twitter: @ketab_n

وقف «سانجيف» يرقب «تونيكل» وهي تغادر الغرفة ومعها الملصق والسيجارة، التي سقط قليل من رمادها على الأرض حيث وقفت «تونيكل»؛ فانحنى «سانجيف» وجمعها بأصبعه، ووضعها في راحة يده. وارتفع الصوت الناعم للحركة الرابعة «أداجيتو» في سيمفونية «ماهلر»، وكان «سانجيف» قد قرأ، في أثناء الإفطار ذلك اليوم في الملاحظات المكتوبة على الأسطوانة، أن «ماهلير» قد تقدم لزوجته بإرسال مخطوطة ذلك الجزء من القطعة الموسيقية، وعلى الرغم من عنصري المأساة والصراع اللذين احتوت عليهما السيمفونية الخامسة، فإن «سانجيف» قرأ أيضاً أنها تُصنف ضمن موسيقى الحب والسعادة بالدرجة الأولى.

سمع «سانجيف» صوتاً آتياً من المرحاض، ثم صاحت «تونيكل» قائلة: «بالمناسبة، إذا أردت التأثير في الناس، أنصحك بالابتعاد عن تشغيل هذه الموسيقى، فهي تجعلني أشعر بالرغبة في النوم».

توجه «سانجيف» إلى المرحاض لإلقاء رماد السيجارة من يده، ولاحظ أن عقب السيجارة مازال يطفو في تجويف المرحاض، ولكن صندوق التفريغ كان فارغاً، ولذا انتظر مدة دقيقة حتى يستطيع أن يجعل الماء يتدفق فيه ثانية. وفي مرآة خزانة الأدوية، تفحص رموش عينيه الطويلة التي تشبه رموش الفتيات كما تقول «تونيكل» كي تغيظه. وعلى الرغم من أن بنيته الجسدية كانت معتدلة، فإنه كان يخشى أن تتسبب وجنتاه الممتلئتان ورموشه الطويلة في ابتعاده عن ذلك المظهر الجذاب الذي ينشده. كان طوله معتدلاً أيضاً، ولكم تمنى عندما توقفت مرحلة نموه أن يكون أطول قليلاً بمقدار بوصة واحدة؛ ولهذا السبب يشعر بالغضب عندما تصرّ «تونيكل» على لبس أحذية ذات كعب عالٍ، مثلماً فعلت عندما تناولا العشاء في «مانهاتن» في عطلة نهاية الأسبوع الأولى بعد انتقالهما إلى ذلك المنزل. في ذلك الوقت، كان رف المدفأة يمتلئ بالفعل بالكثير من الأشياء التي عثرا عليها، وتشاجرا لذلك السبب وهما في طريقهما بالسيارة، ولكن «تونيكل» احتست أربع كؤوس من الويسكي في حانة غير معروفة بمدينة «ألفابيت»، وتناست ذلك الشجار، واصطحبت «سانجيف» إلى أحد محلات الكتب الصغيرة في مبنى «سان مارك»،

Twitter: @ketab_n

حيث ظلت تتصفح الكتب مدة ساعة تقريباً، وعندما غادرا المكان، أصرّت على أن يرقصا التانجو على رصيف المشاة أمام الغرباء.

وبعدئذ، ترنحت «توينكل» فوق ذراعه، وارتفعت قليلاً فوف مستوى رؤيته، وهي ترتدي خُفّاً مطبوعاً بجلد النمر يرتفع ثلاث بوصات عن الأرض. سارا على ذلك النحو بمحاذاة صفوف المحلات اللانهائية المتلاصقة في طريق عودتهما إلى ساحة الانتظار في ميدان «واشنطن»؛ حيث سمع «سانجيف» من قبل العديد من القصص حول الأشياء الفظيعة التي تصيب السيارات في «مانهاتن». «ولكنني لا أفعل شيئاً طوال اليوم باستثناء الجلوس إلى مكتبي».. قالت «توينكل» في غيظ عندما كانا بالسيارة في طريقهما إلى المنزل، وذكر «سانجيف» أن خُفّها الذي تلبسه يبدو غير مريح، واقترح عليها ألا ترتديه ثانية. ثم أردفت: «لا يمكنني التوقف عن لبس حذاء ذي كعب عالٍ، إلا وأنا أطبع أشياء على الكمبيوتر». وعلى الرغم من أن «سانجيف» قد تخلى عن النقاش، فإنه يدرك حقيقة أنها لا تقضي اليوم بأكمله أمام مكتبها؛ ففي ظهيرة ذلك اليوم، عندما عاد إلى المنزل بعد ممارسة رياضة الجري، وجدها ـ من دون مبرر ـ مستلقية في فراشها تقرأ، وعندما سألها عن سبب وجودها في الفراش في منتصف النهار؛ أجابته بأنها تشعر بالضجر. كان يود أن يخبرها بأنه من الأجدر بها أن تشرع في تفريغ بعض الصناديق، أو كنس السطوح، أو وضع اللمسات الأخيرة على طلاء عتبة نافذة دورة المياه، وتحذره بعدها من وضع ساعته فوقها، ولكن تلك الأشياء المتناثرة غير المكتملة لم تكن لتضايقها؛ فلقد بدت مقتنعة بأي أثواب تجدها في مقدمة خزانة الملابس، وبأي مجلة ترقد هنا أو هناك، وبأي أغنية يذيعها الراديو، كانت قانعة وفضولية في الوقت ذاته. ولكن كل فضولها الآن يتمركز حول اكتشاف الكنز التالي.

بعد مضي أيام قليلة، عاد «سانجيف» من عمله ليجد «توينكل» تدخن سيجارة، ومنخرطة في حديث تليفوني مع واحدة من صديقاتها في «كاليفورنيا»، على الرغم من أن الوقت لم يتجاوز الساعة الخامسة؛ وهو الوقت الذي يتم فيه احتساب أسعار مكالمات المناطق البعيدة بأعلى معدلاتها. «أشخاص على درجة عالية جداً من الخشوع».. قالت

Twitter: @ketab_n

«تونكل»، وهي تتوقف بين الحين والآخر كي تتنهد. «أصبح كل يوم بمثابة صيد كنز جديد، إنني جادة في ذلك، وأعلم أنكِ لن تصدقيني، المفاتيح الكهربائية في غرف النوم منقوشة بمشاهد من الإنجيل؛ سفينة نوح وأشياء من هذا القبيل، هناك ثلاث حجرات للنوم، ولكن واحدة منها جعلتها غرفة مكتبي. هل تتخيلين أن سانجيف توجه إلى متجر الأدوات المعدنية على الفور واستبدلهم جميعاً!».

والآن، جاء دور صديقتها كي تتحدث، أومأت «تونكل» التي جلست مُسترخية على الأرض أمام الثلاجة، وترتدي سروالاً أسود يقف طوله عند ركبتيها، ورداءً قطنياً أصفر. استنشق «سانجيف» رائحة قوية لشيء ما فوق الموقد، فشرع يتخذ طريقه بحذر إلى المطبخ عبر سلك التليفون الطويل المتشابك فوق الأرضية المكسيكية المصنوعة من التراكوتا، ثم فتح غطاء قدر يحوي بعضاً من الصلصة البنية المُحمرة التي تغلي بشدة.

«إنه حساء بالسمك، وقد أضفت إليه الخل».. قالت له «تونكل»، ثم عادت إلى حديثها مع صديقتها عبر الهاتف، وهي تطقطق أصابعها قائلةً: «معذرةً، ماذا كنتِ تقولين؟». هكذا كانت «تونكل»؛ تُشعرها الأشياء الصغيرة بالإثارة والبهجة، اعتادت أن تطقطق أصابعها قبل وقوع أي حدث بعيد غير متوقع؛ مثل تذوق نكهة جديدة للآيس كريم، أو إسقاط خطاب في صندوق البريد. ولكن «سانجيف» لم يدرك تلك السمة في شخصيتها، بل جعلته يشعر بالغباء؛ كأن العالم يضم عجائب مختفية لا يتوقعها ولا حتى يراها. كان «سانجيف» ينظر إلى وجه «تونكل» الذي بدا له أنه لا يزال طفولياً؛ فالعينان هادئتان، وملامح وجهها الودودة تبدو حيادية، وكأنها مازالت تفتقر إلى نوع من التعبير الدائم، وحتى اسم تدليلها ـ المستوحى من أغاني الروضة ـ يضفي عليها ملمحاً طفولياً. والآن، وهما مازالا في الشهر الثاني من زواجهما، شعر «سانجيف» بالغضب من بعض الأشياء في «تونكل»؛ مثل الطريقة التي تجادله بها قليلاً في حديثها أحياناً، أو تركها ملابسها الداخلية، التي تخلعها في أثناء الليل، أسفل فراشهما بدلاً من وضعها في سلة الغسيل.

تعرّف «سانجيف» إلى «تونكل» قبل أربعة أشهر مضت فقط؛ فقد جمعت رابطة

Twitter: @ketab_n

الصداقة القديمة بين والديها اللذين عاشا في «كاليفورنيا»، ووالديه اللذين مازالا يعيشان في «كلكتا»، وعبر المسافات الفاصلة بين القارتين، تمكنوا من ترتيب مناسبة ما لكي يلتقي «سانجيف» بـ «تونكل»، وذلك في أثناء حفل عيد ميلاد ابنة أحد المعارف التي كانت في السادسة عشرة من عمرها، وكان «سانجيف» وقتها في مهمة عمل في «بالو التو». وفي المطعم، جرى ترتيب جلوسهما إلى جانب بعضهما حول مائدة مستديرة، تتوسطها صينية ضخمة بها لحم الخنزير ورقائق البيض وأجنحة الدجاج، وقد اتفقا في الرأي على أن كل تلك الأشياء لها طعم واحد، وكذلك على الاستمرار في شغفهما بروايات «ودهوز»، على الرغم من تجاوزهما مرحلة المراهقة، وبغضهما للسِّيتار[1]. وفيما بعد اعترفت «تونكل» بأنها كانت مسحورة بالطريقة التي كان يملأ بها «سانجيف» فنجان الشاي الخاص بها مجدداً بينما هما يتحدثان.

وهكذا، بدأت المحادثات الهاتفية، وازدادت فتراتها، ثم توالت الزيارات؛ زارها «سانجيف» أولاً في «ستاندفورد»، ثم زارته «تونكل» في «كونكتيكت»، حيث عمد «سانجيف» إلى تجميع أعقاب السجائر التي تدخنها «تونكل» في مطفأة سجائر تركها في شرفته؛ حتى زيارتها التالية له في عطلة نهاية الأسبوع، ثم يقوم بتنظيف الشقة بالمكنسة الكهربائية، ويغسل المفروشات، وينفض الأتربة عن أوراق النبات استعداداً لزيارتها المقبلة. كانت «تونكل» في السابعة والعشرين من عمرها، وقد انفصلت مؤخراً ـ كما علم ـ عن أمريكي حاول أن يصبح ممثلاً ولكنه فشل. أما «سانجيف» فكان وحيداً، ويتقاضى راتباً سخياً إلى حد بعيد بالنسبة إلى رجل عازب، ولم يسبق له الوقوع في الحب من قبل. وفي خِضم استعجال آبائهما، الذين رتبوا لهذه الزيجة، تزوجا في الهند، وسط مئات من متمني الخير الذين بالكاد يتذكرهم «سانجيف» منذ طفولته، وتحت الأمطار المتواصلة في شهر أغسطس، في خيمة ملونة بالأحمر والبرتقالي، تنعكس عليها أضواء شجرة عيد الميلاد في طريق «ماندفيل».

1- Sitar: السِّيتار: آلة موسيقية هندية شبيهة بالعود. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

«هل قمتِ بتنظيف السطح؟».. سأل «سانجيف» «تونكل» فيما بعد، وهي تطوي مناديل المائدة الورقية، وتضعها في أطباقهما. كان السطح هو الجزء الوحيد بالمنزل الذي لم ينظفاه ولو بصورة أولية حتى تلك اللحظة.

«لا، ليس بعد، ولكنني أعدك بأنني سأفعل ذلك. أتمنى أن يكون مذاق هذا الطعام جيداً».. قالت «تونكل» وهي تثبت القدر الساخن على سطح الحامل ذي الثلاث قوائم الذي يجسد مشهد يسوع المسيح. فوق المائدة، استقرت سلة صغيرة بها رغيف من الخبز الإيطالي، وطبق سلطة مكون من الخس والجزر المبشور أُضيفت إليهما التوابل وقطع صغيرة من الخبز المحمّص، إلى جانب قدحين من النبيذ الأحمر. لم تكن «تونكل» ذات طموحات بعيدة في ما يتعلق بشؤون المطبخ؛ فلقد اعتادت شراء الدجاج المشوي من المتجر، لتقديمه مع سلطة البطاطس التي تُباع في حاويات بلاستيكية صغيرة، وبالطبع جرى إعدادها في وقت غير معلوم. كانت «تونكل» تشتكي من أن الطعام الهندي يضايقها؛ فهي تكره تقطيع الثوم، وتقشير الزنجبيل، ولا تستطيع تشغيل الخلاط، ومن ثمّ عمد «سانجيف» في العطلات الأسبوعية إلى تولي مسؤولية تتبيل فصوص القرفة والقرنفل بزيت الخردل؛ حتى يكون مذاق الكاري مناسباً.

وعلى الرغم من ذلك، فإن عليه أن يعترف بأنه أياً كان ما طبخته اليوم، فإنه طعام مذاقه لذيذ بشكل غير عادي، وجذاب أيضاً من حيث الشكل؛ مكعبات بيضاء ناصعة من السمك، حولها رقائق البقدونس، والطماطم الطازجة المضيئة في الحساء ذي اللون البني الغامق الذي يميل إلى الاحمرار.

– «كيف صنعتِ هذا الطبق؟»

– «صنعته فحسب.»

– «ماذا فعلتِ بالضبط؟»

– «وضعت أشياء في القدر، وأضفت إليها خل الشعير في النهاية».

– «كم كان مقدار الخل؟»

Twitter: @ketab_n

هزت «تونكل» كتفيها في لامبالاة، وقطعت بعض الخبز، ووضعته في صحنها.

– «ما معنى أنكِ لا تعرفين؟ يجب عليكِ كتابة مثل هذه الأشياء. فماذا إذا احتجتِ إلى تكرار هذا الطبق ثانية من أجل حفل أو ما شابه ذلك؟»

«سوف أتذكر».. أجابته «تونكل»، ثم غطت سلة الخبز بمنشفة الصحون؛ التي لاحظ «سانجيف» فجأة أن الوصايا العشر مطبوعة عليها. فنظرت إليه «تونكل» مبتسمة، وضغطت قليلاً على ركبته أسفل المنضدة، وأردفت قائلة: «واجه الأمر؛ هذا منزل مبارك».

جرى تحديد يوم السبت الأخير في شهر أكتوبر موعداً لإقامة حفلة استقبال الضيوف؛ احتفالاً بالانتقال إلى المسكن الجديد، ووجها الدعوات إلى ثلاثين شخصاً، جميعهم من معارف «سانجيف»؛ زملاء في العمل، وعدد من الأزواج الهنود المقيمين في «كونكتيكت»، وكثير منهم لا يكاد يعرفهم؛ ولكنهم اعتادوا دعوته من قبل بانتظام لتناول العشاء في أيام السبت التي كان فيها لا يزال عازباً، وفي أحيان كثيرة، كان «سانجيف» يتعجب من حرصهم على دعوته؛ فالصفات المشتركة بينهم قليلة جداً، وعلى الرغم من ذلك، كان يحضر دائماً تلك التجمعات؛ كي يأكل الحمص ذا الصلصة الحارة ولحم الجمبري المشوي، وينخرط في أحاديث النميمة والمناقشات السياسية؛ وكان من النادر جداً أن تكون لديه ارتباطات أخرى. وحتى ذلك الوقت، لم يتعرف أي منهم إلى «تونكل»؛ فلم يرغب «سانجيف» في إهدار الوقت الذي كان يقضيه مع «تونكل» في عطلات نهاية الأسبوع القصيرة ـ خلال فترة تعارفهما ـ في مقابلات أشخاص ارتبط بهم عندما كان وحيداً. ولم تعرف «تونكل» أحداً في ولاية «كونكتيكت»، باستثناء «سانجيف» وصديقها السابق الذي ظنت أنه يعمل في استوديو لصناعة الفنون الفخارية في «بروكفيلد». كانت «تونكل» تستكمل دراستها للحصول على درجة الماجستير في «ستاندفورد»؛ دراسة حول شاعر أيرلندي لم يسمع عنه «سانجيف» قط.

عثر «سانجيف» على ذلك المنزل بمفرده ـ قبل سفره لإتمام الزفاف ـ بسعر جيد بإحدى

Twitter: @ketab_n

المناطق المجاورة التي تحتوى على نظام مدرسي جيد. عندما شاهد المنزل، انبهر بالدرج الرفيع المنعطف وما يحتويه من درابزين مزخرف بالحديد، وخشب السنديان الفاخر ذي اللون البني الداكن المكسوة به الجدران الداخلية، والغرفة المُشمسة التي تطل على الأشجار الوردية، واللوحة النحاسية المُجسم عليها الرقم (22) ـ الذي يتصادف أن يكون يوم ميلاده ـ والمثبتة بصورة مثيرة للإعجاب في واجهة المبنى الذي يشبه في طرازه مباني أسرة «تيودر»[1] الغامضة. كان بالمنزل مدفأتان، ومرآب يتسع لسيارتين، وسطح يمكن أن يتحول إلى المزيد من غرف للنوم إذا دعت الحاجة إلى ذلك، كما ذكر السمسار. وقتها، قرر «سانجيف» أن يعيش هو و«تونكل» في ذلك المنزل إلى الأبد؛ ولذلك لم يهتم بملاحظة المفاتيح الكهربائية المغطاة بملصقات من الإنجيل، أو تلك الصورة المرسومة للسيدة مريم العذراء ـ كما تحب «تونكل» أن تُطلق عليها ـ التي تلتصق بزجاج نافذة حجرة النوم الرئيسية، التي حاول «سانجيف» أن ينتزعها، إلا أنه تسبب في إحداث خدوش بالزجاج.

قبل أسبوع من موعد الحفل، عندما كانا يسويان العشب في الحديقة، سمع «سانجيف» صراخ «تونكل»، فتوجه إليها مسرعاً وفي يده آلة تسوية العشب؛ خشية أن تكون قد صادفت جثة حيوان ميت أو أفعى. وخزته الرياح القوية، التي تنشط في شهر أكتوبر، في قمة أذنيه، بينما انزلق حذائه الرياضي الخفيف في أوراق النبات البنية اللون والصفراء. وعندما وصل إليها، وجدها مستلقية على عشب الحديقة، وتذوب في حالة من الضحك الصامت تقريباً. ومن خلف شجرة الفرسيتية العملاقة، رأي «سانجيف» تمثالاً للسيدة مريم العذراء ـ يصل طوله إلى خصرهما تقريباً ـ ومن فوق رأسها ينسدل غطاء أزرق؛ بطريقة مماثلة لما تبدو عليه العروس الهندية. رفعت «تونكل» طرف قميصها، وشرعت تزيل الأتربة العالقة بالتمثال.

«أفترض أنكِ ترغبين في وضع هذا التمثال على بعد قدم واحدة من فراشنا».. قال «سانجيف».

1- Tudor: أسرة «تيودر»: أسرة حكمت إنجلترا من عام 1485 إلى عام 1603. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

نظرت إليه مندهشة، كان بطنها مكشوفاً، فلاحظ «سانجيف» آثار اصطدامها بالتمثال حول سرتها، ثم قالت له: «فيمَ تفكر؟ بالطبع لا يمكننا وضع هذا التمثال في غرفة نومنا».

– «ألا يمكننا ذلك؟»

– «قطعاً، لا تكن سخيفاً يا سانجي. إن ذلك التمثال صُمم كي يُوضع بالخارج؛ في الحديقة».

– «يا إلهي، لا يمكن ذلك، تونكل.. لا أرجوك».

– «ولكن يجب علينا ذلك، وإلا سوف يكون جلباً للحظ السيئ».

– «سوف يراه كل الجيران؛ ويعتقدون أننا مجانين».

– «لماذا؟! ألأن لدينا تمثال للسيدة مريم العذراء في حديقتنا! كل شخص آخر في هذه البيوت المجاورة لديه تمثال للسيدة مريم العذراء في الحديقة. إن ذلك الفعل سوف يجعلنا نتلاءم مع هذا المكان».

– «ولكننا لسنا مسيحيين».

«ولذلك دأبت على تذكيري بهذه الحقيقة».. قالت «تونكل»، ثم بَصقتْ فوق طرف أصبعها، وشرعت تفرك باهتمام شديد بقعة عنيدة على ذقن تمثال مريم العذراء، وسألته: «هل تظن أنها مجرد وسخ، أم نوع من الفطريات؟»

كان «سانجيف» يخفق دائماً في الوصول إلى أي شيء مع تلك المرأة؛ التي عرفها قبل أربعة شهور فقط؛ تلك المرأة التي تزوجها وتشاركه حياته الآن. وتذكر «سانجيف» ـ ببعض الندم ـ صور العرائس المُقترحة التي اعتادت والدته أن ترسلها إليه من «كلكتا»، واللاتي كن قادرات على الغناء والحياكة وتجهيز خلطات نبات العدس من دون الرجوع إلى استشارة كتب الطهي. وقد اهتم «سانجيف» بهؤلاء الفتيات؛ لدرجة أنه صنفهن وفقاً للتفضيل، ولكنه بعدها قابل «تونكل». «لا يمكن أن أسمح بأن يرى زملائي في العمل هذا التمثال في حديقة منزلي».. قال «سانجيف».

– «لا يمكنهم أن يفصلوك من عملك لكونك مؤمناً؛ سوف يكون هذا تمييزاً».

– «لم أقصد ذلك».

– «لماذا تهتم كثيراً بالطريقة التي يفكر بها الآخرون؟»

Twitter: @ketab_n

«توينكل، من فضلكِ».. قال «سانجيف» الذي بدا متعباً، وترك جسده يستند إلى آلة جمع العشب، بينما شرعت «توينكل» في جر التمثال نحو مجموعة من نبات «الآس» العطري التي تشبه في شكلها سريراً بيضاوياً، إلى جانب عمود المصباح الذي يحيط بالممر المزين بالطوب، ثم قالت: «انظر يا سانجي، لكم يبدو هذا التمثال رائعاً».

عاد «سانجيف» إلى أكوام أوراق الشجرة التي كان يهذبها، وبدأ يضع حفنات منها في حقيبة بلاستيكية للقمامة. كانت السماء فوق رأسه صافية من دون سحب، ولكن لا تزال واحدة من أشجار الحديقة مليئة بالأوراق ذات اللونين الأحمر والبرتقالي؛ وهي تشبه الخيمة التي تزوج فيها «توينكل».

لم يكن «سانجيف» متيقناً من أنه يحبها، رغم أنه أخبرها بأنه يحبها عندما سألته أولاً في ظهيرة أحد الأيام، حينما كانا في «بالو ألتو»، يجلسان في قاعة سينمائية مظلمة وخاوية تقريباً من الناس، حيث شاهدا فيلماً من أفلام «توينكل» المُفضلة؛ شيئاً ما باللغة الألمانية وجده «سانجيف» محبطاً للغاية. قبل بداية الفيلم، ضغطت «توينكل» رأس أنفها فوق أنفه؛ كي يستشعر برعشة رموش عينيها التي تزينها المَسْكرة. أجابها «سانجيف» في ظهيرة ذلك اليوم بأنه يحبها، وسعدت «توينكل» بذلك، ووضعت في فمه قطعة من الفيشار، وتركت إصبعها للحظة بين شفتيه؛ كأنها تكافئه على إجابته الصحيحة.

وعلى الرغم من أنها لم تصارحه بحبها، فإنه افترض وقتها أنها تحبه أيضاً، لكنه اليوم لم يعد متأكداً. والحقيقة أن «سانجيف» لم يكن يعرف ما هو الحب؛ بل ما كان يعتقد أنه حب لم يكن كذلك في واقع الأمر؛ فلقد أدرك أن لا شأن للحب بالعودة إلى شقته الخاوية والمفروشة بالسجاجيد كل ليلة، واستخدام الشوكة العليا في الدرج الخاص بأدوات المائدة، والانصراف على نحو مهذب من حفلات العشاء في العطلات الأسبوعية، التي تنتهي بأن تلتف سواعد الرجال حول خصور زوجاتهم وصديقاتهم، وهم يميلون بين الحين والآخر فيقبلون أكتافهن أو أعناقهن. ولم يكن كذلك مجرد إرسال إسطوانات من الموسيقى الكلاسيكية بالبريد، بعد أن يختارها بطريقة منهجية من دليل المؤلفين الموسيقيين المفضّل، ناهيك عن حرصه البالغ على سداد أثمانها في مواعيدها. بدأ «سانجيف» في

Twitter: @ketab_n

إدراك ذلك في الشهور التي سبقت لقاءه بـ «تونكل». «لديكَ أموال في البنك تكفي لإعالة ثلاث عائلات».. ذكرته والدته وهي تتحدث إليه عبر الهاتف في بداية كل شهر، ثمّ تشجعه قائلة: «تحتاج إلى زوجة تعتني بها وتحبها». والآن لديه الزوجة؛ امرأة جميلة، تنتمي إلى طبقة هندوسية رفيعة وملائمة، وسوف تحصل قريباً على درجة الماجستير، فماذا ينقصها كي لا يحبها؟

في ذلك المساء، سكب «سانجيف» لنفسه كأساً من الشراب، وتناول بعضاً منه مع مُنشط قوي، في أثناء إحدى الفترات الفاصلة في نشرة الأخبار، ثم اتجه إلى «تونكل» التي كانت تأخذ حماماً ساخناً؛ فلقد أعلنت أن أطرافها تؤلمها من تسوية عشب الحديقة؛ شيء لم تفعله من قبل قط. لم يطرق الباب، ودخل مباشرة، كانت تضع قناعاً أزرق اللون فوق وجهها لتغذيته، وتدخن، وترتشف بعضاً من الويسكي المثلج، وتتصفح كتاباً ذا غلاف ورقي سميك، انثنت صفحاته، وتحول لونها إلى الرمادي بسبب الماء. حدق «سانجيف» في غلاف الكتاب الذي لم يُكتب عليه سوى حروف كلمة واحدة باللون الأحمر الداكن؛ «قصائد». تنهد «سانجيف»، ثم أخبرها بكل هدوء بأنه بعد أن يفرغ من تناول شرابه؛ سوف يلبس حذاءه، ويتجه إلى خارج المنزل لنقل تمثال مريم العذراء من الحديقة الأمامية.

«أين سوف تضعه؟».. سألته بطريقة حالمة، وعيناها مغلقتان، ثم ظهرت إحدى ساقيها، وانبسطت بصورة رشيقة من طبقات رغوة الصابون، ثم انثنت وحركت أصابع قدمها.

– «سوف أضعه الآن في المرآب، وفي صباح الغد سوف آخذه معي إلى النفايات».

– «إياك أن تفعل ذلك».. قالت «تونكل» محتجة، ثم وقفت، وتركت الكتاب يسقط في الماء، بينما تتساقط قطرات فقاعات الصابون أسفل فخذها، «أكرهك».. أخبرته وعيناها تضيقان وهي تنطق بالكلمة، مدت يدها إلى رداء الحمام، ولفته بإحكام حول خصرها، ثم هبطت درجات السلم المنعطف، تاركةً وراءها آثار قدميها المبللتين المتسختين فوق الأرضية الباركيه. وعندما وصلت إلى الردهة، سألها «سانجيف»: «هل تعتزمين

Twitter: @ketab_n

مغادرة المنزل على هذا النحو؟»، شعر بخفقان في صدغيه، وعبّر صوته عن غضب غير مألوف عندما تكلم.

- «من الذي يهتم؟ من عساه أن يبالى بالطريقة التي أغادر بها هذا المنزل؟»

- «إلى أين تعتزمين الذهاب في هذه الساعة؟»

«لا يمكنك أن تتخلص من ذلك التمثال، لن أسمح لك بهذا».. صرخت «توينكل»، وقد جف القناع الذي وضعته على وجهها، واكتسب اللون الرمادي، وتساقطت قطرات الماء من شعرها على شقوق القناع فوق وجهها.

- «بل يمكنني، وسوف أتخلص منه».

«لا».. قالت «توينكل» وخفت صوتها فجأة، وأردفت: «هذا منزلنا، نمتلكه معاً، وهذا التمثال جزء من ممتلكاتنا». ثم بدأت ترتعش، وتجمعت بركة صغيرة من مياه الاستحمام أسفل كاحليها. استدار «سانجيف» لإغلاق النافذة خشيةَ أن تصاب بالبرد، ولاحظ أن بعضاً من قطرات الماء المتساقطة فوق وجهها المغطي بالقناع الأزرق، ما هي إلا دموع.

«يا إلهي، توينكل أرجوكِ، لم أقصد ذلك».. قال «سانجيف» الذي لم يرها تبكي قط من قبل، ولم يرَ مثل ذلك الحزن في عينيها. لم تذهب بعيداً، ولم تحاول التوقف عن البكاء، وبدلاً من ذلك، بدت مستكينة بشكل غريب. استغرقت دقيقة في معالجة جفني عينيها المكشوفين، اللذين بدوا شاحبين مقارنة ببقية ووجهها الذي يغطيه القناع الأزرق، أما «سانجيف» فشعر بالألم؛ كأنه تناول مقداراً كبيراً جداً أو ضئيلاً جداً من الطعام.

ذهبت إليه «توينكل»، طوقت عنقه بذراعيها الرطبتين، وأجهشت بالبكاء فوق صدره؛ فأحدثت بقعاً في قميصه، وتقشر القناع الذي كانت تضعه على وجهها فوق كتفيه.

وفي النهاية، اتفقا على تسوية الأمر؛ بوضع التمثال في مكان منعزل في أحد جوانب المنزل؛ كي لا يكون واضحاً أمام المارة. ولكن التمثال لم يزل مرئياً بوضوح لكل من يأتي إلى المنزل.

كانت قائمة طعام الحفل بسيطة للغاية؛ فهناك صندوق شراب الشمبانيا، وأطباق

Twitter: @ketab_n

السمبوسك من مطعم هندي في «هارتفورد»، وصوانٍ كبيرة من الأرز بالدجاج، واللوز المُقشر والبرتقال، التي قضى «سانجيف» الجزء الأكبر من صباح وظهيرة ذلك اليوم في إعدادها. لم يدعُ مثل ذلك العدد الكبير من الضيوف من قبل، ومن ثمّ شعر بالقلق ألا يكون الشراب كافياً؛ فهرع إلى شراء صندوق آخر لاستخدامه عند الحاجة، ولهذا السبب تحديداً احترقت منه إحدى صواني الأرز، وتعين عليه إعدادها من جديد. أما «تو‌ينكل» فنظفت الأرضيات، وتطوعت بإحضار أطباق السمبوسك؛ فلقد حددت موعداً مع أحد صالونات التجميل الذي يقع ذلك المطعم الهندي في طريقه. كان «سانجيف» يعتزم أن يطلب منها التفكير في تنظيف رف المدفأة من تلك المقتنيات الإنجيلية، ولو في وقت الحفل فقط، لكنها غادرت المنزل بينما كان هو يستحم. لم تكن «تو‌ينكل» لتعود قبل ثلاث ساعات كاملة؛ ولذلك كان على «سانجيف» أن يستكمل بقية تنظيف المنزل. وبحلول الساعة الخامسة والنصف، كان المنزل بأكمله يتلألأ بالشموع المُعطرة التي ابتاعتها «تو‌ينكل» من قبل من «هارفورد» لإلقاء الضوء على الأشياء المُصطفة فوق رف المدفأة. وفي كل مرة، يمر «سانجيف» إلى جانب ذلك الرف؛ يجفل ويفزع من تخيل مشهد ضيوفه وحواجبهم مرفوعة وهم يشاهدون التماثيل الخزفية اللامعة للقديسين، وأواني الملح والفلفل المُصممة على أشكال تشبه العذراء ويوسف، وعلى الرغم من ذلك، فإنهم سوف ينبهرون ـ كما يأمل ـ بالمشربيات الرائعة، وأرضيات الباركيه اللامعة، والدرج المذهل المنعطف، والجدران الداخلية المكسوة بالخشب، بينما يقضون الوقت في احتساء شراب الشمبانيا وغمس السمبوسك في الصلصة.

كان «دوجلاس» ـ أحد المستشارين الجدد في الشركة ـ وصديقته «نورا» هما أول من حضر الى الحفل، وكانا طويلين وأشقرين، ويضعان نظارات بإطار معدني، ويرتديان معطفين طويلين باللون الأسود، وفوق رأس «نورا» قبعة سوداء مليئة بالخصلات الحادة الرقيقة التي تنسجم مع زوايا وجهها الحادة النحيلة، وتعانق يدها اليسرى يد «دوجلاس»، وتمسك بيدها اليمنى زجاجة كونياك ملفوفاً عنقها بشريط أحمر، وقدمتها إلى «تو‌ينكل».

Twitter: @ketab_n

«حديقة رائعة يا سانجيف».. قال «دوجلاس»، وأردف قائلاً لـ «نورا»: «علينا أن نقتني آلة مثل تلك لتسوية العشب يا حبيبتي، ويجب أن يكون ذلك...»

– «أقدم إليك زوجتي تانيمه»

– «يمكن أن تناديني تونكل»

«ياله من اسم غريب».. أشارت «نورا».

هزت «تونكل» كتفيها غير مبالية، ثم قالت: «ليس غريباً جداً، توجد ممثلة في بومباي اسمها (ديمبل كابادي)، وحتى شقيقتها اسمها (سيمبيل)».

رفع «دوجلاس» و«نورا» حواجبهما على الفور في دهشة، وتنهدا ببطء؛ كأنهما يستوعبان غرابة تلك الأسماء، «يسعدنا لقاؤكِ يا تونكل».

– «تفضلا الشمبانيا»

«أرجو أن تسمحوا لي بالتساؤل».. قال «دوجلاس»، «لاحظت تمثالاً بالحديقة، فهل أنتما تعتنقان المسيحية؟ لقد اعتقدت أنكما هنود».

« يوجد مسيحيون في الهند».. أجاب «سانجيف»، «ولكننا لسنا مسيحيين».

«يُعجبني رداؤك».. أخبرت «نورا» «تونكل».

«تعجبني أيضاً قبعتك، هل ترغبان في جولة لمشاهدة المنزل؟».. أجابت «تونكل».

دق جرس الباب ثانيةً، وظل هكذا مراراً وتكراراً. وفي خلال دقائق، امتلأ المنزل بالأشخاص، وتعالت الأحاديث، وانتشرت العطور الغريبة. ارتدت النساء الأحذية ذات الكعوب العالية، والجوارب الشفافة، والفساتين السود القصيرة المصنوعة من أقمشة الكريب والشيفون. ناول الضيوف «سانجيف» معاطفهم، فكان يطويها بعناية ويعلقها فوق الشماعات في خزانة المعاطف الفسيحة، على الرغم من أن «تونكل» أخبرتهم بأن يلقوا بأشيائهم فوق المتكآت في الغرفة المُشمسة. بعض من النساء الهنديات كن يرتدين أفضل ما لديهن من الرداء الهندي «الساري»، المشغول بالزخرفة الذهبية، الذي كانت حروفه تتدلى في طيات أنيقة حول أكتافهن، أما الرجال فارتدوا السترات وأربطة العنق،

Twitter: @ketab_n

وفاحت منهم رائحة ليمون كولونيا ما بعد الحلاقة. وبينما انتقل الضيوف من غرفة إلى أخرى، تكومت الهدايا فوق المنضدة الخشبية الطويلة المصنوعة من خشب الكرز، التي تمتد من إحدى نهايات ردهة الطابق السفلى إلى الردهة الأخرى.

شعر «سانجيف» بالارتباك لكونه هو ومنزله وزوجته، يجتذبون كل ذلك الاهتمام، فالمرة الوحيدة التي حدث له شيء مشابه؛ كان يوم زفافه، ولكن يختلف الأمر لأن الأشخاص المحيطين به الآن لا ينتمون إلى عائلته؛ بل هم أشخاص يعرفهم بالمصادفة فقط، ومن ناحية أخرى، فهو غير مدين لهم بأي شيء. تلقى «سانجيف» التهنئة من كل فرد، وتوقع «ليستر»، أحد زملائه المساعدين في العمل، حصول «سانجيف» على الترقية لمنصب نائب رئيس الشركة في غضون شهرين على الأكثر. التهم الضيوف أطباق السمبوسك، وأبدوا إعجابهم بالحوائط والأسقف التي تم طلاؤها حديثاً، والنباتات المعلقة، والمشربيات، ورسوم «جابور» الحريرية، إلا أن أكثر ما أثار إعجابهم كان «تونكل» ذاتها، بردائها السلوار كاميز[1]. الهندي، بخيوطه الذهبية، والتجويف المنخفض في ظهر الرداء، وعقد البتلات البيض حول رأسها، بينما يلتف حول عنقها عقد من اللؤلؤ مزدان في منتصفه بياقوتة براقة. وعلى أنغام تسجيلات موسيقى الجاز الصاخبة التي أدارتها «تونكل»؛ تعالت ضحكات الضيوف على حكاياتها ونوادرها، والتفوا في دائرة واسعة حولها، بينما كان «سانجيف» يزود الضيوف بأطباق السمبوسك التي احتفظ بها ساخنة في الفرن، ويحضر مكعبات الثلج للشراب، ويفتح المزيد من زجاجات الشمبانيا بشيء من الصعوبة، ويشرح للمرة الأربعين أنه لم يكن مسيحياً. كانت «تونكل» هي من قاد الضيوف في مجموعات منفصلة للتجول عبر الدرج المنعطف، والنظر إلى الحديقة الخلفية، والتحديق في درجات القبو. «أثار الملصق المعلق خلف باب غرفة مكتبي إعجاب كل أصدقائك».. أخبرت «تونكل» «سانجيف»، وهي تشعر بالانتصار، وتضع يدها على جزء صغير من ظهره، عندما مرا سريعاً من خلف بعضهما في إحدى اللحظات.

ذهب «سانجيف» إلى المطبخ الذي كان خالياً من الناس، وتناول بأصابعه قطعة دجاج

1- السلوار كاميز: رداء هندي عبارة عن سروال فضفاض وقميص طويل من فوقه. (المترجمة).

Twitter: @ketab_n

من الصينية الموجودة فوق المنضدة؛ لأنه أعتقد أنه لا يوجد أي شخص ينظر إليه، ثم فرغ من تناول القطعة الثانية، وغسلها بجرعة من الشراب من الزجاجة مباشرة.

«منزل رائع، وأرز لذيذ».. قال «سانيل» ـ طبيب تخدير ـ وهو يتجول بالمنزل ويأكل الطعام من صحنه الورقي بالملعقة، ثم سأل: «هل يوجد المزيد من الشمبانيا؟»

«زوجتك مدهشة».. أضاف «برابيل» الذي تبعه، وهو عازب ويعمل أستاذاً جامعياً في جامعة «ييل». وللحظة نظر إليه «سانجيف» محدقاً بشكل صريح، ثم احمر وجهه؛ فقد وصف «برابيل» ذات مرة في حفلة عشاء، «صوفيا لورين» بأنها مدهشة، تماماً كما كانت «أودري هيبورن». «هل لديها أخت؟».. سأل «برابيل».

التقط «سانيل» زبيبة واحدة من صينية الأرز، ثم سأل: «هل لقب عائلتها (نجمة صغيرة)؟».

ضحك الرجلان، وشرعا يأكلان المزيد من الأرز من الصينية، كأنهما يحرثانها بملعقتيهما البلاستيكية، أما «سانجيف» فتوجه إلى القبو لجلب المزيد من المشروبات الكحولية. ولبعض دقائق قليلة، توقفت خطواته فوق درجات سلم القبو، وسط ذلك الصمت الكئيب، وهو يضم صندوق الشمبانيا الثاني إلى صدره، بينما يستمر ضجيج الحفل في الطابق الأعلى فوق الأرضيات الخشبية، ثم وضع «سانجيف» تلك الإمدادات فوق منضدة العشاء.

«نعم، عثرنا على كل تلك الأشياء في هذا المنزل؛ في أماكن غريبة».. سمع «تونكل» وهي تقول تلك العبارة في غرفة المعيشة، ثم استكملت قائلةً: «في الحقيقة مازلنا نعثر عليها».

– «حقا!»

– «نعم! إن كل يوم بمثابة صيد كنز جديد، إنه شيء جميل جداً، ولا يعلم سوى الله الأشياء الأخرى التي سوف نعثر عليها، لا توجد نية للتلاعب بالألفاظ».

هكذا كانت البداية؛ كأنما وفقاً لمعاهدة لم يُنطق بها، اجتمعت الحفلة بأكملها في فرق، وبدأت تتوحد في أنحاء كل غرف المنزل، لتفتح الخزانات من دون استئذان، وتحدق في

Twitter: @ketab_n

أسفل المقاعد والوسائد، وتتحسس ما خلف الستائر، وتنقل الكتب من أماكنها. وشرعت المجموعات تعدو الدرج المنعطف ذهاباً وإياباً، وهم يقهقهون ويترنحون.

– «لم نصعد أبداً لاكتشاف سطح المنزل».. أعلنت «تونيكل» فجأة، ومن ثمّ تبعها الجميع.

– «كيف نصل إلى هناك؟»

– «يوجد سلم في الردهة، في مكان ما بالسقف».

تبعها «سانجيف» في نهاية الحشد؛ كي يشير إلى مكان السلم، ولكن «تونيكل» اكتشفته بالفعل بمفردها، وصاحت قائلةً: «وجدته!»

سحب «دوجلاس» السلسلة التي أطلقت درجات السلم، وكان وجهه متورداً، ويضع فوق رأسه قبعة «نورا» ذات الخصلات. اختفى الضيوف الواحد تلو الآخر؛ ساعد الرجالُ النساءَ وهن يخلعن أحذيتهن ذات الكعوب العالية ويضعنها على درجات السلم الضيقة، أما النساء الهنديات فطوقن النهايات المفتوحة لأرديتهن الباهظة الثمن حول خصورهن، ثم تبعهن الرجال من خلفهن، واختفى الجميع بسرعة حتى أصبح «سانجيف» بمفرده على قمة الدرج المنعطف. أحدثت خطواتهم صوتاً كالرعد من فوق رأسه. لم تكن لديه أي رغبة في اللحاق بهم، وتساءل: تُرى هل يمكن أن ينهار السقف؟ وبعيني خياله رأى ـ للحظة ـ مشهد أكوام من الأجساد الثملة المُنهارة التي تفوح منها رائحة العطور، وهي مهشمة ومتشابكة من حوله. سمع «سانجيف» صرخة، ثم تعالت، وانتشرت موجات من الضحك بنبرات أصوات متضاربة. كان بإمكانه سماعهم وهم يثرثرون حول صندوق بدا أنهم يجاهدون كي يفتحوه، ويطرقون فوق سطحه بشدة.

فكر «سانجيف» في أنه ربما تطلب منه «تونيكل» المساعدة؛ لكنها لم تستدعه. ثم نظر إلى الردهة والأماكن من حولها؛ حيث انتشرت كؤوس الشمبانيا وبقايا السمبوسك والمناديل الورقية المُلطخة بأحمر الشفاه في كل الأركان؛ فوق أي سطح ممكن، ولاحظ أن «تونيكل» ـ في عجلتها ـ قد رمت بحذائها؛ حيث يرقد أسفل السلم؛ خف جلدي أسود، وكعبه يشبه الركام الرملي الذي توضع عليه كرة الجولف، ومكشوف لدى أصابع

Twitter: @ketab_n

القدم، وقد لطخت بعض الشعيرات نعله الداخلي حيث يستقر باطن قدميها، فما كان من «سانجيف» إلا أن وضع حذاءها في مدخل حجرة النوم الرئيسية؛ حتى لا يتعثر به أي شخص عندما يهبط الجميع من سطح المنزل.

سمع «سانجيف» صوت شيء ينفتح ببطء، وخمدت الأصوات العالية إلى ما يشبه الهمس، وبدا له كأنه بالمنزل بمفرده، وتوقفت الموسيقى وبات في إمكانه ـ إذا ركز ـ أن يستمع إلى طنين الثلاجة، وحفيف الأوراق الباقية على الأشجار بالخارج، والنقر الذي تحدثه فروعها في الألواح الزجاجية بالنوافذ. فكر «سانجيف» في أنه بنقرة إصبع واحدة من يده؛ يمكنه أن يُعيد السلم ثانية إلى مكانه في السقف، فلن يكون أمامهم أي سبيل آخر للنزول من السطح إذا لم يسحب السلسلة الخاصة بذلك. دارت في رأسه كل الأشياء التي يمكن أن يفعلها دون أن يقاطعه أحد؛ يمحو معرض «تومينكل» للمقتنيات الإنجيلية ويُلقي به في سلة المهملات، ويحملها في سيارته إلى مستودع المخلفات، ويمزق الملصق الذي يجسد صورة المسيح الباكي، ويدق تمثال مريم العذراء بمطرقة بمجرد أن يراه، ثم يعود إلى منزله الخاوي، وبسهولة ينظف الأكواب والأطباق في غضون ساعة، ثم يصب لنفسه كأساً من الشراب، ويأكل طبقاً من الأرز الدافئ، ويستمع إلى أسطوانته الجديدة من مقطوعات «باخ» بينما يقرأ الملاحظات المكتوبة بداخلها حتى يفهمها جيداً. دفع «سانجيف» السلم قليلاً، ولكنه كان ثابتاً بقوة فوق الأرض؛ وتتطلب زحزحته عن مكانه بعض الجهد.

«يا إلهي، أريد سيجارة».. صاحت «تومينكل» من السطح.

شعر «سانجيف» بأن زمرة من المشكلات تتجمع خلف رقبته، وتشتت ذهنه، واحتاج إلى الاسترخاء؛ فسار صوب غرفة النوم، لكنه توقف قليلاً عندما رأى حذاء «تومينكل» أمامه في المدخل. تخيلها وقدماها تنزلقان من فوق الحذاء، ولكن بدلاً من أن يشعر بالضيق ـ كما اعتاد منذ انتقالهما إلى هذا المنزل معاً ـ شعر بوخز مفاجئ؛ لتوقعه وتفكيره في أنها سوف تندفع بصورة متقلبة فوق الدرج المنعطف وهي مرتدية ذلك الحذاء وتُحدث بعض الخدوش في الأرضية وهي في طريقها. وازداد الوخز عندما فكر في اندفاعها إلى دورة

Twitter: @ketab_n

المياه لإصلاح مساحيق وجهها، وبعدها سوف تهرول إلى إحضار المعاطف للضيوف، وأخيراً تتجه مسرعة إلى المنضدة المصنوعة من خشب الكرز؛ كي تبدأ فتح هدايا الضيوف. إنها الوخزة ذاتها التي أعتاد أن يشعر بها قبل زواجهما؛ حينما كان يغلق سماعة الهاتف بعد محادثة ما مع «تونكل»، أو عندما يعود من المطار، ويتعجب: تُرى في أي من تلك الطائرات التي تطير في السماء، تكون «تونكل».

– «سانجي، لن تصدق ذلك».

بدت له من ظهرها، ويداها فوق رأسها، وأعلى كتفها العاري يتصبب عرقاً، وتحمل شيئاً لا يزال مختفياً عن نظره.

«هل أمسكتِ به يا تونكل؟».. سأل شخص.

– «نعم، بوسعك أن تتركه».

والآن، رأى «سانجيف» يديها ملتفتين حوله تمثال نصفي لصلب المسيح مصنوع من الفضة، ويفوق حجم رأس التمثال حجم رأسه بثلاثة أضعاف بلا جدال. بدا أنف التمثال على هيئة ذلك النتوء الذي يشبه التماثيل الرومانية، واستقر فوق ترقوته الواضحة شعر مجعد رائع، وعكست جبهته العريضة صورة مصغرة للحوائط والأبواب وظلال المصابيح من حوله، ارتسم فوق وجهه تعبير يدل على الثقة؛ كأنه واثق بحواريه، أما شفتاه الصلبتان فكانتا ممتلئتين، وكانت أيضاً قبعة «نورا» ذات الخصلات فوق رأسه. وبينما هبطت «تونكل»، وضع «سانجيف» يديه حول خصرها كي يحفظ توازنها، وأراحها من التمثال ـ الذي تجاوز وزنه الثلاثين رطلاً ـ عندما وصلت إلى الأرض. أما الآخرون فشرعوا يكفهرون ببطء؛ لتعبهم من الصيد، وتوافد بعضهم شيئاً فشيئاً إلى الطابق الأسفل بحثاً عن الشراب المنعش.

التقطت «تونكل» أنفاسها، ورفعت حاجبيها، وطقطقت أصابعها، وسألت «سانجيف»: «هل سوف تمانع بشدة إذا وضعنا هذا التمثال فوق رف المدفأة؟ هذه الليلة فقط؟ أعلم أنك تكرهه».

كان يكرهه بالفعل؛ يكره ضخامته وشقوقه وسطحه المصقول وقيمته التي لا يمكن

Twitter: @ketab_n

إنكارها، وأن يكون في منزله، وأن يمتلكه. وبخلاف الأشياء الأخرى التي عثرا عليها؛ تميز ذلك التمثال بجلال وهيبة وجمال أيضاً، لكنه اندهش من أن تلك الصفات جعلته يكرهه أكثر. وأكثر ما كرهه في هذا التمثال أنه يعلم أن «تو‌ينكل» تحبه.

«سوف أضعه في غرفة مكتبي بداية من الغد، أعدكَ بذلك».. أضافت «تو‌ينكل».

ولكنه كان يعلم أنها لن تفعل ذلك أبداً؛ ففي الأيام التي قضياها معاً، احتفظت به في وسط رف المدفأة، حيث تحيط به بقية المقتنيات الأخرى. وفي كل مرة يزورهم الضيوف؛ تشرح لهم «تو‌ينكل» كيف عثرا على تلك الأشياء، ويستمعون إليها بإعجاب. حدق «سانجيف» في عقد البتلات البيض حول شعرها، وعقد اللؤلؤ المزدان بالياقوتة المُعلق في عنقها، وطلاء الأظافر ذي اللون القرمزي اللامع فوق أصابع قدميها، وقرر أنها من ضمن الأشياء التي جعلت «برابيل» يعتقد أنها مدهشة. أصاب رأسه الصداع من الشراب، وتألمت ذراعه من ثقل التمثال، ثم أردف قائلاً لها: «وضعت حذاءك في غرفة النوم».

«شكراً، ولكن قدمي تؤلمانني بشدة».. أخبرته «تو‌ينكل» وهي تضغط على مرفقه، واتجهت إلى غرفة المعيشة.

ضغط «سانجيف» وجه التمثال الفضي الضخم إلى ضلوعه، ولكنه حرص على ألا تسقط من فوقه القبعة، ثم تبعها صوب غرفة المعيشة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شفاء «بيبي هالدر»

طوال الشطر الأكبر من سنوات عمرها؛ التسع والعشرين، عَانتْ «بيبي هالدر» مرضاً استعصى علاجه على العائلة، والأصدقاء، والكهنة، وقارئي الكف، والعوانس، والمتنبئين، والمعلمين، والحمقى. وفي إطار الجهود المبذولة لعلاجها؛ أحضر لها الأعضاء المعنيون بأمرها من بلدتنا الماء من سبعة أنهار مقدسة. كنا ندعو لها في صلواتنا، عندما نسمع صرخاتها واحتضارها من الألم في الليل؛ حيث تقيد الحبال معصميها، وتضغط على جسدها الكمادات اللاسعة. استخدم الرجال الحكماء مرهماً مسكناً للألم، مستخرجاً من شجر «الأوكالبتوس» في تدليك صدغيها، وجعلوا وجهها معرضاً لبخار مادة عشبية تم نقعها. وبناءً على نصيحة مسيحي ضرير؛ جرى اصطحابها بالقطار لتقبيل أضرحة القديسين والأولياء والشهداء. كانت التعاويذ والأحجبة التي تدفع العين الشريرة تطوق ذراعيها وعنقها، أما أصابعها فكانت مزينة بالأحجار الميمونة.

لم تفعل الأدوية التي وصفها الأطباء شيئاً، سوى أن جعلت الحالة تتدهور إلى الأسوأ. وبمضي الوقت، تمت استشارة كل فروع الفنون الطبية، وعلاج الألوباثيا[1] والمعالجة المِثْلية[2]، وكانت نصائحهم لانهائية؛ فبعد إجراء الأشعة والمَجَسّات والفحص بالسماعة، والحقن، نصح بعضهم «بيبي» بأن تزيد وزنها، بينما نصحها آخرون بتخفيض الوزن. وإذا منعها واحد من النوم إلى ما بعد الفجر، أصر واحد آخر على أن تظل في فراشها إلى الظهيرة. وأخبرها ذلك الأخير بأن تقوم بتمرين يستلزم أن تحفظ توازنها وهي منقلبة رأساً على عقب، وطلب منها طبيب آخر أن تتلو بعض الأبيات الفيداوية[3] في أوقات

1–الألوباثيا Allopathy: طريقة في التطبيب تقوم على استعمال علاجات تُحدث آثاراً مختلفة عن تلك التي أحدثها المرض المعالَج. (المترجمة)

2–المعالجة المِثْلية homeopathy: معالجة الداء بإعطاء المصاب جرعات صغيرة من دواء لو أعطى لشخص سليم لأحدث عنده أعرَاض المرض المعالَج نفسه. (المترجمة)

3– Vedic: فيداوي أي تنتمي إلى الفيدا وهي كتب الهندوس الدينية الأربعة أو واحد منها. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

محددة خلال الفترات الفاصلة في اليوم. ومازال بعضهم يقترح: «سفرها إلى كلكتا للعلاج بالتنويم المغناطيسي». وفي غمرة تنقلها من أخصائي إلى آخر، نُصحت البنت بتجنب الثوم، واستهلاك كميات غير متجانسة من الشراب اللاذع، والتأمل، وشرب ماء جوز الهند الأخضر، وابتلاع بيض البط النيئ الممزوج بالحليب. وهكذا، باختصار أصبحت حياة «بيبي» عبارة عن صدام مع ترياقات عقيمة، الواحد تلو الآخر.

جعلت طبيعة مرضها ـ الذي افترسها من دون سابق إنذار ـ عالمها محصوراً في مبنى خالٍ من الطلاء، ذي أربعة طوابق، تعيش فيها عائلتها المكونة من ابن عمها الأكبر وزوجته اللذين يستأجران شقة في الطابق الثاني. لم يكن ممكناً الوثوق بـ «بيبي» بأن تعبر الشارع بمفردها ولا أن تستقل تراماً من دون رقابة؛ فلقد كانت معرضة للسقوط فاقدة الوعي؛ لتدخل في أي لحظة في نوبة هذيان مفزعة. ومن ثمّ، كان عملها اليومي أن تجلس في حجرة المخزن الموجودة على سطح بنايتنا، في مساحة يمكن للمرء أن يجلس فيها، ولكنه لن يقف فيها بارتياح؛ حيث المشهد عبارة عن مرحاض مجاور، ومدخل عُلقت عليه ستارة، ونافذة واحدة دون قضبان، وأرفف مصنوعة من ألواح الأبواب القديمة. في ذلك المكان، جلست «بيبي» مُربعة القدمين فوق زاوية مصنوعة من قنب «كلكتا»، تسجل قائمة المخزون لمتجر أدوات التجميل الذي يمتلكه ويديره ابن عمها «هالدر» في مدخل الفناء الخاص ببنايتنا. لم تحصل «بيبي» على دخل مقابل خدماتها، بل كانت تتلقى الوجبات الغذائية ويجري تزويدها بالمؤن، وأمتار كافية من القطن بحلول عطلة شهر أكتوبر من كل عام؛ لاستكمال خزانة ملابسها لدى خياط يتقاضى أجراً منخفضاً. وفي المساء، تنام فوق سرير خفيف نقال؛ يسهل طيه في المكان الخاص بابن عمها في الطابق السفلي.

في الصباح، وصلت «بيبي» إلى حجرة المخزن وهي ترتدي خفّاً بلاستيكيّاً مشقوقاً، وثوباً بيتيّاً لا يتجاوز طول حاشيته أسفل الركبة ببعض البوصات، وهو طول في الملابس لم نعد نرتديه منذ بلغنا الخامسة عشرة من العمر. انتشر فوق ساقيها، الخاليتين من الشعر، عدد كبير من بقع النمش الشاحب. كانت تنوح على قدرها وتتحدى نجومها ونحن نعلق غسيلنا أو ننزع القشور من على سمكنا؛ فهي لم تكن جميلة، فشفتها العليا رقيقة،

Twitter: @ketab_n

وأسنانها صغيرة جدّاً، ويبرز جزء من اللثة في فمها عندما تتحدث. «أسألك، هل من العدل أن تجلس فتاة مُهملة، لتقضي ريعان شبابها وتضيع سنوات عمرها في تصنيف الملصقات والأسعار من دون أي وعد بأن يكون لها مستقبل؟».. كان صوت «بيبي» أعلى من اللازم، كأنها تتحدث إلى شخص أصم، وأضافت: «هل من الخطأ أن أحسدك؟ فكل العرائس والأمهات مشغولات بالحياة ومن يعتنين بهم، أليس من حقي أن أرغب في وضع الظلال على جفون عيني، وإضافة العطر إلى شعري؟ أليس من حقي أن أربي ولداً، وأعلمه التمييز بين الأشياء الحلوة والمُرّة، والخير والشر؟»

اعتادت «بيبي» أن تفرغ حمولة أعبائها من الأشياء اللانهائية المحرومة منها، لتُلقي بها فوق كاهلنا كل يوم، حتى أصبحت حقيقة احتياجها إلى رجل واضحة بصورة غير مُحتملة. أرادت أن تكون مرتبطة بعلاقة عاطفية، وتحصل على الحماية، وتعرف أين بداية طريق حياتها. ومثلما نفعل؛ أرادت أن تقدم طعام العشاء، وتوبخ الخدم، وأن تحتفظ ببعض النقود في الخزانة لكي ترسم حاجبيها كل ثلاثة أسابيع في قاعة التجميل الصينية. وكانت تزعجنا لمعرفة التفاصيل الخاصة بحفلات زفافنا: المجوهرات، وبطاقات الدعوة، وعطور مسك الروم المنثورة فوق فراش الزفاف. وعندما نستجيب لإصرارها على مشاهدة ألبومات الصور المنقوشة بتصميمات الفراشات، كانت تحدق في اللقطات الفوتوغرافية التي تؤرخ الترتيب الزمني لمراسم حفلات الزفاف: الزبدة المتدفقة وقت إطلاق النار، وتبادل إكليل الزهور، والسمك المرسوم باللون القرمزي، وصواني العملات الصدفية والفضية. «عدد مذهل من الضيوف».. تعلق «بيبي» وهي تشير بأصابعها إلى الوجوه التي بدت في غير أماكنها من حولنا، ثم تضيف قائلة: «عندما يحدث لي هذا .. سوف تكونون حاضرين جميعاً».

تبدأ توقعاتها بتعذيبها بوحشية؛ إذ إن فكرة الحصول على زوج ـ الذي تعلق عليه كل آمالها ـ أحياناً تهدد بالزج بها في أحضان هجوم لتوقع آخر. وفي وسط علب مرطبات الوجه وصناديق دبابيس الشعر، تجلس منكمشة على الأرض، تلف ذراعيها حول ساقيها،

Twitter: @ketab_n

وتتحدث بعبارات تتناقض مع توقعاتها السابقة، وتتذمر قائلة: «لن أغمس قدمي أبداً في الحليب، ولن يُرسم وجهي أبداً بعجينة خشب الصندل، ومن سيفرك جسدي بمسحوق الكركم؟ ولن يُطبع اسمي أبداً بالحبر القرمزي في أي دعوة».

كانت مناجاتها العاطفية لنفسها، ومشاعرها الجياشة، وضيقها مثل قطرات الحمى التي تتساقط من مسامها، وفي أقسى اللحظات التي تشعر بها بالمرارة، كنا نطوق جسدها بالشال، ونغسل لها وجهها من صنبور الصهريج، ونحضر لها أقداحاً من اللبن الرائب ومياه الورد. وفي الأوقات التي كانت فيها أقل حزناً، شجعناها على مصاحبتنا لدى الخياط واستكمال حياكة ثيابها وملابسها الداخلية، وقد عمدنا إلى ذلك، من ناحية، حتى تشعر ببعض التغيير إلى الأفضل في الشكل، ومن ناحية أخرى لأننا فكرنا أن ذلك ربما يزيد من فرص الزواج التي تتوق إليها، وأخبرناها بأنه: «لا يوجد أي رجل يرغب في امرأة ترتدي ملابس غسالة الصحون»، ولكنها ردت بوجه عابس محتجة، ثم تنهدت قائلة: «هل تريدون أن يذهب كل ذلك القماش إلى العثّة؟ فأين أذهب أنا؟ ولمن سوف أرتدي الملابس؟ من يأخذني إلى السينما أو حديقة الحيوان أو يشتري لي صودا الليمون والبَلاذو؟ اعترفوا أرجوكم .. هل يحق لي أن أهتم بمثل هذه الأشياء؟ لن يتم شفائي أبداً، ولن أتزوج أبداً».

في ذلك الوقت، وُصف علاج جديد لحالة «بيبي»، لكنه الأكثر شناعة من بين كل العلاجات السابقة. فقد حدث أنها ذات مساء وهي في طريقها لتناول العشاء، تعثرت في درج الطابق الثالث؛ لتسقط وهي تضرب قبضة كفيها بعنف، وترفس بقدميها، وينهمر منها عرق غزير، ثم غابت عن الوعي. وانتشر صدى صوت أنينها ونواحها في أرجاء بئر السلم، فهرولنا إليها جميعاً من خارج شققنا لتهدئة روعها على الفور، وحملنا معنا مراوح اليد ومكعبات الثلج وأقداح المياه المثلجة لسكبها على وجهها. وتزلّق أطفالنا على درابزين الدرج لمشاهدة النوبة التي اجتاحتها، وأرسلنا الخدم لاستدعاء ابن عمها. ومضت عشر دقائق قبل أن يخرج «هالدر» من متجره، وهو هادئ وغير مبالٍ باستثناء بعض الاحمرار في وجهه. طلب منا أن نتوقف عن القلق الذي لا داعي له، ومن دون

Twitter: @ketab_n

أي جهد لمحاولة إخفاء شعوره بالازدراء، حشرها في جِنْركشة[1]. قاصداً العيادة العامة. وهناك بعد إجراء سلسلة من فحوص الدم، قرر الطبيب المسؤول عن حالة «بيبي» ساخطاً، أن الزواج من شأنه أن يُشفيها.

انتشرت الأخبار بين قضبان نوافذنا، عبر حبال الغسيل وقطرات روث الحمام التي تكسو حواف أسقف بناياتنا. وبحلول صباح اليوم التالي، تفحص ثلاثة من قارئي الكف يد «بيبي» وأكدوا وجود دليل محفور في جلدها، لا يدعو إلى الشك؛ يشير إلى زواج قريب الحدوث. وانتشر اللغط الفج والأقاويل السقيمة في أثناء الوقوف لشواء شرائح لحم الكستلاتة؛ وراجعت الجدات كتب التقويم لتحديد الوقت المناسب للخِطبة. واستمر الهمس بيننا طوال الأيام التالية ونحن نسير مع أطفالنا إلى المدرسة، ونجمع الأشياء للتنظيف، وفي أثناء وقوفنا في صفوف بمتجر الطعام. من الواضح أن ما كانت تحتاج إليه البنت المسكينة طوال الوقت هو بعض النشاط. ولأول مرة نتخيل محيط جسدها الذي تختفي معالمه أسفل ثوبها المنزلي، ونحاول تخمين المتع التي يمكن أن تقدمها للرجل. وللمرة الأولى أيضاً، نلاحظ ملامح وجهها الواضحة، وأهدابها الطويلة المتراخية، والمظهر الأنيق ليديها الذي لا يمكن إنكاره. وهمسنا قائلين: «يقولون إنه الأمل الوحيد في الشفاء، أن تحصل على حالة من النشوة»، ثم سكتنا برهة، وقلنا بخجل: «يقولون إن العلاقة الحميمة سوف تبعث الهدوء في دمها».

ومن دون الحاجة إلى القول، سعدت «بيبي» بذلك التشخيص، وبدأت على الفور تستعد لحياة زوجية؛ مستعينة ببعض بقايا البضائع في متجر «هالدر»، وضعت الطلاء على أظافر قدميها، وشرعت في تليين مرفقيها. أهملت «بيبي» البضائع الجديدة التي تم توصيلها إلى غرفة المخزن، وبدأت تطاردنا لمعرفة وصفات الطهي مثل حلوى الشعيرية ومزيج البابايا المغلي، وشرعت تدونها في رسائل مطوية بالسجل الخاص بالبضائع، وأعدت قوائم المدعوين، وقوائم الحلوى، وقائمة الأماكن التي ستزورها في شهر العسل. مررت «بيبي» الجلسرين لصقل شفتيها، وقاومت إغراء تناول الحلويات لإنقاص وزنها. وفي أحد الأيام،

1- rickshaw: الجِنْركشة تعني عربة صغيرة بدولابيْن تتسع لشخص واحد، ويجرها رجل واحد (المترجمة).

Twitter: @ketab_n

طلبت من واحدة منا أن تصطحبها إلى الخياط الذي حاك لها ثوباً هنديّاً جديداً (سلوار كاميز) على هيئة شمسية؛ الموضة السائدة في ذلك الفصل. وفي الشوارع، كانت تجرنا «بيبي» إلى الطاولات الزجاجية في متاجر المجوهرات لتحدق في الصناديق الزجاجية، وتسألنا عن رأينا في تصميمات التيجان ومواضع الحلي. وفي نوافذ متاجر الساري، أشارت إلى ثلاثة؛ الأول حريري باللون القرمزي، والثاني بلون الفيروز، والثالث بلون الزهور المخملية، وقالت: «في الجزء الأول من الاحتفال، سأرتدي هذا الساري، ثم هذا، وبعدهما هذا».

ولكن «هالدر» وزوجته كان لهما تفكير مختلف؛ فقد حرماها رغباتها، غير مكترثيْن بمخاوفنا، وانشغلا بعملهما كالمعتاد؛ حيث ينحشران معاً في ذلك المتجر الخاص بأدوات التجميل الذي لا تتعدى مساحته حجم خزانة الملابس، وتكتظ حوائطه على ثلاثة جوانب بالحناء وزيوت الشعر والأحجار المفيدة وكريمات التجميل. «يضيق وقتنا في الإنصات إلى هذه الاقتراحات غير المحتشمة».. هكذا رد «هالدر» على هؤلاء الذين فتحوا معه موضوع صحة «بيبي»، وأضاف: «ما لا يمكن الشفاء منه، لابد من احتماله. أثارت «بيبي» الكثير من القلق، وأضافت إلى مصروفاتنا ما يكفي، ولطخت سمعة العائلة بما فيه الكفاية». وأيدته في الرأي زوجته التي جلست إلى جواره خلف الطاولة الزجاجية الصغيرة، وهي تحرك مروحة يد جلدية مزركشة فوق صدرها. كانت زوجته امرأة ثقيلة الدم، تضع كتلة من البودرة فوق تجاعيد حلقها، التي بدت ظلالها شاحبة جدّاً بالنسبة إليها، وأردفت قائلة: «إضافة إلى ذلك، من الذي سيقبل أن يتزوجها؟ البنت لا تعرف شيئاً عن أي شيء؛ إنها تتحدث بطريقة متخلفة، وبالفعل بلغت الثلاثين من عمرها، ولا تستطيع إشعال فحم الموقد، ولا غلي الأرز، ولا يمكنها التفريق بين بذور الشمَّار والكمون. فهل يمكن أن نتخيلها وهي تحاول إطعام رجل!».

كان في كلامهما جانب من الصحة؛ فلم تتعلم «بيبي» أبداً كيف تكون امرأة، ولم يسمح لها المرض بالإلمام بأغلب الشؤون العملية. ونتيجة اقتناع زوجة «هالدر» بأن «بيبي» بها مس من الشيطان نفسه؛ عمدت إلى إبعادها عن النار واللهب. لم تتعلم «بيبي»

Twitter: @ketab_n

أن ترتدي الساري من دون أن تشبكه بالدبابيس في أربع جهات مختلفة، ولا يمكنها تطريز الأغطية القماشية، ولا نسج شال من الكروشيه بأي مهارة استثنائية. ولم يُسمح لها بمشاهدة التلفاز (افترض «هالدر» أن خصائصه الإلكترونية سوف تثيرها)، ومن ثمّ أصبحت تجهل أحداث عالمنا ومفارقاته، وانتهت دراستها الرسمية بعد الصف التاسع.

من أجل مصلحة «بيبي» كنا نتجادل للعثور على زوج لها وأوضحنا: «إنه الشيء الذي رغبت فيه طوال الوقت»، ولكن بدا من المستحيل إقناع «هالدر» وزوجته» بهذا الأمر. كان حقدهما على «بيبي» راسخاً فوق شفاههما التي بدت أقل نحافة من أسلاك الخيوط التي يربطون بها مشترياتنا. وعندما نصر على أن العلاج الجديد يستحق فرصة، يؤكدان: «بيبي لا تمتلك مقداراً كافياً من احترام النفس وضبطها، إنها تتمارض لجذب الانتباه، وأفضل شيء هو أن تظل مشغولة، بعيداً عن المتاعب التي تخلقها باستمرار».

– «فلماذا إذاً لا يتم تزويجها؟ على الأقل سوف يجعلها ذلك خارجة عن سيطرتكما».

– «ونضيع أرباحنا على مصروفات الزفاف، وإطعام الضيوف، وشراء الأساور والسرير، وتجميع المهر!»

ولكن أوجاع «بيبي» استمرت. وفي وقت متأخر من صباح أحد الأيام، ارتدت «بيبي»، بمساعدتنا، سارياً من الشيفون المخرم ذا لون أرجواني، وخفّاً بمرآة عاكسة أُعير لها خصيصاً لتلك المناسبة، وأسرعت في خطوات غير متزنة إلى متجر «هالدر»، وأصرت على أن يتم اصطحابها إلى استديو المصور الفوتوغرافي لالتقاط صورة لها، مثل هؤلاء العرائس اللاتي ينتظرن الزواج، وحتى يمكن توزيع صورتها في منازل الرجال الراغبين في الزواج. راقبناها من شرفاتنا، وقد ترك العرق بقعاً مثل الأقمار السوداء تحت إبطيها. «بخلاف الأشعة، لم تؤخذ لي أي صورة أبداً، وتحتاج عائلة أي من الأزواج المرتقبين إلى معرفة شكلي».. قالت «بيبي» في غيظ، ولكن «هالدر» رفض طلبها. وأخبرها بأن أي شخص في المدينة يرغب في رؤيتها يمكن أن يلاحظها بنفسه وهي تنوح وتندب وتدفع الأذى عن الزبائن، وأضاف أنها مصدر خراب بالنسبة إلى العمل، وبمثابة عائق وتتسبب في الخسارة، وتساءل: من في هذه المدينة يحتاج إلى صورة لمعرفة تلك الحقيقة؟

Twitter: @ketab_n

في اليوم التالي، توقفت «بيبي» عن جرد الأشياء في المخزن، وبدلاً من ذلك أمتعتنا برواية تفاصيل تافهة حول «هالدر» وزوجته، وأخبرتنا قائلة: «في يوم الأحد، يقضي هالدر الوقت في نزع شعيرات ذقن زوجته، ويحتفظان بأموالهما في الثلاجة المغلقة بالقفل والمِفتاح». وحتى يسمع الجيران في أسطح البنايات المجاورة؛ صاحت «بيبي» وصرخت بكل بيان أذاعته لجمهورها عن عائلة «هالدر»، الذي قام بدوره بنشره. واستكملت «بيبي»: «في الحمام، تمرر زوجة هالدر طحينة الحمص على ذراعيها، اعتقاداً منها أنها ستجعلها أكثر بياضاً. الإصبع الوسطى في قدمها اليمنى مفقودة. يرجع السبب في نومهما فترة طويلة في فترة الظهيرة إلى أن هالدر لا يستطيع إشباع رغبة زوجته في أثناء الليل بسهولة».

ولكي تهدأ «بيبي» وتسكت؛ نشر لها «هالدر» إعلاناً مكوناً من سطر واحد في صحيفة البلدة لجذب عريس لها: «فتاة، غير مستقرة، طولها 152 سنتيمتراً، تبحث عن زوج». لم تكن هوية تلك العروس مجهولة بالنسبة إلى آباء الشباب، ولم تكن أي عائلة أيضاً مستعدة لتحمل تلك المخاطرة الصارخة. ولا يمكن لومهم بأي حال من الأحوال؛ فقد أشاع الكثيرون أن «بيبي» تتحدث إلى نفسها بطلاقة، ولكن بلغة غير مفهومة تماماً، ولا تأتيها أية أحلام في المنام. ولم نتمكن حتى من إقناع ذلك الأرمل ـ الذي لم يتبق من أسنانه ألا أربع فقط، ويعمل في إصلاح حقائب اليد في السوق ـ كي يتقدم إليها للزواج. وعلى الرغم من ذلك، ولصرف انتباهها، فإننا شرعنا في تدريبها؛ على الطرائق الزوجية، فنخبرها: «التجهم والعبوس مثل قدر الأرز لن يجعلاكِ تحصلين على أي شيء، يرغب الرجال في أن تداعبيهم بتعبيرات وجهكِ»، وعلى سبيل التدريب على مصادفة قد تجمعها بعريس مُحتمل؛ شجعناها على الانخراط في محادثات قصيرة مع الرجال القريبين. وعندما وصل إلى بنايتنا حامل المياه في نهاية جولاته؛ كي يملأ وعاء «بيبي» في غرفة المخزن، طلبنا منها أن تسأله: «كيف حالك؟»، وعندما أفرغ مورّد الفحم سلاله في السطوح، نصحناها بأن تبتسم له، وأن تقول تعليقاً ما حول الطقس. تذكرْنا تجاربنا الشخصية، وجعلنا «بيبي»

Twitter: @ketab_n

مهيئة للمقابلة، وأخبرناها: «عادة ما يحضر العريس مع واحد من والديه، وأحد الأجداد، أو عَمٍّ أو عمة. وسوف يحدقون النظر فيكِ، ويسألونك عدة أسئلة، وسيفحصون قاع قدميكِ، ومدى سمك ضفيرتكِ. وسوف يسألونك عن اسم رئيس الوزراء، ويطلبون منكِ إلقاء الشعر، وإطعام دستة من الأشخاص الجياع بمقدار نصف دستة من البيض».

وعندما مضى شهران من دون أن تتلقى «بيبي» أي ردود فعل عن الإعلان، ادعى كل من «هالدر» وزوجته أنهما على حق، «الآن، هل تأكدتم من أنها غير صالحة للزواج؟ هل تأكدتم من أنه لا يوجد رجل عاقل سوف يلمسها؟»

لم تكن الأمور سيئة جدّاً بالنسبة إلى «بيبي» قبل وفاة والدها (توفيت الأم بمجرد ولادة البنت). وفي سنوات عمره الأخيرة، ظل والد «بيبي»، الرجل المسن الذي كان يعمل مدرساً للرياضيات في مدارسنا الابتدائية، يتتبع أثر تطور مرض «بيبي» على أمل أن يجد شيئاً من المنطق في حالتها، واعتاد أن يجيبنا عندما نسأله عما وصل إليه قائلاً: «لكل مشكلة حل». كان يطمئن «بيبي»، وفي الوقت المناسب يطمئننا جميعاً، وقد كتب رسائل إلى أطباء في إنجلترا، وقضى أمسياته في قراءة سجلات الحالات في المكتبة، وأقلع عن تناول اللحم في أيام الجمعة استرضاءً لإله بيته. وبمضي الوقت، توقف عن التدريس أيضاً، واكتفى بإعطاء دروس خصوصية في حجرته؛ حتى يتمكن من ملاحظة «بيبي» في كل الأوقات. وعلى الرغم من حصوله على جوائز في فترة شبابه ـ لقدرته على استنتاج جذور المربعات من الذاكرة ـ فإنه لم يكن قادراً على حل لغز مرض ابنته. وكل ما قام به طوال عمله، أنْ قادته تسجيلاته إلى استخلاص مُفَاده أن ما تتعرض له «بيبي» من هجمات، يحدث لها في فصل الصيف بصورة أكبر من فصل الشتاء، وأنها عانت تقريباً خمساً وعشرين هجمة رئيسية، كما صنع خريطة للأعراض التي تهاجمها والإرشادات الخاصة بتهدئتها، ووزعها على كل الجيران، لكنها فُقدت في النهاية، أو حوّلها أطفالنا إلى مراكب شراعية، أو تم استخدامها لحساب ميزانيات البقالة على وجهها المعاكس.

لم يكن بوسعنا إلا فعل القليل من الأشياء لتحسين الموقف؛ كمرافقتها وتسكين أحزانها:

Twitter: @ketab_n

والاعتناء بها في بعض المناسبات؛ فلم تكن أيٌّ منا قادرة على إدراك ذلك الأسى. في بعض الأيام، بعد فترة القيلولة، كنا نُمشط لها شعرها، وتذكرنا منذ ذلك الوقت أن نغير الجزء الذي نشده في فروة رأسها؛ حتى لا يتسع أكثر من اللازم. وبناءً على طلبها، وضعنا البودرة أسفل شفتيها وعلى رقبتها، وحددنا حاجبيْها بالقلم، واصطحبناها للسير على ضفاف بركة السمك التي يلعب إلى جوارها أطفالنا لعبة الكريكيت في فترة الظهيرة. كانت لا تزل مصرّة على إغراء رجل.

«باستثناء حالتي، أتمتع بصحة جيدة».. أكدت «بيبي» وهي تُلقي بجسدها على مقعد أمام ممر المشاة، الذي يتمشى عليه الرجال الذين يغازلون النساء، ويتجولون وأيديهم متعانقة، ثم أردفت: «لم يصبني برد ولا إنفلونزا أبداً، ولا يرقان، ولم أشتكِ أبداً من مغص في القولون، ولا عسر هضم». في بعض الأوقات، اشترينا لها ذرة مدخنة نُثر عليها عصير الليمون، أو قطعتين من الكراميل. كنا نواسيها، وعندما اقتنعت بأن رجلاً ما ينظر إليها، داعبناها ووافقناها، ولكنها لم تكن مسؤوليتنا، وفي أوقاتنا الخاصة، كنا نعترف بامتناننا لذلك.

في شهر نوفمبر، علمنا أن زوجة «هالدر» حامل، وفي ذلك الصباح بكت «بيبي» في غرفة المخزن. «إنها تقول إنني معدية مثل مرض الجدري، وسوف أفسد المولود».. قالت «بيبي» وهي تتنفس بعمق، ونظرها ثابت على الرقعة المتقشرة في الحائط. لم تصل بعد أي استجابة للإعلان الذي نُشر بالجريدة. أردفت «بيبي»: «ماذا سيحدث لي؟ ألا يكفي عقاباً لي أنني أتحمل هذه اللعنة بمفردي؟ هل يجب أيضاً إلقاء اللوم عليّ لعدوى شخص آخر؟». تصاعد الخلاف في منزل «هالدر»، وبدأت الزوجة ـ المقتنعة بأن وجود «بيبي» سوف ينقل العدوى إلى الطفل الذي لم يُولد بعدُ ـ لفت الشالات الصوفية حول بطنها المنتفخ. وفي دورة المياه، تم إعطاء «بيبي» صابوناً ومناشف منفصلة، ووفقاً لما ذكرته الخادمة؛ فإن الصحون التي تستخدمها «بيبي» يجري غسلها بعيداً عن الصحون الأخرى.

في ظهيرة أحد الأيام، ومن دون كلمة ولا سابق تحذير، تكرر الشيء نفسه من جديد؛

Twitter: @ketab_n

سقطت «بيبي» في ممر المشاة، على ضفاف بركة السمك، اهتزت، وارتجفت، ومضغت شفتيها، وعلى الفور أحاطت مجموعة من الناس بالفتاة المتشنجة، وهم متلهفون إلى مساعدتها بأي طريقة ممكنة؛ فأمسك بائع زجاجات الصودا أطرافها التي تضرب الأرض بشدة، وحاول بائع شرائح الخيار إرخاء أصابعها، بينما رشت واحدة منا عليها ماء من البركة، وأخرى مسحت فمها بمنديل معطر، وأمسك بائع نبات «الجاك فروت» برأس «بيبي» الذي كان يصارع للنهوض بكل ما يملك من قوة من جانب إلى آخر، وتضايق الرجل الذي يقطع قصب السكر، وضغط في حزن على مروحة اليد التي عادة ما يطارد بها الذباب الهائج في الجو من كل زاوية يمكن تخيلها.

– «هل يوجد طبيب في هذا الجمع؟»

– «راقبوها حتى لا تبتلع لسانها».

– «هل أخبر أي شخص هالدر بهذا الأمر؟»

– «إن حرارتها أكثر ارتفاعاً من الجمر».

وعلى الرغم من الجهود المبذولة، فإن تلك الاضطرابات استمرت؛ كأنها تتصارع مع خصم، وتحطمت البنت من جرّاء الألم الجسدي المبرح؛ فضربت أسنانها في الأرض، ووخزت ركبتيها، ومضى أكثر من دقيقتين، كنا نراقبها بقلق، ونفكر في ما يمكن أن نفعله.

«الجلد! إنها تحتاج إلى استنشاق رائحة الجلد».. صاح شخص فجأة، ثم تذكرنا أن ذلك حدث في المرة الأخيرة عندما أصابتها نوبة مماثلة؛ فاستخدمنا خفاً مصنوعاً من جلد البقر وضعناه أسفل ثقبي أنفها، الشيء الذي حررها أخيراً من براثن عذابها.

– «بيبي .. أخبرينا بما حدث؟».. سألناها عندما فتحت عينيها.

– «شعرتُ بحرارة، ثم ازدادت تلك الحرارة، ومر الدخان أمام عيني، وتحول العالم إلى اللون الأسود ـ ألم تشاهدوا ذلك؟»

رافقتها مجموعة من أزواجنا لحمايتها وهي في طريقها إلى المنزل، وقد أصبح الظلام كثيفاً، وانتفخت صدفات المحار، وأضحى الهواء مزدحماً بعبق بخور المصلين. تذمرت

Twitter: @ketab_n

«بيبي» وترنحت، ولكنها لم تنطق بشيء. غطت الكدمات وجنتيها، وانتشرت الجروح في أماكن متفرقة من جسدها، وتلبد شعرها، وتعالت كتل التراب فوق مرفقيها، وفقدت جزءاً صغيراً من أحد أسنانها الأمامية. تبعناها نحن على بعد مسافة ونحن نسير وراءها ـ افترضنا أنها ستكون آمنة ـ وأمسكنا أطفالنا في أيدينا.

احتاجت إلى بطانية وكمادة وأقراص العقار المسكن، لكن عندما وصلنا إلى ساحة الدار، رفض «هالدر» وزوجته أن تدخل «بيبي» شقتهما.

«هناك مخاطرة صحية كبيرة أن تتعامل امرأة تنتظر مولوداً مع امرأة هستيرية».. أصر «هالدر».

فنامت «بيبي» في تلك الليلة بغرفة المخزن.

في نهاية شهر يونيو، وضعت زوجة «هالدر» طفلتها على يد الجراح. كانت «بيبي» حينذاك تنام في الطابق السفلي من جديد، على الرغم من أن عائلة «هالدر» احتفظت بسريرها الخفيف في الممر، ولم يسمحوا لها بلمس الطفل مباشرة. وتعمدوا أن يرسلوها يوميّاً إلى السطح لتسجيل البضائع في المخزن حتى موعد الغداء؛ فيحضر لها «هالدر» إيصالات مبيعات الصباح، وطبقاً من البازلاء الصفراء المشقوقة للغداء، وفي المساء تتناول اللبن والخبز فقط في بئر السلم، و..تعتريها المزيد من النوبات، الواحدة تلو الأخرى، من دون أن يفحصها أحد.

عندما عَبّرنا عن قلقنا؛ أخبرَنا «هالدر» أن ذلك الأمر ليس من شأننا، ورفض بشكل قاطع أن يناقشه معنا. وتعبيراً عن امتعاضنا؛ بدأنا نبتاع مشترياتنا من أماكن أخرى، ولم يكن بأيدينا ما نفعله للانتقام منه سوى هذا. وبمضي الأسابيع، انتشر التراب فوق المنتجات المتراصة على أرفف «هالدر»، وأصبحت ملصقاتها باهتة، وفسدت زجاجات الكولونيا. وفي أثناء مرورنا في المساء، شاهدنا «هالدر» يجلس بمفرده، يضرب العثّة بنعل خفه، وبالكاد رأينا زوجته، فهي لم تزل طريحة الفراش، وفق ما روته الخادمة، ومن الواضح أن ولادتها كانت متعسرة.

Twitter: @ketab_n

جاء فصل الخريف، وما يعد به من حلول عطلات شهر أكتوبر، وغدت البلدة مزدحمة بالتسوق والتخطيط لقضاء هذا الفصل، وتعالت أصوات أغاني الأفلام من مكبرات الصوت والآلات الموسيقية عبر الأشجار. وظلت أماكن اللهو والأسواق مفتوحة طوال اليوم، وابتعنا لأطفالنا البالونات والأشرطة الملونة، واشترينا الحلويات بالكيلو، وقمنا باستدعاء التاكسي لزيارة الأقارب الذين لم نرهم خلال العام. أصبح نهار اليوم أقصر، وأمسياته أكثر برودة، وشرعنا نغلق أزرار السترات ونرتدي الجوارب، ومن ثمّ، أصابنا البرد في ذلك الوقت بالتهابات في حناجرنا، وجعلنا أطفالنا يتغرغرون بماء الملح الدافئ، ويلفون الكوفيات حول رقابهم. ولكن انتهي الأمر بإصابة طفلة «هالدر» الرضيعة بالمرض.

تم استدعاء طبيب في منتصف الليل لتخفيض الحمى التي انتابتها، وتوسلت إليه زوجة «هالدر» قائلة: «أرجوك اشفها، سنعطيك أي شيء تطلبه، أرجوك اشفِ لي طفلتي الصغيرة»، أيقظتنا صيحاتها الحادة جميعاً. وصف الطبيب دواء طبيّاً من الجلوكوز، وسحق حبات الأسبرين في هون، وأمرهم أن يلفوا الطفلة بالبطاطين والأغطية.

ولكن على الرغم من مضي خمسة أيام، فإن الحمى لم تتزحزح.

انتحبت زوجة «هالدر» ورددت: «إنها بيبي.. هي التي فعلت ذلك، نقلت العدوى إلى طفلتنا، ما كان يجب علينا أبداً أن نعيدها إلى هنا، ما كان يجب علينا أبداً أن نسمح لها بالعودة إلى هذا المنزل».

وهكذا، عادت «بيبي» إلى قضاء لياليها في غرفة المخزن من جديد، واستجابةً لإلحاح زوجته؛ نقل «هالدر» سريرها الخفيف إلى هناك، ومعه صندوق من الصفيح يحمل متعلقاتها، وتُترك لها وجبات طعامها مغطاة في مصفاة أعلى سلالم الدرج.

أخبرتنا «بيبي»: «أنا لا أمانع في ذلك؛ فمن الأفضل أن أعيش بعيداً عنهم، وأن يكون لي منزل خاص بي»، أفرغت محتويات الصندوق، الذي يحتوى على بعض الثياب المنزلية، وإطار به صورة والدها، وأدوات الخياطة وتشكيلة من الأنسجة، وشرعت تنظم أشياءها فوق بعض الأرفف القليلة الفارغة. وبنهاية الأسبوع، تعافت الطفلة الرضيعة من المرض، ولكن لم يُطلب من «بيبي» العودة إلى الطابق السفلي، وحتى تهدئ من مخاوفنا؛ قالت لنا:

Twitter: @ketab_n

«لا تقلقوا، الأمر ليس كما يبدو أنهم قد سجنوني هنا؛ فالعالم يبدأ من قاع الدرج، والآن أنا حرة في اكتشاف الحياة كما أرغب».

لكنها في الحقيقة، توقفت عن الخروج على الإطلاق، وعندما طلبنا منها أن تأتي معنا إلى بركة المياه لمشاهدة الزينة الموضوعة على المعبد، رفضت، وادعت أنها تحوك ستارة جديدة لتعليقها على مدخل غرفة المخزن، غير أن جلدها بدا رماديّاً، وأنها تحتاج إلى الهواء المنعش، واقترحنا عليها: «ما رأيك في إيجاد زوج لكِ؟ فكيف تتوقعين أن تسعدي رجلاً وأنت تجلسين هنا طوال اليوم؟»

ولكنها لم تقتنع بأي شيء.

* * *

بحلول منتصف شهر ديسمبر، جمع «هالدر» كل بضائعه التي لم تُبَعْ من فوق أرفف محل مستحضرات التجميل، وحملها في صناديق إلى غرفة المخزن؛ فقد نجحنا بشكل أو بآخر في إلحاق الخسارة بعمله، وقبل أن ينتهي العام، رحلت العائلة بعيداً، تاركة مظروفاً به ثلاثمائة روبية أسفل باب «بيبي»، ولم تعد هناك أي أخبار عنهم.

احتفظت واحدة منا بعنوان أحد أقارب «بيبي» في «حيدرأباد»، فكتبت له شارحة الموقف، ولكن الخطاب عاد من دون أن يتسلمه أحد لعدم الاستدلال على العنوان. وقبل حلول الأسابيع الباردة، أصلحنا مصاريع غرفة المخزن، وأضفنا لوحاً من الصفيح إلى إطار الباب؛ حتى تحصل «بيبي» على بعض الخصوصية على الأقل. وتبرع لها شخص بمصباح كيروسين، ومنحها آخر شبكةً لصيد البعوض وزوجين من الجوارب. كنا نذكرها في كل مناسبة بوقوفنا معها، وأنها يمكن أن تلجأ إلينا إذا احتاجت نصيحة أو مساعدة من أي نوع. وخلال بعض الوقت، أرسلنا أطفالنا للعب فوق السطوح في فترات بعد الظهيرة؛ حتى يخبرونا إذا هاجمتها نوبة أخرى. ولكننا نتركها بمفردها كل ليلة.

مضت بعض الشهور، و«بيبي» معتزلة في صمت طويل عميق؛ كنا نتناوب إمدادها بصحون الأرز وأكواب الشاي، ولكنها كانت تشرب وتأكل القليل، وبدأت تستخدم تعبيراً لم يعد يتماشى مع سنوات عمرها. في وقت الغسق، تطوف بحاجز شرفة السطوح

Twitter: @ketab_n

مرتين أو ثلاثاً، ولكنها لم تغادر السطوح قط، وبحلول الظلام، تظل خلف الباب المعدني، ولا تخرج لأي سبب من الأسباب. لم نزعجها، وظنَّ البعض منا أنها ربما تحتضر، وخلصت أخريات إلى أنها ربما فقدت عقلها.

في صباح أحد أيام شهر أبريل، عندما عادت الحرارة إلى تجفيف رقائق نبات العدس على السطوح، لاحظنا أن شخصاً قد تقيأ إلى جانب صنبور الصهريج، وعندما تكررت الملاحظة في صباح اليوم الثاني أيضاً، طرقنا باب غرفة «بيبي»، ولكن لم نتلق إجابة؛ ففتحنا الباب بأنفسنا؛ ولم يكن هناك قفل يغلقه.

وجدنا «بيبي» راقدة فوق سريرها الخفيف، وعرفنا أنها حامل في الشهر الرابع تقريباً.

أخبرتنا بأنها لا تتذكر ما حدث، وأنها لن تخبرنا عمن فعل ذلك. أعددنا لها لُبَاب الدقيق باللبن الساخن والزبيب، وظلت متكتمة على هوية الرجل الذي فعل ذلك. ومن دون جدوى، بحثنا عن آثار لحدوث هجوم أو بعض علامات تدل على حدوث اقتحام، ولكن الحجرة كانت مكنوسة ومرتبة، وعلى الأرض إلى جانب سريرها، يرقد سجل الجرد المفتوح على صفحة جديدة تحتوي على قائمة أسماء.

حملت «بيبي» الطفل إلى موعد المخاض، وفي إحدى أمسيات شهر سبتمبر، ساعدناها على الولادة، وأرشدناها إلى كيفية إطعام طفلها، وغسله، وهدهدته للنوم. اشترينا لها مشمعاً، وأعناها على حياكة ملابس وأكياس مخدات من الأقمشة التي خزنتها عبر السنوات. وتعافت «بيبي» من الولادة في غضون شهر، وبمقدار المال الذي تركه لها «هالدر» قامت بطلاء غرفة المخزن، ووضعت أقفالاً على النافذة والأبواب، ونفضت التراب عن الأرفف، ورتبت بقايا جرعات الأدوية ومستحضرات التجميل، وباعت محتويات مخزن «هالدر» بنصف الثمن، وطلبت منا أن نذيع ذلك، وقد فعلنا بالفعل. واشترينا من «بيبي» الصابون والكحل والأمشاط والبودرة، وعندما باعت آخر بضائعها، توجهت بالتاكسي إلى سوق الجملة، واستعانت بأرباحها على إعادة ملء الأرفف بالبضائع. وبهذه الطريقة، ربت «بيبي» الصغير، وأدارت عملاً في غرفة المخزن، وقمنا

Twitter: @ketab_n

بما نستطيع لمساعدتها. وطوال السنوات التالية، كنا نفكر في الشخص الذي تجرأ في هذه البلدة وألحق بها العار، وجرى استجواب عدد قليل من الخدم، وكذا طرد عدد من المشتبه فيهم في أكشاك الشاي ومواقف الأوتوبيس، ولكن لم تكن هناك فائدة من إجراء تحقيق رسمي؛ فوفق معرفتنا، شُفيت «بيبي» بالفعل.

Twitter: @ketab_n

القارة الثالثة والأخيرة

غادرت الهند في العام 1964، ولم أكن أحمل معي شيئاً سوى شهادة في التجارة، وما يعادل عشرة دولارات بسعر يومنا هذا. أبحرت على سفينة بضائع إيطالية تحمل اسم «إس إس روما» لمدة ثلاثة أسابيع، في كابينة بالدرجة الثالثة مجاورة لمحرك السفينة، التي عبرت مياه بحر العرب والبحر الأحمر والبحر المتوسط لتصل أخيراً إلى إنجلترا. عشت في شمال لندن بضاحية «فينسبري بارك» في منزل يشغله عن آخره عزاب بنغاليون مفلسون مثلي؛ عددهم نحو دستة، وأحياناً يكونون أكثر من ذلك، وكلنا نكافح من أجل التعليم وبناء أنفسنا بالخارج.

كنت أحضر محاضرات في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، وفي الوقت نفسه أعمل في مكتبة الجامعة لتوفير نفقات المعيشة. عشنا ثلاثة أو أربعة أفراد في حجرة واحدة، نتشارك استخدام مرحاض واحد بلون الثلج، وتبادلنا الأدوار في طهي أطباق البيض بالكاري، التي كنا نتناولها بأيدينا على منضدة مغطاة بورق الجرائد. كانت لدينا مسؤوليات قليلة إلى جانب أعمالنا، وفي العطلات الأسبوعية، كنا نتسكع حفاة الأقدام مرتدين «بيجامات» سراويلها ذات أربطة، أو نحتسي الشاي وندخن سجائر «روثمانز»، أو نقوم برحلة لمشاهدة رياضة «الكريكيت» في ملعب «لوردز». وأحياناً يحتشد المنزل في بعض العطلات الأسبوعية بعدد غفير من البنغاليين الذين نتعرف إليهم في متجر بائع الخضار والفاكهة أو مترو الأنفاق؛ فنقوم بطهي المزيد من أطباق البيض بالكاري، ونستمع إلى أغاني المطرب «موكيش»، من خلال مشغل أسطوانات ماركة «جروندنج»، ونغسل أطباقنا المتسخة في حوض الاستحمام. ومن وقت إلى آخر، ينتقل شخص من المنزل للعيش مع المرأة التي قررت أسرته المقيمة في «كلكتا» أن يتزوجها. في العام 1969، عندما بلغتُ السادسة والثلاثين من العمر، تم ترتيب زواجي أيضاً، وفي الوقت نفسه تقريباً، عُرضت

Twitter: @ketab_n

عليّ وظيفة تحتاج إلى التفرغ في أمريكا بقسم العمليات في مكتبة بمعهد «ماساتشوسيتس» للتكنولوجيا، براتب سخيّ يكفي لإعالة زوجة، وكان تكريماً لي أن يتم تعييني في جامعة مشهورة على مستوى العالم؛ ولذلك حصلت على الدرجة السادسة «للجرين كارد»[1]، واستعددت للسفر إلى مكان أبعد.

بحلول ذلك الوقت، توافر لديَّ المبلغ الكافي لأن أسافر بالطائرة؛ فسافرت، أولاً، إلى «كلكتا» لحضور زفافي، وبعدها بأسبوع سافرت إلى «بوسطن» لكي أبدأ عملي الجديد. قرأت على متن الطائرة خلال تلك الرحلة مجلداً ورقي الغلاف بعنوان: «دليل الطالب إلى شمال أمريكا» اشتريته قبل مغادرتي «لندن» في مقابل مبلغ سبع قطع من فئة «الشِّلن»[2] وستة بنسات، وذلك من طريق «كورت توتينهام»، وعلى الرغم من أنني تجاوزت مرحلة الدراسة ولم أعد طالباً، فإن ميزانيتي المحدودة لم تختلف. علمت من الكتاب أن الأمريكيين يقودون السيارات على الجانب الأيمن من الطريق وليس الأيسر، وأنهم يستخدمون مفردات إنجليزية أخرى مختلفة عن تلك التي يستخدمها الإنجليز لوصف بعض الأشياء مثل المصعد الكهربائي والهاتف المشغول، وقرأت أيضاً العبارات الإرشادية التالية: «سوف تكتشف أن إيقاع الحياة في أمريكا يختلف عن نظيره في إنجلترا، يشعر كل شخص بأنه يجب أن يصل إلى القمة، فلا تتوقع أن تحتسي قدحاً من الشاي الإنجليزي في برود». وبينما بدأت الطائرة بالهبوط فوق ميناء «بوسطن»، أذاع الطيار درجة الحرارة والتوقيت، وأضاف أن الرئيس «نيكسون» قد منح ذلك اليوم عطلة رسمية بمناسبة هبوط أمريكيين فوق سطح القمر، وابتهج العديد من المسافرين على الطائرة، وهتف أحدهم قائلاً: «فليبارك الرب أمريكا»، وعبر الممرات الضيقة بين مقاعد الطائرة رأيت امرأة تصلي.

قضيت ليلتي الأولى في أحد مراكز الإقامة الرخيصة التكلفة، التابعة لجمعية الشباب المسيحيين، والذي يقع بالميدان المركزي في «كامبريدج»، وأوصى به الكتاب الإرشادي

1- sixth-preference of green card: البطاقة التي تسمح للأجانب بالإقامة الدائمة في الولايات المتحدة الأمريكية، وتتيح لهم أداء أعمال محددة. (المترجمة)

2- Shilling: الشِّلن عملة تعادل 1 / 20 من قيمة الجنيه الإسترليني. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

الذي قرأته في الطائرة. كان المركز على بعد مسافة بسيطة ـ تُقطع سيراً على الأقدام ـ من مكان عملي الجديد بمعهد «ماساتشوسيتس» للتكنولوجيا، وعلى بعد خطوات من مكتب البريد والسوبر ماركت الذي يُطلق عليه اسم «بيورتي سوبريم». احتوت الغرفة على سرير وغطاء، ومكتب، وصليب خشبي معلق على أحد جوانب الحائط، وأشارت ورقة مثبتة على الباب إلى أن الطبخ من الأشياء الممنوعة تماماً. أما نافذة الغرفة، فكانت مكشوفة وتطل على طريق «ماساتشوسيتس»؛ شارع رئيسي مزدحم بحركة مرورية في اتجاهين، وتعلو منه أصوات أبواق السيارات الصاخبة الممتدة بصورة متتالية، وتبشر صفارات الإنذار المفاجئة بعدد لا نهائي من الحالات الطارئة، إضافة إلى الضجيج الناجم عن أسطول الأوتوبيسات الذي يمر بهذه الطريق، والأصوات القوية العالية الصادرة من فتح أبوابها وغلقها طوال الليل. أصابتني الضوضاء بالتشتت الدائم وأحياناً بالاختناق؛ كنت أشعر بها تتسلل إلى أعماق ضلوعي، بالطريقة نفسها التي شعرت بها مع أزيز المحرك الصاخب لسفينة «إس إس روما»، ولكن لم يكن هناك سطح أهرب إليه مثل الذي توافر بالسفينة، ولا بحر متألق يثير الرعشة في روحي، ولا نسيم يرطب وجهي، ولا أي شخص أتحدث إليه؛ فلقد كنت متعباً جدّاً وليس بمقدوري أن أخطو في طرقات المركز الكئيبة وأنا أرتدي البيجاما، وبدلاً من ذلك جلست فوق المكتب وحدّقت خارج النافذة في رواق مدينة «كامبريدج» وَصَفِّ المحلات الصغيرة. وفي الصباح، توجهت إلى مقر عملي بمكتبة «دووي»؛ مبنى يشبه الحِصْن ولونه بني فاتح يقع على طريق «ميموريال درايف». فتحت أيضاً حساباً في البنك، واستأجرت صندوقاً بريدياً، وابتعت طبقاً بلاستيكيّاً وملعقة من متجر «والورثيز» الذي عرفت اسمه من لندن، وهممت شطر سوبر ماركت «بيورتي سوبريم»، وطفت ذهاباً وإياباً في ممراته لتحويل وحدة وزن «الآونس» إلى الجرامات ومقارنة الأسعار بالأشياء في إنجلترا، وفي النهاية اشتريت علبة لبن صغيرة وعلبة «كورن فليكس»؛ وتناولت وجبتي الأولى في أمريكا على مكتبي، وقد فضلتها على الهامبورجر والهوت دوج؛ البديلين الوحيدين اللَّذين كان من الممكن تحمل نفقاتهما في المطاعم الموجودة على طريق «ماساتشوسيتس»، وبخلاف ذلك لم أذقْ أي نوع من اللحوم في

Twitter: @ketab_n

ذلك الوقت. وحتى المهمة الروتينية البسيطة لشراء اللبن، كانت بمثابة شيء جديد بالنسبة إليَّ؛ ففي لندن كان يجري توصيل عُلب اللبن إلى أعتاب منزلنا كل صباح.

تكيفت مع الوضع بشكل أو بآخر في غضون أسبوع، وتناولت وجبة الكورن فيليكس مع اللبن في الصباح والمساء، واشتريت بعض الموز للتنويع؛ كنت أقطعه إلى شرائح بحافة الملعقة وأضعه في الطبق. كما ابتعت أكياس الشاي، ودورقاً أشار إليه البائع في متجر «والورثيز» باسم «التِّرْمُس» (وأخبرني أنه دورق يُستخدم لتخزين الويسكي؛ شيء آخر لم أذقْه أبداً). وتوفيراً للسعر الباهظ لكوب الشاي الواحد في المقاهي؛ ملأت الدورق بالماء الساخن وأنا في طريقي إلى العمل كل صباح؛ لإعداد أكواب الشاي الأربعة التي أحتسيها طوال اليوم، واشتريت علبة لبن كبيرة، وتعلمت أن أتركها فوق الجزء المُظلم من عتبة النافذة، مثلما يفعل أحد المقيمين في مركز إقامة جمعية الشبان المسيحيين. ولقضاء الوقت في المساء؛ كنت أقرأ جريدة «بوسطن جلوب» في حجرة رحبة بالدور السفلي، نوافذها مصنوعة من الزجاج المعشق. لم أترك مقالاً في الجريدة إلا وقرأته، والإعلانات أيضاً لكي أعرف الأشياء أكثر، وعندما تصاب عيناي بالتعب أخلد إلى النوم، غير أنني لم أنمْ جيداً؛ كان يتعين عليّ كل ليلة أن أترك نافذة الغرفة مفتوحة؛ فهي مصدر التهوية الوحيد في تلك الغرفة الخانقة، لكن الضوضاء كانت غير مُحتملة. كنت أرقد على السرير وأنا أضغط أذني بأصابعي، وعندما أستغرق في النوم، تسقط يداي وتوقظني من جديد أصوات ضوضاء المرور. أما ريش الحمام فكان يتساقط في عتبة النافذة، وفي إحدى الأمسيات عندما سكبت اللبن على الكورن فيليكس وجدت أنه قد فسد. وعلى الرغم من ذلك، قررت البقاء في ذلك المكان لمدة ستة أسابيع، إلى حين الانتهاء من إجراءات استخراج جواز السفر وبطاقة «الجرين كارد» لزوجتي. وبمجرد وصولها، سوف أستأجر شقة مناسبة، ومن وقت إلى آخر، كنت أبحث في القسم المخصص لذلك بالجرائد، أو أتوقف لدى مكتب عقارات في معهد «ماساتشوسيتس» للتكنولوجيا في أثناء استراحة الغداء للسؤال عما هو متاح وفقاً لظروفي المادية. وبتلك الطريقة، عثرت على إعلان عن

Twitter: @ketab_n

حجرة للإيجار الفوري بشارع هادئ في مقابل ثمانية دولارات أسبوعيّاً. سجلت رقم الهاتف المكتوب في الإعلان في كتابي الاسترشادي واتصلت به من تليفون عمومي، بينما أفرز العملات المعدنية التي لم تكن مألوفة بالنسبة إليَّ في ذلك الوقت؛ فهي أصغر وأقل وزنا من «الشِّلن»، وأثقل وأكثر لمعاناً من «البايسا»[1].

سألتني المرأة على الهاتف بصوت واضح ومتذمر: «من المُتحدث؟»

– «مساء الخير سيدتي.. أتحدث بشأن الغرفة المعروضة للإيجار».

– «هارفارد» أم «ماسا؟»

– « معذرة.. ماذا تقصدين؟»

– «هل أنت من «هارفارد أم من ماساتشوسيتس؟»

وبعدما فهمت أنها تقصد بكلمة «ماسا» معهد «ماساتشوسيتس» للتكنولوجيا، أجبتها مترددا قائلاً: «أعمل بمكتبة دووي في ماسا».

– «إنني أؤجر الحجرة للأولاد من هارفارد وماساتشوسيتس فقط».

– «نعم.. سيدتي».

أعطتني عنواناً وموعداً في تمام الساعة السابعة من مساء ذلك اليوم؛ بدأت التحرك قبل الموعد بنصف ساعة ومعي كتابي الاسترشادي في جيبي، وأنفاسي تنتعش برائحة غسول الفم «ليستيرين». توجهت إلى شارع تظلله الأشجار، متفرع من طريق «ماساتشوسيتس»، وكان العشب المتناثر مدسوساً بين شقوق الرصيف. وعلى الرغم من حرارة الجو، ارتديت معطفاً ورابطة عنق؛ فلقد تعاملت مع ذلك الحدث وكأنني في مقابلة شخصية؛ فلم يسبق لي الإقامة أبداً في منزل أي شخص ليس هنديّاً. كان المنزل محاطاً بسياج من السلاسل المتصلة ذات اللون الأبيض الذي يميل إلى الصفرة، ومزخرفة بإطار خشبي خارجي لونه بني غامق. وعلى العكس من المنزل الذي عشت فيه في لندن؛ حيث كان يقع في صف منازل مكسوّة بالجص؛ كان ذلك المنزل منفصلاً تماماً، ومغطى بألواح خشبية وكتلة متشابكة من الأغصان الكثيفة الملتصقة بشجر «الفرسيتية»[2] في الواجهة والجوانب.

1– paisa البايسا عملة هندية (المترجمة)

2–Forsythia: شجرة الفرسيتية هي شجرة من الفصيلة الزيتونية (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

وعندما ضغطت على جرس الباب، صاحت المرأة ـ التي سبق أن تحدثت معها عبر الهاتف ـ من خلف الباب على ما يبدو، قائلة: «دقيقة واحدة من فضلك!».

بعد عدة دقائق، فتحت الباب امرأة عجوز هزيلة، وكتلة من الشعر الأبيض معقودة فوق رأسها كأنها كيس صغير، وبينما كنت أخطو داخل المنزل، جلست المرأة فوق مقعد خشبي يقع في مكان ضيق مفروش بسجادة أسفل الدرج الداخلي للمنزل. وبمجرد أن استقرت في مقعدها الذي يحظى ببقعة صغيرة من الضوء، نظرت إليَّ بتركيز شديد وهي تحدق في وجهي. كانت ترتدي تنورة سوداء طويلة غطت قدمها مثل الخيمة المثبتة في الأرض، وقميصاً أبيض من الطراز الرسمي، ذا حروفٍ مكشكشة لدى الرقبة وأطراف الأكمام. كانت يداها مطويتين معاً فوق أطراف ثوبها، وذات أصابع طويلة شاحبة ومفاصل منتفخة، وأظافر خشنة صُفر. سحقت الشيخوخة ملامحها لدرجة أنها باتت تشبه تقريباً رجلاً بعينين حادتين منكمشتين، أما التجاعيد فكانت بارزة حول جانبي أنفها، وبالكاد تظهر شفتاها المتشققتان الباهتتان، وكان حاجباها متواريين تماماً، وعلى الرغم من ذلك بدت قوية.

على الرغم من أنني كنت أقف على بعد خطوات قليلة منها، صاحت المرأة في وجهي قائلة: «أغلقِ الباب!.. ثبتِ السلسلة، واضغطْ ذلك الزر فوق المقبض بإحكام! هذا أول شيء سوف تفعله عندما تدلف إلى المنزل، فهل هذا واضح؟»

أغلقت الباب بالطريقة التي طلبتها، وتفحصتُ المنزل. توجد إلى جانب المقعد الذي جلست عليه المرأة، منضدة صغيرة مستديرة أرجلها مغطاة ـ مثل أرجل المرأة ـ بغطاء من قماش الدانتيل، وفوقها مصباح، ورايو ترانزستورز، ومحفظة جلدية للنقود من فئة العملات الصغيرة مثبت بها مشبك فضي، وتليفون، ويستند إلى أحد جوانب تلك المنضدة عكاز خشبي سميك تكسوه طبقة من التراب. كانت هناك ردهة في الجانب الأيمن تصطف فيها مجلدات الكتب وتمتلئ بقطع من الأثاث البالي ذي الأقدام المخدوشة. وفي أحد جوانب الردهة، رأيت بيانو ضخماً مغلقاً وغطاؤه وسطحه مكدسان بأكوام الورق، أما مقعد البيانو فكان مفقوداً، ويبدو أنه ذلك المقعد الذي تجلس فوقه المرأة، وسمعت دقات الساعة في مكان ما بالمنزل تعلن أنها السابعة.

Twitter: @ketab_n

صرحت المرأة قائلة: «إنك دقيق في مواعيدك! أتوقع أن تكون على هذا النحو في دفع الإيجار!».

أجبتها قائلاً: «لديّ خطاب تكليف يا سيدتي». أحضرت معي في جيب معطفي خطاباً يؤكد عملي في معهد «ماساتشوسيتس» للتكنولوجيا؛ لكي أبرهن لها أنني بالفعل من «ماسا».

حدقتْ في الخطاب، وسلمتني إياه بعناية وهي تمسكه بأصابعها بإحكام كأنه صحن عشاء يمتلئ بالطعام، وليس مجرد ورقة. لم تكن تضع نظارة طبية، وتعجبت إن كانت قد قرأت منه كلمة واحدة. وأردفت قائلة: «كان الولد السابق عليك يتأخر دائماً في دفع الإيجار! مازال مديناً لي بثمانية دولارات! لم يعد أولاد هارفارد كسابق عهدهم! غير أنه لا يعيش في هذا المنزل إلا أولاد هارفارد وماسا فقط! كيف حال «ماسا» يا ولد؟»

– «على ما يرام.»

– «هل تأكدت من غلق الباب؟»

– «نعم سيدتي.»

أفسحت مساحة إلى جانبها فوق المقعد، وأشارت لي بإحدى يديْها لكي أجلس. ظلت صامتة لدقيقة، ثم ترنمت بالكلمات التالية كأنها الوحيدة في العالم التي تمتلك هذه المعلومة:

– «يوجد علم أمريكي فوق القمر!»

«نعم، سيدتي».. كانت إجابتي، فحتى تلك اللحظة لم أفكر كثيراً في تلك المغامرة فوق القمر، غير أن الحدث بالطبع تصدَّر صفحات الجرائد في مقالة تلو الأخرى؛ حيث قرأت أن رواد الفضاء هبطوا على شواطئ بحر الهدوء[1]؛ ليسافروا بذلك إلى أبعد نقطة في تاريخ الحضارة، لم يصل إليها أي شخص آخر من قبل، وراحوا يستكشفون سطح القمر لبضع ساعات قليلة، وجمعوا صخوراً ووضعوها في جيوبهم، وغرسوا علماً في أرض القمر، وفي أثناء حديثه عبر الهاتف مع الرئيس وصف واحد منهم الأشياء المحيطة

1– Sea of Tranquility: بحر الهدوء وهو منطقة فوق سطح القمر أطلق عليها العلماء هذا الاسم. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

بهم على أنها عالم مهجور رائع بحق. احتفى العالم بهذه الرحلة، وعَدَّها الأكثر رعباً في سجل إنجازات الإنسان. شاهدت صوراً في جريدة «جلوب» ـ بحجم صفحات كاملة ـ لرواد الفضاء بملابسهم المنتفخة، كما قرأت عما قام به بعض أفراد العامة في «بوسطن». في تلك اللحظة التي هبط فيها رواد الفضاء على سطح القمر في ظهيرة أحد أيام الأحد، ذكر رجل أنه كان يقود زورقاً وهو يضع راديو فوق أذنه، وامرأة أخرى روت أنها كانت تخبز الفطائر لأحفادها.

قالت المرأة العجوز بصوت عالٍ: «علم فوق أرض القمر يا ولد! سمعت ذلك في الراديو! أليس ذلك رائعاً؟»

– «نعم يا سيدتي».

ولكنها لم تقتنع بذلك الرد، وأمرتني قائلة: «قل رائع!».

أصابني طلبها بالارتباك والشعور بالإهانة في الوقت ذاته، وذكرتني بالطريقة التي تعلمت بها جداول الضرب في أثناء طفولتي؛ بأن أكرر ما يقوله المعلم وأنا جالس متربع الساقين على أرضية الحجرة في مدرسة «توليجانج» ذات الفصل الواحد في «توليجانج»، وقدماي حافيتان، وليس معي قلم رصاص. وتذكرت أيضاً حفل زفافي حين اضطررت إلى تكرار عدد لانهائي من الآيات باللغة السنسكريتية وراء الكاهن؛ تلك الآيات التي ربطتني بزوجتي وبالكاد أفهمها. لم أتفوه بكلمة واحدة للرد عليها، كما أمرت السيدة العجوز.

ولكنها لم تتوانَ عن الصراخ في وجهي ثانية قائلة: «قل: رائع!».

همست قائلاً: «رائع»، وكررت الكلمة بكل ما أستطيع من قوة؛ حتى تسمعني، على الرغم من أن ذلك التصرف يتناقض مع طبيعتي الهادئة في الحديث؛ ومن ثمّ شعرت بالضيق لأنني رفعت صوتي في وجه امرأة مسنة لم أتعرف إليها إلا منذ لحظات قليلة، غير أنها لم تشعر بالإهانة، بل بدا لي أن الرد أسعدها لأنها أمرتني قائلة:

«اذهبْ لمشاهدة الغرفة!»

Twitter: @ketab_n

نهضت من المقعد، وصعدت درجات السلم الضيق المفروش بسجادة، رأيت أبواب خمس غرف في رواق ضيق؛ اثنيْن في كلا الجانبيْن، وواحداً في النهاية المقابلة للردهة، كانت الأبواب الخمسة مغلقة عدا باباً واحداً مفتوحاً إلى حد ما. احتوت الغرفة على سرير مزدوج تحت سقف مائل، وسجادة بيضاوية الشكل ذات لون بني، وحوض ذي ماسورة مكشوفة، وخزانة بأدراج. كان بالغرفة اثنان من الأبواب؛ واحد مطلي باللون الأبيض ويُفضي إلى غرفة ملابس صغيرة بها خزانة، أما الآخر فيؤدي إلى المرحاض وحوض الاستحمام. كانت حوائط الغرفة مغطاة بورق مخطط باللونيْن الرمادي والعاجي، وكانت نافذتها مفتوحة وتتطاير أمامها الستائر الشبكية من جراء النسيم. رفعت الستائر بعيداً، وألقيت نظرة على المشهد خارج النافذة؛ ساحة فناء خلفية صغيرة، تضم عدداً قليلاً من أشجار الفاكهة، وحبل غسيل فارغاً، أشعرني ذلك بالرضا. ومن أسفل الدرج، سمعت صوت المرأة تسألني: «ما قرارك؟»

عندما عدت إلى البهو وأخبرتها بموافقتي، التقطت حافظة نقودها الجلدية من فوق المنضدة، وفتحت مشبكها، وأدخلت أصابعها تفتش عن شيء، فأخرجتْ مفتاحاً معلقاً في طوق سلكي رفيع. أفادتني بوجود مطبخ في الجهة الخلفية للمنزل يمكن الوصول إليه عبر الردهة، ورحبت باستخدامي للموقد؛ بشرط أن أتركه نظيفاً تماماً كما كان من قبل، وكانت ملاءات السرير والمناشف متوافرة، ولكن تنظيفها كان مسؤوليتي. أما الإيجار فيجب عليَّ دفعه في صباح يوم الجمعة بإيداعه على الرف فوق مفاتيح البيانو. وأردفت المرأة محذرة: «ممنوع استقبال زائرات!»

«سيدتي.. أنا رجل متزوج».. كانت المرة الأولى التي أُعلن فيها تلك الحقيقة لأي شخص.

«ممنوع استقبال زائرات!».. لم تسمعني، وأصرت على تكرار العبارة نفسها، وقدمت نفسها إليَّ بأنها السيدة «كروفت».

Twitter: @ketab_n

كانت زوجتي تُدعى «مالا»، وقد هيَّأ لي هذه الزيجة شقيقي الأكبر وزوجته، أما أنا فلم يحدُني تجاه الاقتراح شعور بالرفض ولا بالحماسة، بل كان الأمر بالنسبة إليَّ بمثابة أداء واجب مُتوقع، شأني في ذلك شأن كل الرجال. كانت «مالا» ابنة أحد معلمي المدارس في منطقة «بيليجاتا»، وأخبروني بأنها تجيد الطهي والحياكة والتطريز ورسم اللوحات وإلقاء أشعار قصائد «طاغور»، ولكن كل تلك المواهب لم تغفر لها افتقارها إلى البشرة الجميلة، وعزوف الرجال عن الزواج بها بسبب عدم تناسق ملامح وجهها. كانت في السابعة والعشرين من عمرها وقت زواجنا؛ أي وصلت إلى السن التي ساور فيها والداها الشعور بالخوف من أنها لن تتزوج أبداً؛ ومن ثمّ كانا على استعداد لشحن ابنتهما الوحيدة إلى تلك النقطة البعيدة في العالم لإنقاذها من شبح العنوسة.

تشاركنا الفراش خمس ليالٍ، وفي كل ليلة منها، وبعد أن تضع الكريم المرطب وتصفف شعرها ضفائر تعقد نهايتها بشريط أسود قطني، كانت تبتعد عني وتبكي؛ فهي تفتقد والديْها. وعلى الرغم من أنني كنت سأغادر البلاد في غضون أيام قلائل، فإن التقاليد جرت على أنها أصبحت بزواجي منها جزءاً من أسرتي، وطوال الأسابيع الستة التالية للزواج، ينبغي عليها العيش مع شقيقي وزوجته والقيام بالطبخ والتنظيف وإعداد الشاي والحلوى وتقديمهما للضيوف. لم أفعل شيئاً لمواساتها، كنت أرقد على جانبي في السرير، وأستغرق في قراءة كتابي الإرشادي في ضوء مشعل كهربائي، وأتعجل بدء رحلتي. كنت أفكر أحياناً في الغرفة الصغيرة الموجودة على الجانب الآخر من الحائط؛ الغرفة التي كانت خاصة بوالدتي، والتي أصبحت خالية الآن تقريباً، وتكدس الفراش الخشبي ـ الذي كانت تنام عليه في السابق ـ بأكوام من الملابس والبطاطين القديمة. وقبل ستة أعوام تقريباً، قبل أن أغادر إلى لندن، راقبت موتها فوق ذلك الفراش، واكتشفت أنها كانت تعبث ببرازها في أيامها الأخيرة، وقبل أن نحرق جثتها، استخدمت دبوس شعر لتنظيف كل أظافرها، ولم يتحمل شقيقي الأكبر الأمر؛ ومن ثمّ لعبت دوره، ولمست لهب هيكلها المحترق لكي أطلق سراح روحها المعذبة إلى السماء.

Twitter: @ketab_n

انتقلتُ للسكن في غرفة منزل السيدة «كروفت» في صباح اليوم التالي. وعندما فتحت الباب، رأيتها تجلس فوق مقعد البيانو، في الجانب نفسه كما تركتها في الليلة الماضية، وترتدي الملابس نفسها؛ التنورة السوداء والقميص الأبيض، ولا تزال يداها مطويتيْن معاً بالطريقة نفسها؛ فتعجبت وبدا لي الأمر كأنها قضت ليلتها فوق ذلك المقعد. وضعت حقيبة سفري في الطابق الأعلى، وملأت الدورق الذي كان معي بماء ساخن من المطبخ، وتوجهت إلى عملي. وعندما عدت من عملي بالجامعة في ذلك المساء، وجدتها مازالت هناك في جلستها.

أفسحتْ المكان إلى جانبها وقالت: «اجلس يا ولد!».

جلست إلى جانبها فوق المقعد، كنت أحمل معي كيساً من البقالة يحتوي على المزيد من اللبن والكورن فيليكس والموز؛ فلقد اكتشفت ـ عندما فحصت المطبخ في وقت مبكر من هذا الصباح ـ أنه يخلو من أي قدور أو قلايات أو أوعية طبخ إضافية، ولا يتوافر به سوى قدريْن صغيريْن لهما مقبضان ويقبعان في الثلاجة؛ ويحتويان على بعضٍ من حساء البرتقال، إضافة إلى غلاية نحاسية موضوعة على الموقد.

– «مساء الخير سيدتي».

سألتني إذا كنت قد أوصدت الباب جيداً، فأكدت لها أنني فعلت ذلك. صمتتْ لبرهة، ثم أعلنتْ فجأة بالقدر ذاته من الدهشة والغبطة اللتيْن أبدتهما من قبل في الليلة السابقة، قائلةً: «يوجد علم أمريكي فوق القمر يا ولد!»

– «نعم سيدتي.»

– «علم فوق القمر! أليس هذا الأمر رائعاً بحق؟»

– « نعم سيدتي».. أومأت برأسي، وتوجست لمعرفتي بما سيحدث إثرها.

– «قل: رائع!»

توقفت في هذه المرة، ونظرت إلى جوانب المكان أتحقق من وجود أي شخص آخر يتنصّت عليّ، وذلك على الرغم من يقيني التام بخلو المنزل؛ فشعرت بالبلاهة، وفكرت في أن ما طلبته يُعد من الأشياء التافهة، ومن ثمّ صحت قائلاً: «رائع!»

Twitter: @ketab_n

في غضون أيام، بات ذلك الحديث القصير من الأمور الروتينية، وعندما أغادر متوجهاً إلى عملي بالمكتبة في الصباح، تكون السيدة «كروفت» إما مختفية بعيداً في حجرة نومها التي تقع على الجانب الآخر أسفل السلم الداخلي، وإما جالسة فوق المقعد ـ غافلة عن وجودي ـ تستمع إلى الأخبار أو الموسيقى الكلاسيكية عبر المذياع. ولكن عندما أعود في المساء، يتكرر الشيء نفسه: تفسح لي مكاناً فوق المقعد وتأمرني بالجلوس، وتعلن عن وجود علم فوق القمر، وتصف ذلك بأنه أمر رائع، ثم أعلق على ذلك بتكرار كلمة «رائع»، وبعدها نجلس في صمت. وهكذا كان الأمر يشعرني بالارتباك، كنت أشعر وقتها بأنه شيء لانهائي، ولكن لم يستمر ذلك اللقاء المسائي اليومي أكثر من عشر دقائق فقط؛ فكانت تخلد حتماً إلى النوم، ويسقط رأسها فجأة نحو صدرها، ومن ثمّ تترك لي حرية الانسحاب إلى حجرتي. بالطبع، لم يكن هناك في ذلك الوقت علم فوق القمر؛ إذ قرأت في الصحف أن رواد الفضاء أزالوا العلم قبل هبوطهم ثانية إلى الأرض، ولكنني أشفقت من إخبارها بتلك الحقيقة.

في الموعد المستحق لدفع إيجار الأسبوع الأول، توجهت صباح يوم الجمعة ناحية البيانو بردهة المنزل؛ لكي أضع النقود فوق الرف، وعندما ضغطت على أحد مفاتيحه الكئيبة الباهتة اللون، لم يصدر أي صوت على الإطلاق. كنت قد وضعت الدولارات الثمانية في ظرف كتبت على مقدمته من الخارج اسم السيدة «كروفت»، فلم أعتدْ ترك النقود من دون عناية ولا إشارة. ومن ذلك المكان بالمنزل حيث أقف، شاهدت الشكل الجانبي لتنورة السيدة «كروفت» التي تشبه الخيمة؛ إذ كانت جالسة فوق المقعد تستمع إلى المذياع. وفكرت في أنه لا يوجد ما يدعو إلى جعلها تنهض بمنأى عن مقعدها، وتسير كل تلك المسافة إلى البيانو لكي تأخذ النقود، بخاصة أنني لم أرها تسير أبداً، وأفترض أنها تفعل ذلك بصعوبة؛ لوجود العكاز الذي يستند دائماً إلى حافة المنضدة المستديرة إلى جانبها. عندما اقتربت من مقعدها، حدقت في وجهي وسألتني:

Twitter: @ketab_n

– «ما شأنك؟»

– «تفضلي الإيجار يا سيدتي».

– «ضعه على الرف فوق مفاتيح البيانو!»

«أحضرته إليكِ هنا».. قدمت إليها الظرف، ولكن مازالت أصابعها مطوية معاً فوق أطراف ثوبها، ولم تتزحزح عن مكانها. انحنيت قليلاً، وأنزلت الظرف لكي يتأرجح فوق يديْها، وبعد مضي دقيقة، وافقت وأومأت برأسها.

عندما عدت إلى المنزل في تلك الليلة، جلست إلى جوارها كالمعتاد، وسألتني عما إذا كنت قد أوصدت الباب جيداً، ولكنها لم تذكر شيئاً عن العلم الموجود فوق القمر، وبدلاً من ذلك أردفت قائلة وهي مازالت ممسكة بظرف النقود في يديْها:

– «كان تصرفك ينم عن عطف كبير!»

– «عفواً.. ماذا تقصدين يا سيدتي؟»

– «كنت عطوفاً للغاية!»

في يوم الأحد، سمعت طرقاً على باب غرفتي، وعندما فتحته وجدت امرأة أخرى عجوزاً، قدمت نفسها على أنها «هيلين» ابنة السيدة «كروفت». طافت «هيلين» في أرجاء الغرفة وهي تنظر إلى كل حوائطها كأنها تتحسس علامات التغيير، وحدقت في القمصان المُعلقة في الخزانة، ورابطة العنق التي تتدلى من فوق مقبض الباب، وعلبة الكورن فيليكس الملقاة فوق خزانة الأدراج، والطبق والملعقة المتسخين في الحوض. كانت «هيلين» قصيرة وسميكة الخصر، وشعرها الفضي اللون ذا تسريحة قصيرة، وفوق شفتيْها أحمر شفاه وردي، وترتدي فستاناً صيفيّاً من دون أكمام، وفوق رقبتها عقدُ من الخرز الأبيض البلاستيكي، ونظارة متصلة بسلسلة تتعلق كالأرجوحة على صدرها، وكان كعباها «منقوشين» بالأوردة ذات اللون الأزرق الداكن، ويرتخي الجزء العلوي من كلتا ذراعيْها مثل لب الباذنجان المشوي. أخبرتني بأنها تعيش في مدينة «أرلينجتون» التي تبعد قليلاً عن طريق «ماساتشوسيتس»، وأردفت قائلة: «أجيء مرة كل أسبوع لإحضار

Twitter: @ketab_n

البقالة لوالدتي، ألم تطردك بعد؟»

– «الأمور تسير على ما يرام يا سيدتي».

– «لقد فر بعض الأولاد وهم يصرخون، ولكنني أظن أنها معجبة بك؛ إنك المستأجر الوحيد الذي أشارت إليه بلقب «السيد».

– «أشكرك يا سيدتي».

نظرت إليَّ، ولاحظت قدميَّ الحافيتيْن، (مازلت أشعر بالغربة حين أرتدي الحذاء داخل المنزل؛ ولذلك أخلعه قبل دخول غرفتي)، ثم سألتني: «هل أنت حديث العهد ببوسطن؟»

– «بل بأمريكا.. يا سيدتي».

رفعت حاجبيْها وسألتني: «من أين أتيت؟»

– «من كلكتا.. في الهند».

– «صحيح! كان لدينا زميل برازيلي قبل نحو عام مضى. سوف تكتشف أن «كامبريدج» مدينة دولية بحق».

أومأت برأسي موافقاً، وبدأت أتساءل: كم سوف تستغرق تلك المحادثة من الوقت؟ ولكن في تلك اللحظة، سمعنا عبر الدرج صوت السيدة «كروفت» تصرخ كالصاعقة، وعندما هرولنا إلى الردهة خارج الغرفة، سمعناها تصيح قائلة: «اهبطا في الحال!»

وفي المقابل صاحت «هيلين»: «ماذا حدث؟»

فكررت السيدة «كروفت»: «اهبطا في الحال!»

ارتديت حذائي على الفور، والتقطت «هيلين» أنفاسها.

كان الدرج ضيقاً، لا يتسع لنا كي نهبط من فوقه جنباً إلى جنب؛ ولذلك تقدمت «هيلين» وأنا تبعتها، ولكنها لم تبدُ في عجلة، بل اشتكت من ركبتها التي تؤلمها. صرخت «هيلين» متسائلة: «هل كنتِ تسيرين من دون العكاز؟ تعلمين أنه يجب عليكِ عدم السير من دونه». ثم توقفت، وأراحت يدها فوق درابزين الدرج، ونظرت إليَّ وأردفت قائلة:

Twitter: @ketab_n

«إنها تنزلق أحياناً».

كانت المرة الأولى التي تبدو فيها السيدة «كروفت» ضعيفة، وتخيلتها وهي تفترش الأرض أمام مقعدها الخشبي، منبطحة على ظهرها، تحملق في السقف، وموضع قدميْها في اتجاهيْن متضادين. ولكننا عندما وصلنا إلى أسفل الدرج، كانت قد عادت إلى جلستها المعتادة فوق مقعدها، ويداها مطويتان معاً فوق طرف ثوبها، وعند قدميْها يرقد كيسان من البقالة. وعندما وصلنا أمامها حيث تجلس، لم تأمرنا بالجلوس، بل نظرت إلينا في غضب.

– «ماذا حدث يا أمي؟»

– «إنه شيء غير محتشم!»

– «غير محتشم!.. ماذا تقصدين؟»

– إنه شيء غير محتشم بالنسبة إلى امرأة ورجل لا تربطهما علاقة زواج، أن يتبادلا حديثاً خاصًا من دون حضور طرف ثالث!».

وعلى الرغم مما ذكرته «هيلين» عن كونها بلغت الثامنة والستين من العمر؛ أي في مثل عمر والدتي، فإن السيدة «كروفت» أصرت على أن أتحدث إلى «هيلين» في الردهة بالطابق السفلي، وأضافت أيضاً أنه من غير المناسب لسيدة في مركز «هيلين» أن تعلن عن سنها صراحةً، وأن ترتدي فستاناً يعلو بدرجة كبيرة عن كاحلها.

– «أود أن أبلغكِ يا أمي أننا وصلنا إلى العام 1969. فماذا سوف تفعلين إذا خرجتِ من المنزل بالفعل في يوم ما، وشاهدتِ فتاة ترتدي تنورة تعلو ركبتها؟»

«سأجعلهم يلقون القبض عليها».. ردت السيدة «كروفت» باحتقار.

هزت «هيلين» رأسها، والتقطت واحداً من كيسي البقالة، وحملت أنا الكيس الآخر وتبعتها إلى المطبخ عبر الردهة. امتلأت الأكياس بعلب الحساء التي فتحتها «هيلين» الواحدة تلو الأخرى بحركات قليلة من فتاحة العلب، ثم قذفت بقايا الحساء القديم بالقدور ذات المقابض داخل الحوض، وغسلت المقلاة بماء الصنبور، وملأتهم بحساء العلب الجديدة، وأعادتهم ثانية إلى الثلاجة. قالت «هيلين»: «منذ أعوام قلائل مضت، كانت لا تزال

Twitter: @ketab_n

قادرة على فتح العلب بنفسها، أعلم أنها تكره قيامي بذلك من أجلها الآن، ولكن البيانو قتل أصابعها».. ثم وضعت نظارتها، وحدقت في خزانات المطبخ الصغيرة، وركزت على أكياس الشاي وسألتني: «هل نحتسي كوباً؟»

ملأتُ الغلاية فوق الموقد، وأردفتُ متسائلاً: «معذرة سيدتي.. هلاَّ أوضحتِ كيف كان البيانو سبباً في ذلك؟»

«اعتادت أن تعطي دروساً طوال أربعين عاماً، كان المصدر الوحيد لتربيتنا بعد وفاة والدي».. قالت «هيلين» وهي تضع يديْها فوق أرجلها وتحملق في الثلاجة المفتوحة، فوقع بصرها على غلاف قطعة من الزبد، فالتقطته في عبوس، وقذفته في كيس المخلفات، ثم وضعت علب الحساء المغلقة في خزانة المطبخ، بينما جلست أنا فوق المنضدة أراقبها؛ وهي تنظف الصحون المتسخة وتربط كيس المخلفات، وتروي الزرع الموجود فوق الحوض، وأخيراً سكبت الماء المغلي في فنجانين، وناولتني أحدهما من دون إضافة لبن، وكان خيط كيس الشاي يتدلى على جانب الفنجان، ثم جلست إلى المنضدة.

– «معذرة سيدتي.. هل هذا كافٍ؟»

احتست «هيلين» رشفة من فنجان الشاي، وترك أحمر شفتيْها بقعة وردية على شكل ابتسامة فوق الحافة الداخلية للفنجان، وسألتني: «ماذا تقصد؟»

– «الحساء الموجود في المقلاة.. هل هو كافٍ لإطعام السيدة كروفت؟»

– «إنها لا ترغب في تناول أي شيء آخر؛ توقفت عن تناول الأطعمة الصلبة بعد أن تجاوز عمرها مائة عام.. كان ذلك قبل ثلاث سنوات ماضية تقريباً».

شعرتُ بالخزي؛ كنت أظن أن السيدة «كروفت» في العقد الثامن من عمرها أو ربما تكون أكبر من ذلك مقتربة من التسعين عاماً. لم أعرف مطلقاً شخصاً عاش أكثر من قرن كامل، وجعلتني حقيقة كون تلك السيدة أرملة تعيش وحيدة، أشعر بالمزيد من الألم؛ ألم يكن الترمل هو ما دفع بأمي إلى الجنون؟ توفي والدي ـ الذي كان يعمل موظفاً بمكتب البريد العمومي في «كلكتا» ـ إثر التهاب دماغي عندما كنت في السادسة عشرة من عمري. ورفضت والدتي أن تتكيف مع الحياة من دونه؛ وبدلاً من ذلك استغرقت بعمق

Twitter: @ketab_n

في عالم مظلم؛ فلم أستطع أنا ولا أخي ولا أقاربنا المهتمون ولا عيادات الأطباء النفسيين في طريق «راشبيهاري» أن ننقذها منه. وأشد ما أصابني بالألم أن أراها فاقدة صوابها على نحو كبير جدّاً؛ كنت أسمعها تتجشأ بعد تناول الوجبات، أو تنفث الغازات أمام الناس من دون الشعور بأدنى قدر من الإحراج. تخلى أخي عن دراسته بعد وفاة والدي، وبدأ يعمل في مصنع لغزل نبتة الجوتة[1]- الذي نجح في إدارته في نهاية الأمر - حتى يتمكن من توفير نفقات المنزل؛ ومن ثمّ كانت مهمتي أن أجلس لرعاية والدتي وأستذكر دروسي لاجتياز امتحاناتي، بينما تجلس والدتي منشغلة بتكرار عد الأساور في ذراعيْها، كأنها الخرز الذي يتعلم عليه الأطفال في العداد الخشبي. وقد حاولنا ألا تغيب عن أعيننا أبداً؛ فذات مرة تجولت وهي نصف عارية ووصلت إلى محطة الترام قبل أن نتمكن من إعادتها إلى منزلنا ثانية.

«يسعدني أن أدفيء الحساء للسيدة كروفت في المساء، لن يزعجني ذلك».. اقترحت ذلك على «هيلين» وأنا أزيل كيس الشاي من الفنجان وأعصره.

نظرت «هيلين» إلى ساعتها، ونهضت من مكانها، ثم ألقت ببقية فنجان الشاي الخاص بها في الحوض، وأردفت قائلة: «لن أفعل ذلك لو كنت مكانك؛ فهذا النوع من التصرف سوف يقتلها، بكل ما تحمله الكلمة من معانٍ».

في ذلك المساء، بعدما عادت «هيلين» إلى حيث تستقر في «أرلينجتون»، وكنت بمفردي من جديد مع السيدة «كروفت»، بدأ ينتابني شعور بالقلق؛ فبعد أن علمت الآن أنها متقدمة في العمر إلى ذلك الحد، أصابني القلق من أن يحدث لها شيء في منتصف الليل، أو عندما أكون في الخارج في أثناء النهار. وعلى الرغم من قوة صوتها وما يبدو عليها من استبداد، فإنني أعلم حقيقة أن مجرد خدشة أو كحة كفيلة بأن تقضي على حياة شخص في مثل سنها؛ إن كل يوم تعيش فيه بمثابة معجزة. وعلى الرغم أيضاً من أن «هيلين» كانت تبدو ودودة بالقدر الكافي، فإن شيئاً في نفسي أشعرني بالقلق من أنها ربما تتهمني

1- الجوتة: قِنّب كلكتا: ألياف مُستخرجة من نباتيْن هنديْن، تُستعمل في صنع الخيش. (المترجمة)

Twitter: @ketab_n

بالإهمال إذا ما أصابها مكروه. لم تكن «هيلين» على ذلك القدر من الاكتراث؛ كانت تجيء وتذهب وتحضر علب الحساء للسيدة «كروفت» في أيام الأحد.

مضت الأسابيع الستة من الصيف على ذلك الحال؛ كنت أعود إلى المنزل كل مساء بعد انتهاء ساعات عملي في المكتبة، وأقضي دقائق قليلة مع السيدة «كروفت» على مقعد البيانو. أمضيتُ معها بعضاً من وقتي، وكنت أؤكد لها أنني أغلقت الباب جيداً، وأخبرها أن وجود علم فوق القمر أمر رائع حقّاً. أحياناً، كنت أجلس إلى جانبها بعد أن تخلد إلى النوم بوقت طويل، ومازلت أشعر بالرهبة من السنوات الطويلة التي عاشتها على هذه الأرض. حاولت ـ في بعض الأحيان ـ أن أتخيل العالم الذي وُلدت فيه عام 1866؛ عالماً في تصوري ممتلئاً بسيدات يرتدين التنورات السود الطويلة، ويتبادلن الأحاديث المحتشمة في الردهة. في ذلك الوقت، عندما نظرتُ إلي يديْها ـ بمفاصل أصابعها المنتفخة ـ وهما مطويتان معاً فوق طرف ثوبها، تخيلتهما كما كانتا؛ ناعمتيْن ونحيلتيْن وتضربان مفاتيح البيانو. كنت أهبط إلى الدور السفلي في بعض الأوقات قبل أن أخلد إلى النوم، لكي أتأكد من أنها تجلس في وضع عمودي على المقعد أو ترقد في أمان في حجرة نومها. كنت أتأكد من تسليمها الإيجار في يديها أيام الجمعة، لم يكن بوسعي أن أفعل من أجلها شيئاً آخر بخلاف تلك الإيماءات البسيطة؛ فهي ليست والدتي، وباستثناء الدولارات الثمانية، لم أكن مديناً لها بأي شيء.

بنهاية شهر أغسطس، أصبح جواز سفر زوجتي «مالا» والجرين كارد الخاصة بها جاهزين. وتلقيت تلغرافاً بتفاصيل رحلتها؛ فلم يكن هناك هاتف بمنزل أخي في «كلكتا». كما استلمتُ في التوقيت نفسه تقريباً، خطاباً كانت قد كتبته إليَّ بعد أيام قليلة من رحيلي، ولكنها لم تستهل الخطاب بتحية رسمية، وخاطبتني باسمي مباشرة؛ الأمر الذي افترض قدراً معيناً من المودة لم نكن قد وصلنا إليه بعد. احتوى خطابها على أسطر قليلة فقط: «أكتب إليك بالإنجليزية استعداداً لهذه الرحلة. أشعر بوحدة شديدة في هذا المنزل. هل الطقس شديد البرودة عندك؟ وهل يتساقط الثلج؟ تحياتي، مالا».

Twitter: @ketab_n

لم يرق قلبي لكلماتها؛ فلم نقضِ معاً سوى حفنة أيام، ومع ذلك كنا مرتبطيْن معاً، طوال ستة أسابيع كانت مُرهقة من جراء ارتداء سوار حديدي في معصمها، ووضع مسحوق قرمزي اللون فوق شطر من شعرها؛ لكي تبرهن للعالم أنها عروس. وخلال تلك الأسابيع الستة، انتظرت قدومها مثلما أنتظر حلول شهر أو فصل جديد؛ شيء حتمي الحدوث، غير أنه لا يعني لي شيئاً في ذلك الوقت. لم أتعرف إلا إلى القليل جدّاً منها؛ وبينما أتذكر أحياناً بعضاً من تفاصيل وجهها، لم أتمكن من استحضاره بالكامل في ذهني.

بعد أيام قلائل من استلامي خطاب «مالا»، وبينما كنت أسير في طريقي إلى عملي في الصباح، رأيت امرأة هندية على الجانب الآخر من طريق «ماساتشوسيتس»، ترتدي سارياً وطرف نهايته المفتوحة مجرور تقريباً فوق الرصيف، كانت تدفع أمامها طفلاً، يجلس في عربة أطفال، وإلى جانبها تسير امرأة أمريكية ومعها كلب أسود صغير موثق بسلسلة، وفجأة بدأ الكلب العواء. ومن الطرف الآخر من الشارع راقبت ما حدث؛ إذ أُصيبت المرأة الهندية بالهلع، وتوقفت عن السير في طريقها، لدرجة أن الكلب قفز، وقبض على طرف الساري الذي ترتديه بين أسنانه، وما كان من المرأة الأمريكية إلا أن نهرت الكلب، وبدت عليها ملامح الاعتذار، ثم انصرفت بعيداً مسرعة، تاركة المرأة الهندية تعيد ترتيب ثوبها، وتهدئة طفلها الذي كان يبكي. لم تلاحظ المرأة الهندية مراقبتي للموقف من الجانب الآخر، واستأنفت السير في طريقها. أدركت ذلك الصباح، أن مثل هذا الحادث المؤسف يقع في دائرة اهتماماتي، ونبهني إلى واجبي في الاعتناء بـ «مالا» من حيث الترحيب بها وحمايتها، ويتعين عليّ أن أشتري لها أول زوجين من الأحذية العالية المناسبة للسير في الثلج، وكذلك أول معطف سوف تقتنيه للشتاء. ويقع على عاتقي إخبارها بالشوارع التي يجب أن تتجنبها، والاتجاه الذي يسير فيه المرور، وأن ترتدي الساري بطريقة تمنع أن يُجر طرفه المفتوح فوق الرصيف. وتذكرت بنوع من الغضب، أن ابتعادها عن والديْها لمسافة لا تتعدى خمسة أميال قد تسبب في بكائها.

وعلى العكس من «مالا»، كنت قد تأقلمت مع الموقف في ذلك الوقت؛ اعتدت تناول الكورن فيليكس مع اللبن، وألفت زيارات «هيلين»، وجلوسي فوق المقعد مع

Twitter: @ketab_n

السيدة «كروفت»، غير أن الشيء الوحيد الذي لم أعتدْه هو «مالا» نفسها. وعلى الرغم من ذلك، أديت ما يجب عليَّ أن أفعله. ذهبتُ إلى مكتب العقارات بالمعهد، وعثرت على شقة مفروشة على بعد مسافة بنايات قليلة، بها سرير مزدوج ومطبخ ومرحاض منفصلان، في مقابل أربعين دولاراً في الأسبوع. في يوم الجمعة الأخير بالنسبة إليَّ في منزل السيدة «كروفت»، سلمتها في يدها الظرف الذي يحتوى على الإيجار ـ ثمانية دولارات ـ وأنزلت حقيبة سفري إلى الطابق الأسفل، وأخبرتها بأمر رحيلي. وضعت السيدة «كروفت» المفتاح الذي كان بحوزتي في حافظة نقودها، والشيء الأخير الذي طلبت مني القيام به هو أن أناولها العكاز الذي يستند إلى المنضدة؛ حتى تتمكن من السير إلى الباب وغلقه ورائي. «إذاً، مع السلامة».. قالت السيدة «كروفت»، ثم انسحبت إلى داخل المنزل، لم أتوقع أن تُبدي لي أي نوع من المشاعر، ولكن على الرغم من ذلك شعرت بالإحباط، لم أكن بالنسبة إليها سوى مستأجر؛ رجل يدفع لها مبلغاً من المال، ويدخل ويخرج من منزلها لمدة ستة أسابيع، مقارنةً بعمرها الذي يتجاوز القرن، لا تمثل تلك الأسابيع الستة أي شيء.

تعرفت إلى «مالا» في المطار على الفور، ولم يكن طرف الساري الذي ترتديه مجروراً على الأرض، بل كان منسدلاً فوق رأسها؛ علامة على حياء العروس، بالطريقة نفسها التي كان منسدلاً بها على رأس أمي قبل وفاة أبي. كانت الأساور الذهبية مكدسة في ذراعيْها السمراويْن النحيلتيْن، ودائرة حمراء صغيرة مرسومة فوق جبهتها، وأطراف قدميْها مزينة برسوم صبغة الحنة الحمراء. لم أعانقها ولا قبلتها ولا أمسكت بيدها، وبدلاً من ذلك تحدث إليها بالبنغالية ـ المرة الأولى التي أستخدم فيها هذه اللغة في أمريكا ـ لسؤالها عما إذا كانت تشعر بالجوع.

فترددت في الإجابة، ثم أومأت بالإيجاب.

أخبرتها بأنني أعددت بعضاً من طبق البيض بالكاري في المنزل، ثم سألتها: «ماذا قدموا إليكِ من طعام في الطائرة؟»

Twitter: @ketab_n

– «لم آكل في الطائرة».

– «طوال تلك المسافة من كلكتا؟»

– «احتوت قائمة الطعام على حساء ذيل الثور».

– «ولكن، بالطبع، كانت هناك أصناف أخرى».

– «مجرد التفكير في تناول ذيل الثور، جعلني أفقد شهيتي».

عندما وصلنا إلى المنزل، فتحت «مالا» واحدة من حقائب سفرها، وأهدتني سترتيْن صوفيتيْن باللون الأزرق الزاهي؛ صنعتهما لي بنفسها في أثناء فترة غيابي عنها منذ سفري، سترة منهما رقبتها على شكل حرف V، أما الثانية فمغطاة بالأربطة، ثم قمت بقياسهما، وكانت السترتان ضيقتيْن من تحت الإبطيْن، وأحضرت «مالا» لي أيضاً بيجامتيْن جديدتيْن للنوم سراويلهما ذات أربطة، وخطاباً من أخي، وعلبة من شاي «دارجيلنج» السايب. وباستثناء طبق البيض بالكاري، لم تكن لديَّ هدية أقدمها إليها. جلسنا إلى منضدة عارية، وكل منا يحدق في صحنه، تناولنا الطعام بأيدينا، وهو شيء آخر لم أكن قد فعلته منذ قدومي إلى أمريكا.

«المنزل لطيف، وكذلك طبق البيض بالكاري».. قالت وهي تمسك بيدها اليسرى طرف الساري، وقد ثبتتها فوق صدرها؛ حتى لا ينزلق الساري من فوق رأسها».

– «لا أجيد طهي أصنافٍ كثيرة».

أومأت برأسها، وهي تنتزع قشرة البطاطس قبل أن تتناولها، وفي أثناء ذلك، انزلق الساري فوق كتفيْها، فأعادته إلى مكانه على الفور فوق رأسها.

قلت لها: «لا داعي لتغطية رأسكِ؛ فأنا لا أمانع، ولا يعني هذا الأمر شيئاً هنا».

وعلى الرغم من ذلك، حافظت على رأسها مغطى.

انتظرت أن أتعودها؛ أن أتعود وجودها إلى جانبي على المنضدة وفي فراشي، ولكن على الرغم من مضيّ أسبوع، فإننا لا نزال غرباء. ولم أعتدْ العودة إلى شقة تفوح منها رائحة بخار الأرز، وأكتشف أن الحوض في المرحاض نظيف دائماً، وفرشاة أسناني وفرشاة أسنانها جنباً إلى جنب، وتستقر قطعة من الصابون الهندي برائحة الكمثرى في المكان المخصص لها فوق الحوض. ولم آلف أيضاً شذا زيت

Twitter: @ketab_n

جوز الهند الذي تمرره كل مساء فوق فروة رأسها، والصوت الرقيق الذي تحدثه أساورها في أثناء تحركها في الشقة. كانت تستيقظ قبلي في الصباح؛ في المرة الأولى عندما دخلت إلى المطبخ، وجدتها قد سخنت ما تبقى من طعام الليلة الماضية، ووضعت طبقاً به مقدار ضئيل من الملح على حافة المنضدة، مفترضة أنني سأتناول الأرز في الإفطار مثلما يفعل أغلب الأزواج البنغاليين. أخبرتها أنني أكتفي بالحبوب، وعندما دخلت المطبخ في صباح اليوم التالي، وجدتها بالفعل قد سكبت الكورن فيلكس في الصحن. اصطحبتها في صباح أحد الأيام في جولة بطريق «ماساتشوسيتس»، وجعلتها تزور أبنية المعهد، وتوقفتْ ونحن في طريقنا لدى محل للأدوات المعدنية، وعمدتْ إلى استخراج نسخة إضافية من المفتاح حتى يمكنها العودة بنفسها ودخول الشقة. وطلبتْ مني أن أترك لها بعض النقود في صباح اليوم التالي، فأعطيتها النقود على مضض، ولكنني كنت أدرك أيضاً أن ذلك بات شيئاً طبيعياً الآن. وعندما عدت من عملي إلى المنزل، وجدت مقشرة بطاطس في درج المطبخ، والمنضدة مفروشة بغطاء، وعلى الموقد صحن دجاج بالكاري مضاف إليه الثوم والزنجبيل الطازجان. لم يكن لدينا تلفاز في تلك الأيام؛ فكنت أقرأ الجرائد بعد تناول العشاء، بينما تجلس «مالا» إلى منضدة المطبخ لتعكف على صنع سترة شتوية لنفسها بالمزيد من الصوف الأزرق الزاهي، وأحياناً تكتب خطابات لأهلها.

في نهاية العطلة الأسبوعية الأولى التي قضيناها معاً، اقترحت عليها أن نخرج يوم الجمعة، فتركت «مالا» الإبر التي تنسج بها السترة، واختفت في المرحاض، وعندما ظهرت شعرت بالندم من جراء اقتراحي هذا. ارتدت «مالا» سارياً حريرياً نظيفاً، ووضعت المزيد من الأساور في ذراعيْها، ولفت شعرها على نحو جانبي فوق رأسها؛ ما جعلها تبدو أكثر جمالاً. استعدت للخروج كأنها ذاهبة إلى حفلة، أو على الأقل إلى السينما، ولكن لم يكن في بالي الذهاب إلى مثل هذه الأماكن. كان هواء ذلك المساء عطراً؛ فتمشينا بمحاذاة العديد من البنايات في طريق «ماساتشوسيتس»، ونحن ننظر إلى نوافذ

Twitter: @ketab_n

المطاعم والمقاهي، ومن دون تفكير؛ اصطحبتها إلى الشارع الهادئ الذي قضيت فيه ليالي كثيرة وأنا أسير بمفردي.

توقفت أمام سياج السلاسل المتصلة بمنزل السيدة «كروفت»، والتفتُ إلى «مالا» قائلاً: «كنت أعيش في هذا المنزل قبل مجيئكِ».

– «في مثل هذا المنزل؟»

– «كنت مستأجراً حجرة صغيرة بالطابق العلوي تطل على خلفية المنزل».

– «ومن غيرك عاش بالمنزل؟»

– «سيدة عجوز للغاية».

– «مع بقية أسرتها؟»

– «بل بمفردها».

– «ولكن من يعتني بها إذاً؟»

«هي التي تعتني بنفسها غالباً».. أجبتها، ثم فتحت البوابة.

جالت بخاطري عدة تساؤلات؛ تُرى أتتذكرني السيدة «كروفت»؟ وهل لديها مستأجر جديد، يجلس معها فوق المقعد كل مساء؟ عندما ضغطت على زر الجرس، توقعت أن أنتظر وقتاً طويلاً، مثلما حدث في المرة الأولى التي حضرت فيها لمعاينة الحجرة؛ فلم يكن معي مفتاح وقتها. ولكن في هذه المرة، فتحت «هيلين» الباب على الفور، ولم تكن السيدة «كروفت» جالسة فوق مقعدها، بل لم يعد للمقعد وجود.

ابتسمت «هيلين» بشفتيْها الورديتيْن المشرقتيْن في وجه «مالا»، ثم قالت: «أهلاً وسهلاً، والدتي في الردهة، هل تمكث معنا لزيارتها بعض الوقت؟»

– «كما ترغبين يا سيدتي».

– «إذاً يمكنني الإسراع لشراء أشياء من المتجر، إذا لم تمانع. أصيبت والدتي في حادث بسيط، ولم نعدْ قادرين على تركها بمفردها في هذه الأيام، ولا حتى لمجرد دقيقة

Twitter: @ketab_n

واحدة».

أغلقت الباب بعد خروج «هيلين»، وخطوت إلى الردهة؛ حيث ترقد السيدة «كروفت» على ظهرها، وتضع رأسها فوق وسادة بلون الخوخ، وينبسط فوق جسدها لحاف أبيض رقيق، أما يداها فكانتا مطويتيْن معاً أعلى صدرها. عندما رأتني، أشارت إلى الأريكة، وطلبت مني الجلوس فوقها، فجلست في المكان الذي أشارت إليه، ولكن «مالا» اتجهت إلى البيانو وجلست فوق مقعده، الذي جرت إعادته إلى مكانه الطبيعي.

«تسببتُ في كسر مفصل ساقي!».. أخبرتني السيدة «كروفت»؛ كأن وقتاً لم يمضِ على مغادرتي هذا المنزل.

– «ما أسوأ ذلك، سيدتي العزيزة».

– «سقطت من فوق المقعد!»

– «أشعر بالأسف الشديد من أجلك».

– «حدث ذلك في منتصف الليل! أتعلم ماذا فعلت يا ولد؟.. اتصلت بالشرطة!»

حدقت السيدة «كروفت» في السقف، ثم ابتسمت برصانة، فأظهرت صفّاً مزدحماً من الأسنان الطويلة الرمادية لا ينقصها سن واحد، وأردفت قائلة: «ما رأيك في ذلك، يا ولد؟»

وعلى الرغم من الذهول الذي أصابني، كنت أعلم ما يجب عليَّ أن أقوله، ومن دون تردد إطلاقاً، هتفت قائلاً: «رائع!».

عندها، ضحكت «مالا»، كان صوتها مفعماً بالحنان، وعيناها مشرقتيْن بالسرور، لم أسمع ضحكتها من قبل، كانت عالية بما يكفي لأن تسمعها السيدة «كروفت» أيضاً، واستدارت تنظر إلى «مالا»، وحملقت في وجهي.

– «من هذه المرأة يا ولد؟»

– «إنها زوجتي يا سيدتي».

ضغطت السيدة «كروفت» رأسها على أحد جوانب الوسادة؛ لترى «مالا» بصورة أفضل، وسألتها: «هل بمقدورك العزف على البيانو؟»

Twitter: @ketab_n

«لا يا سيدتي».. أجابت «مالا».

– «إذاً .. انهضي من على مقعد البيانو!»

نهضت «مالا» على قدميها، وقبضت بيدها على طرف الساري الذي ترتديه، وضبطته فوق رأسها، مقرِّبةً إياه من صدرها، ولأول مرة منذ وصولها أشعر بالتعاطف تجاهها. وتذكرت أيامي الأولى في لندن؛ عندما كنت أتعلم كيفية ركوب المترو للوصول إلى ميدان «روسيل»، وركوب السلم الدوار للمرة الأولى، وعدم قدرتي على استيعاب الطرق العامية لتهجئة بعض الكلمات ومنها كلمة «ورق»؛ كأنها شفرات يتعين عليَّ فك طلاسمها؛ فعلى سبيل المثال، استغرقت فترة عام كامل حتى أدركت ما يقصده السائق عندما يعلن قائلاً: «احترسْ من الفجوات» في أثناء إقلاع القطار من كل محطةً. سافرت «مالا» ـ مثلي ـ بعيداً عن بلادها، دون أن تعرف إلى أين هي ذاهبة، ولا ما سوف تواجهه، ولم يكن لذلك سبب آخر سوى كونها زوجتي. وعلى الرغم من غرابة ما يبدو عليه الأمر، فإنني أحسست في قلبي أن موتها سوف يؤثر فيَّ يوماً من الأيام، وما بدا لي أكثر غرابة؛ أن موتي أيضاً سوف يؤثر فيها. وددت أن أوضِح ذلك بطريقة ما للسيدة «كروفت»، التي مازالت تتفحص «مالا» من رأسها إلى قدميْها بما بدا أنه ضرب من الازدراء الهادئ. وتعجبت إن كانت السيدة «كروفت» قد شاهدت من قبل امرأة ترتدي سارياً، وفوق جبينها نقطة مرسومة، ومعصماها مختنقان بالأساور، وتساءلت: تُرى ما الذي تعترض عليه؟ وهل في مقدورها ملاحظة الصبغة الحمراء التي مازالت مشرقة فوق قدمي «مالا»، ولا يحجبها سوى الطرف السفلي للساري؟ وأخيراً صاحت السيدة «كروفت»، بذلك القدر من الدهشة والسرور اللذيْن أعرفهما جيداً، لتقول:

– «إنها سيدة مثالية!»

في تلك المرة، أنا الذي ضحكت، ولكن بهدوء شديد، لم تسمعني السيدة «كروفت»، ولكن سمعتني «مالا»، وكانت المرة الأولى التي نتبادل فيها النظرات، ونبتسم.

يروق لي أن أصف تلك اللحظة التي جمعتني بـ «مالا» في ردهة منزل السيدة «كروفت» بأنها اللحظة التي بدأت فيها المسافة تذوب فيما بيننا، وعلى الرغم من أننا لم نكن بعد

Twitter: @ketab_n

غارقيْن في الحب، فإن الشهور التالية كانت بمثابة شهر عسل؛ اكتشفنا فيها معالم المدينة معاً، وتقابلنا مع بنغاليين آخرين، وبعض منهم لا يزالون أصدقاءنا حتى اليوم، وعثرنا على رجل يُدعى «بيل» يبيع السمك الطازج في شارع «بروسبيكت»، كما وجدنا متجراً في ميدان «هارفارد» يُطلق عليه اسم «كاردليولس» يبيع أوراق نباتي الغار والقرنفل. وفي الأمسيات، كنا نسير إلى نهر «تشارلز» لمشاهدة المراكب الشراعية وهي تندفع عبر المياه، أو نتناول الآيس كريم في فناء «هارفارد»، وابتعنا «كاميرا» لتسجيل حياتنا معاً بالصور، والتقطت لها صوراً، وهي تقف أمام مبنى «برودنشال»؛ لكي تُرسلها إلى والديْها. وفي المساء، كنا نتبادل القبلات ـ بخجل في البداية، ولكن سرعان ما يتحول إلى جرأة ـ ووجدنا المتعة والسكن في أحضان بعضْنا. رويت لها عن رحلتي فوق سفينة «إس إس روما»، وعن ضاحية «فينسبري بارك»، وعن دراستي في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية، وأخبرتها بالأمسيات التي قضيتها على المقعد إلى جوار السيدة «كروفت»، وبكت «مالا» حين قصصت لها روايات تتعلق بوالدتي، وواستني أيضاً عندما قرأت نعي السيدة «كروفت» بجريدة «جلوب» في إحدى الأمسيات.

طوال الشهور العديدة الماضية، لم أفكر في السيدة «كروفت»؛ في ذلك الوقت أصبحت الأسابيع الستة، التي قضيتها في منزلها في أثناء الصيف، أشبه بفصل مختلف في حياتي الماضية، ولكن غمر قلبي حزن كبير عندما علمت بأمر وفاتها، لدرجة أن «مالا» عندما رفعت نظرها من الغزل، وجدتني أحدق في الحائط ولا أقوى على الكلام. كان رحيل السيدة «كروفت» أول حادث موت يفجعني في أمريكا؛ لأنها كانت تمثل أول حياة أعجبتني هناك، وأخيراً تركت هذا العالم، وهي بالغة الكبر ووحيدة، ولن تعود إليها أبداً.

وبالنسبة إليَّ، لم أشرد بعيداً؛ ذلك أنني أعيش أنا و«مالا» في مدينة تبتعد عن «بوسطن» مسافة عشرين ميلاً، في شارع تصطف على جانبيْه الأشجار، ويشبه كثيراً منزل السيدة «كروفت»، ولكننا امتلكناه، وبه حجرة للضيوف، وحديقة تنقذنا من شراء الطماطم في الصيف. وأصبحنا مواطنين أمريكيين الآن، ومن ثمّ يمكننا الحصول على الضمان

Twitter: @ketab_n

الاجتماعي عندما يحين موعده. وعلى الرغم من أننا نزور «كلكتا» كل بضعة أعوام، فإننا قررنا البقاء هنا حتى نبلغ الكبر. وأعمل بمكتبة جامعة صغيرة، ولدينا ابن يدرس في جامعة «هارفارد»، ولم تعد «مالا» تسدل نهاية الساري فوق رأسها، ولا تبكي ليلاً لفقدان والديْها، ولكنها من وقت إلى آخر تبكي لفراق ابننا؛ ولذلك ذهبنا بالسيارة إلى «كامبريدج» لزيارته أو إحضاره معنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في المنزل؛ حتى يتمكن من تناول الأرز معنا بيديْه، ولكي يتحدث البنغالية، وهي أشياء تُشعرنا بالقلق أحياناً خشية ألا يحرص ابننا عليها بعد موتنا.

وعندما نقوم بتلك الرحلة بالسيارة، أختار دائماً المرور من طريق «ماساتشوسيتس» على الرغم من ازدحامه. أصبح إدراك المباني من الأشياء النادرة الحدوث الآن، ولكنني في كل مرة أكون فيها على تلك الطريق، أعود على الفور إلى تذكر الأسابيع الستة التي قضيتها هناك، كأن ذلك حدث في الليلة الماضية! وأعمد إلى تهدئة السير للإشارة إلى منزل السيدة «كروفت»، وأخبر ولدي بأن أول منزل لي في أمريكا كان في ذلك المكان؛ حيث عشت مع امرأة عمرها يزيد على المائة بثلاثة أعوام. «هل تتذكر؟».. تقول «مالا» مبتسمة ومذهولة ـ مثلي تماماً ـ كنا نتعامل مع بعضنا كغرباء في وقت ما من الأوقات. أما ولدي فيعبِّر دائماً عن دهشته، ليس من عمر السيدة «كروفت»، ولكن من ضآلة مبلغ الإيجار الذي دفعته؛ الأمر الذي يمثل حقيقة غير قابلة للتصديق بالنسبة إليه، مثلما كانت قضية وجود علم فوق القمر، مذهلة لسيدة وُلدت في العام 1866. أرى في عيني ولدي ذلك الطموح الذي دفعني في البداية إلى اكتشاف العالم، والذي سيتخرج في جامعته في غضون أعوام قليلة، ويشق طريقه الخاص بمفرده، دون حماية. ولكنني ذكّرت نفسي بأن ولدي لديه والد مازال على قيد الحياة، ووالدة سعيدة وقوية. وعندما يشعر بإحباط، أخبره بأنه إذا كان بمقدوري العيش في قارات ثلاث، فلن يكون أمامه عائق لن يقوى على هزيمته. وبينما يظل رواد الفضاء أبطالاً إلى الأبد؛ لقضاء مجرد ساعات قليلة فوق القمر، فقد تمكنت من البقاء في هذا العالم الجديد أكثر من ثلاثين عاماً. بالطبع أعلم أن ما حققته يُعد شيئاً عادياً للغاية، ولست الرجل الوحيد الذي يبحث عن حظه بعيداً عن موطنه،

Twitter: @ketab_n

وبالتأكيد لست الأول في ذلك. وعلى الرغم من ذلك، فإنني أشعر أحياناً بالذهول وأنا أفكر في كل ميلٍ قطعته مسافراً، وكل وجبة طعام تناولتها، وكل شخص تعرفت إليه، وكل حجرة نمت فيها. وعلى الرغم من الصورة العادية التي تبدو عليها كل تلك الأشياء، فإنني أحياناً أفكر في أنها أشياء تتجاوز خيالي.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المؤلفة:

كاتبة أمريكية هندية الأصل، وُلدت في لندن في الحادي عشر من شهر يوليو من العام 1967، ونشأت في ولاية «رود آيلند» الأمريكية، حيث انتقلت عائلتها عندما كانت هي في الثالثة من عمرها. وحاليا تعيش «جومبا» في «نيويورك» مع زوجها وطفليها.

حصلت «جومبا» على عدد من درجات الماجستير من جامعة «بوسطن»: ماجستير في اللغة الإنجليزية، وماجستير في الكتابة الإبداعية، وماجستير في الأدب المقارن، ثم حصلت على درجة الدكتوراه في دراسات عصر النهضة الأوروبية.

خلال سنوات دراستها الست في جامعة «بوسطن»، عكفت «جومبا» على كتابة مجموعة من القصص القصيرة تتناول تفاصيل شؤون الحياة اليومية لمجموعة من الهنود المهاجرين أو الهنود بشكل عام. وقد صدرت تسع منها في مجموعتها القصصية الأولى «ترجمان الأوجاع» Interpreter of Maladies في العام 1999، ثم أصدرت رواية بعنوان «السَّمِيّ» The Namesake في العام 2003 والتي تحولت إلى فيلم سينمائي أخرجته المخرجة الهندية «ميرا نير» في العام 2007، ثم أصدرت مجموعتها القصصية الثانية في العام 2008 تحت عنوان «أرض غير مألوفة» Unaccustomed Earth.

Twitter: @ketab_n

نبذة عن المترجمة:

حاصلة على ليسانس الآداب قسم اللغة الإنجليزية وآدابها من جامعة القاهرة عام 1997، وقامت بإجراء دراسات في الترجمة التحريرية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة. صدر لها من قبل عن دار نشر شرقيات كتاب «عبودية الكراكيب» وكتاب «فن الحياة» وكتاب «تقنيات الأداء المسرحي.. بناء الشخصية»، وكتاب «كيف تصبح ممثلاً موهوباً.. حول أسلوب التمثيل». نشرت مقالات وحوارات صحفية في مجلة «نصف الدنيا» الصادرة عن مؤسسة الأهرام، وموضوعات مُترجمة في مجلة «علاء الدين» الصادرة عن المؤسسة ذاتها، وعدداً من الموضوعات الصحفية في إصدارات دار الصدى الإماراتية، بالإضافة إلى عدد من الترجمات في مجلتي «الطفولة والتنمية» و«خطوة» الصادرتين عن المجلس العربي للطفولة والتنمية.

Twitter: @ketab_n

ترجمان الأوجاع

حائزة على جائزة «بن هيمنجواي» (1999).

«أفضل أول عمل أدبي للعام».

مجلة «نيويوركر»

«صوت جديد شديد التميّز... جومبا لاهيري تسطر سردها في بلاغة ينسى معها القارئ أن بين يديه مجموعة قصصية هي التجربة الأولى لهذه الكاتبة الشابة».
ميتشيكو كاكوتاني - جريدة «نيويورك تايمز»

«جومبا لاهيري من نوع الكُتّاب الذين يجعلونك ترغب في أن تُمسك بأول شخص تراه وتحثه على قراءة هذا الكتاب!»

آمي تان

«عندما بدأت الكتابة، لم أدرك أن قضيتي الرئيسة ستكون تجارب الأمريكيين ذوي الأصول الهندية. فما شجّعني على الاشتغال بالكتابة هو رغبتي في اقتحام العالمين اللذين عشتهما، فأمزج فوق الأوراق ما لم أتحلَّ بما يلزم من شجاعة أو نضج كي أسمح به في الحياة الواقعية».

جومبا لاهيري

ISBN 978-9948-01-426-3

cover by phxcom.com

أبوظبي للثقافة و التراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

كلمة
KALIMA

المعارف العامة
الفلسفة وعلم النفس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة